دكتور يوسف القرضاوي

العبادة في الإسلام

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الرابعة و العشرون
١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت: ٤٨٢٧٨٥١

من الدستور الإلهى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ *

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ *

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ *

« صدق الله العظيم »

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا. وسيئات أعمالنا. ونصلي ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

وبعد..

فهذه هي الطبعة الثالثة من كتابي «العبادة في الإسلام» بعد أن هذّبته وعدّلته ووسعته. حتى بدا في صورة أخرى غير الصورة التي ظهر بها منذ أحد عشر عاماً.

والكتاب ليس بحثاً في «الأحكام الفقهية» للعبادة، فلهذا موضع آخر، هو كتاب «تيسير الفقه» الذي أسأل الله أن يعين على إخراجه وإتمامه. وإنما هو بحث في حقيقة العبادة ومنزلتها وأسرارها، وإن شئت فقل: هو بحث في «فلسفة العبادة» في الإسلام.

ولو شئنا كلمة إسلامية أصيلة نعبّر بها عن هذا المعنى لكانت «فقه العبادة» لا بالمدلول الاصطلاحي الذي شاع وأصبح عنواناً على معرفة الأركان والشروط والأحكام الظاهرة والجزئية، بل بالمدلول الذي جاء به القرآن والسنة، في مثل قوله تعالى: «قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ»(١) «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا»(٢). «لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (٣). وقوله صلى الله عليه وسلم «مَن يُرد الله به خيراً يُفقّهه في الدين».

---

(١) الأنعام : ٩٨
(٢) الأعراف : ١٧٩
(٣) التوبة : ١٢٢

ولكننى لم أستعمل هذه الكلمة خشية أن تفهم بالمدلول الاصطلاحى، وهو ما لم أقصده. ولم أحب استعمال كلمة «فلسفة» مضافة إلى العبادة. فآثرت جعل عنوانه «العبادة فى الإسلام» وكفى.

والعبادة ليست أمراً على هامش الحياة، إنها المبدأ الأول الذى أنزل الله كتبه، وبعث رسله لدعوة الناس إليه. وتذكيرهم به إذا نسوه أو ضلوا عنه. ولهذا خاطب خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ» (١).

وكانت الصيحة الأولى فى كل رسالة «أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ» (٢). «ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ» (٣).

ولما ختم الله كتبه بالقرآن، وختم رسالاته بالإسلام، وختم النبيين بمحمد عليه السلام، أكّد هذه الحقيقة. وأعلن فى كتاب الخلود: أن الغاية من خلق المكلفين أن يعرفوا الله ربهم ويعبدوه. فهذا سر خَلْق هذا الجنس الناطق المفكّر المريد فى هذا العالم «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ» (٤).

بيد أن الناس — حتى المسلمين أنفسهم — ظلموا «العبادة» وحرّفوها عن وجهها، وعن حقيقتها. وعن مكانها. فهماً وأسلوباً. ونظراً وتطبيقاً.

فوجدنا من الناس من لم يعتبروا عبادة الله غاية تطلب لذاتها. إنما هى مجرد وسيلة لتهذيب النفس، وتربية الضمير. وهى ليست — عندهم — الوسيلة الوحيدة، ولا الوسيلة المثلى، ففى الاستطاعة الاستغناء عنها بغيرها من الوسائل «المدنية» التى يتخذها بعض الشعوب أو الدول — حتى الملحدة منها — لتكوين المواطن الصالح.

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) النحل : ٣٦

(٣) الأعراف : ٩ (٤) الذاريات : ٥٦، ٥٧.

ووجدنا من الناس من آمنوا بقيمة العبادة ومنزلتها، ولكنهم وجهوها لغير مستحقها، لغير الرب الأعلى، «ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ» (١) فاتخذوا مع الله — أو من دونه — آلهة أخرى، أو اتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. حتى رأينا فى المتأخرين من المسلمين أيضاً لوثة من هذا الضلال، فمنهم من يعظم غير الله. أو يقدّس غير اللّه، أو ينذر لغير الله، أويذبح لغير الله، أو يطيع — طاعة مطلقة — غير الله!

ووجدنا من الناس من آمنوا بمنزلة العبادة، ووجهوها إلى مستحقها — سبحانه — ولكنهم لم يعبدوا الله بما أمر به، ولم يتقيدوا بما شرع لهم من طرائق العبادة وصورها. فشرَّعوا منها ما لم يأذن به الله، وسنّوا ما لم يسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فشددوا على أنفسهم، وشردوا عن سواء الصراط، وأحاطوا العبادات بالبدع والضلالات، التى ورثوها عمّن ضلّ قبلهم من أتباع الديانات، غافلين عن الاصلاح العظيم الذى جاء به دينهم فى مجال العبادة، حيث قوّم عوجها، وأبطل زائفها، ووضع لها الأصول والمبادىء التى تحميها من الغلو والانحراف.

ووجدنا آخرين قد فهموا معنى العبادة — التى جعلها الله غاية الخلق — فهماً جزئياً قاصراً. فهى لا تعدو أداء الشعائر المعروفة من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء.

وبهذا الفهم المبتور لا يبالون ما قصروا فيه بعد ذلك من أوامر الإسلام ونواهيه، وأحكامه ووصاياه، التى تستوعب كل مجالات الحياة. مع أن العبادة — كما جاء بها القرآن والسنّة. وكما فهمها خير قرون هذه الأمة — تشمل الدين كله. وتشمل الحياة كلها.

---

(١) الأعلى : ٢، ٣

من هنا رأينا واجبنا أن نصحح المفاهيم المغلوطة. التى سادت بين كثير من المسلمين المتأخرين فى شأن العبادة. وأن نطارد الأفكار الضالة التى يزيد بعض الناس أن يدخلوها فى رؤوس المسلمين عن قيمة العبادة ومكانتها فى الإسلام. وأن نبين معنى العبادة وحقيقتها. وشمولها وغايتها وسر التكليف بها، وما جاء به الإسلام من هدى وإصلاح فى مجالها. وبهذا نعرف: من نعبد؟ — وهو الله تعالى — ولماذا نعبده؟ وبماذا نعبده؟ وكيف نعبده؟

كما تممنا ذلك ببحث عن أسرار العبادات الإسلامية الكبرى التى عرفت بأنها «شعائر الإسلام» والتى خصت فى المصطلح الفقهى باسم «العبادات».

ثم ختمنا الكتاب بفصل عن المنهج الأمثل فى تعليم هذه العبادات والشعائر التى عُدّت من مبانى الإسلام.

ولعلى أن أكون بهذا الكتاب قد جليت ما قصدت إليه. وأمطت اللثام عن وجه هذا الجانب الأساسى الهام من جوانب هذا الإسلام العظيم. الذى أكمله الله لنا، وأتم به علينا نعمته. ورضيه لنا ديناً.

وأسأل الله أن ينفعنى به وقارئه وناشره، وأن يغفر لى ما عسى أن يكون من زلات الفكر والقلم، وأن يجعلنا من أهل الإخلاص فى عبادته. والمتابعة لشريعته، المترقين فى مدارج السالكين، ومنازل السائرين إلى مقامات «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (1) إنه سميع مجيب.

الدوحة فى غرّة ربيع الثانى سنة ١٣٩١ هـ

٢٦ مايو سنة ١٩٧١م

يوسف القرضاوى

* * *

(1) الفاتحه : ٥

العبادة
مهمة الإنسان الأولى في الوجود

- مهمة الإنسان فى هذا الوجود
- الأسئلة الخالدة.
- من أين ؟
- الى أين المسير؟
- لماذا خلق الانسان؟
- النداء الأول فى كل رسالة:
  «اعبدوا الله مالكم من إله غيره»
- الجميع مأمورون بالعبادة

● مهمة الإنسان فى هذا الوجود :

لماذا وجدت ؟ وما مهمتى فى هذا الوجود ؟ ورسالتى فى هذه الحياة ؟ سؤال واجب على الإنسان ــ كل إنسان ــ أن يسأله لنفسه ، وأن يفكر ملياً فى جوابه .

فإن كل جهل ــ مهما عظمت نتائجه ــ قد يُغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده ، وغاية حياته ، ورسالة نوعه وشخصه فى هذه الأرض !

وأكبر العار على هذا الكائن الذى أوتى العقل والإرادة ــ الإنسان ــ أن يعيش غافلاً ، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ، لا يفكر فى مصيره ، ولا يدرى شيئاً عن حقيقة نفسه ، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة ، فيواجه مصيره المجهول ، دون استعداد له ، ويجنى ثمرة الغفلة والجهل والانحراف فى عمره الطويل أو القصير. وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص .

لهذا كان لزاماً على كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد : لماذا خلقت ؟ وما غاية خلقى ؟

* * *

● الأسئلة الخالدة :

وقبل أن يجيب عن هذا السؤال ، أو يجاب عنه ، بل قبل أن يسأله ، يلزمه أن يسأل نفسه سؤالين آخرين ، لكى يتضح له الجواب ، وتتبين له الحقيقة كاملة مشرقة ، لا يحجبها سحاب ولا ضباب .

السؤال الأول هو: من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وبعبارة أخرى : من أوجدنى ؟

السؤال الثانى هو: ما مصيرى بعد أن وجدت ؟ وإلى أين أذهب بعد الموت ؟

ويعبر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟.

هذه هي الأسئلة الثلاثة التي صاحبت الإنسان منذ فكر وتأمل، ولا زالت تصحبه وتلح عليه وتطلب الجواب الشافي لها. فبدون هذا الجواب لا تتحدد كينونة الإنسان، ولا موضعه في الكون ولا رسالته في الوجود. وكيف يتحدد شيء من ذلك إذا كان كائناً لا يعرف: ما هو؟ ولا لم هو؟ ولا من أين هو؟ ولا إلى أين هو؟!

إنها الأسئلة الخالدة التي حاولت كل فلسفة في الشرق أو في الغرب أن تجيب عنها. بل لا تعد فلسفة إذا أغفلت الجواب عنها.

من أين ؟

وإلى أين ؟

ولماذا ؟

ومن أين جئت أنا الإنسان؟ ومن جاء بي؟ وكذلك من أين جاء هذا العالم الكبير من حولي؟

وإلى أين أسير وأرحل بعد أن أوجدت في هذا الكون؟ وإلى أين يسير هذا الكون أيضاً؟ وماذا بعد هذه الصفحات التي أطويها من كتابي الذي يسمى «العمر»؟

ولماذا خلقت في هذا العالم؟ وهل لي فيه من رسالة خاصة، ومهمة متميزة؟ وما هي هذه الرسالة، وتلك المهمة؟

* * *

● **من أين ؟**

أما السؤال الأول فهو عقدة العقد عند الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس. إنهم يخنقون صوت الفطرة في صدورهم. ويتحدون منطق العقل في رؤوسهم، ويصرون — في عمى عجيب — على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه وجد وحده! وكل ما فيه من إحكام وترتيب إنما هو صنع المصادفة العمياء!

أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة فيقرُّون بأن لهم ولهذا الكون حولهم رَبّاً عظيما تتجه قلوبهم إليه بالتعظيم والرجاء والخشية والتوكل والاستعانة. هذا شيء يشعرون به في أعماقهم شعوراً أصيلاً، وهذا هو الدين الذى عبَّر عنه القرآن بقوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

وقد يخفت هذا الصوت الفطرى فى النفس أو يكبته صاحبه عمداً فى ساعات الرخاء والدعة، فإذا نزلت بالإنسان أحداث مريرة، واهتز عوده أمام الشدائد القاسية، وخاب أمله فى الناس حوله، هُنالك ينطلق هذا الصوت متجهاً إلى ربه ضارعاً خاشعاً داعياً راجياً منيباً إلى الله.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق ــ رضى الله عنه ــ عن «الله» فقال: ألم تركب البحر؟. قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟. قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر فى بالك وانقدح فى نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو «الله».

وعلى هذه الحقيقة تنبه آيات كثيرة فى القرآن: «وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ» (٢) «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» (٣) «وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ» (٤).

---

(١) الروم : ٣٠
(٢) الزمر : ٨
(٣) لقمان : ٣٢
(٤) الإسراء : ٦٧

ويقول ديكارت : إني مع شعوري بنقص في ذاتي ، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة ، وأراني مضطراً إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع الصفات الكاملة وهي « الله » .

ونظراً لأن الشعور نابع من الفطرة الأصلية نجد الإيمان بقوة عليا فوق الطبيعة وفوق الأسباب ، أمراً مشتركاً بين بني الإنسان في جميع البقاع ، وبين شتى الأجناس والأقوام ، وفي مختلف مراحل التاريخ .

يقول الفيلسوف الفرنسي برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة » .

ويقول أرنست رينان في تاريخ الأديان : « إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية » . (١)

وإذا كان منطق الفطرة يهدي إلى الله — والفطرة ليست وجداناً خالصاً ولا عقلاً محضاً ، وإنما هي مزيج منهما — فإن العقل المحض يرى الإيمان بالله ضرورة لا محيص عنها حتى يستطيع أن يفسر بها وجود الكون والحياة والإنسان فإن العقل — بغير تعلم ولا اكتساب — يؤمن بقانون « السببية » إيمانه بكل البدائه والأوليات ، فلا يقبل فعلا من غير فاعل ، ولا صنعة من غير صانع .

وقانون السببية هو الذي عبَّر عنه الأعرابي بسذاجة وبساطة حين سألوه عن « الله » فقال : البعرة تدل على البعير ، وخط السير يدل على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل ذلك على العلي الكبير ؟ !

(١) انظر : الدين ، للدكتور دراز ص ٨٧

يقول العالم الطبيعى المعروف إسحاق نيوتن : «لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هى قاعدة هذا الوجود ! » وكلما ازداد اطلاع الإنسان على عجائب الكون ، ومعرفته بما فيه من جمال وإحكام ولم يقف عند القشور ازداد إيماناً بوجود الخالق وحكمته وعظمته وكمال صفاته . وفى هذا ينقل لنا سبنسر عن « هرشل » قوله : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية : فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده !

ويقول سبنسر : «إن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والأيدروجين بنسبة خاصة ، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء . ليعتقد عظمة الخالق وقدرته ، وحكمته وعلمه الواسع ، بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعى الذى لا يرى فيها إلا أنها نقطة ماء فحسب ! وكذلك العالم الذى يرى قطعة البّرد وما فيها من جمال الهندسة ، ودقة التقسيم . لا شك أن يشعر بجمال الخالق ، ودقيق حكمته ، وأكبر من ذلك الذى لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد » ! .

ويقول فرنسيس بيكون : «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد ، ولكن التعمق فيها ينتهى بالعقول إلى الإيمان . ذلك لأن عقل الإنسان قد يقف عند ما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة ، فلا يتابع السير إلى ما وراءها ، ولكنه إذا أمعن النظر ، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدّاً من التسليم بالله » .

تلك هى شهادة رجال رسخوا فى علوم الكون ، وغاصوا فى أعماقها . وهى شهادات فى جانب الإيمان . ولكن الشك والإلحاد يأتيان من جانب الذين عرفوا قشوراً من العلم . أو درسوا قليلاً من الفلسفة . كما قال بيكون بحق .

إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فحسب، بل هو ضرورة عقلية كذلك، وبدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن قلقاً حائراً بغير جواب: « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ »؟ (١)

وهم بداهة لم يُخلقوا من غير شىء، وطبعاً لم يخلقوا أنفسهم. ولم يدّع أحد منهم ولا ممن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السموات والأرض! فمن الخالق إذن؟!

وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنسان ــ إذا ترك ونفسه ــ إلا أن يجيب به، كما فعل المشركون أنفسهم: « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » (٢)

* * *

• إلى أين المسير؟

أما السؤال الثانى: إلى أين؟.. فإن الماديين يجيبون عنه جواباً يهبط بالإنسان المكرّم إلى درك الحيوانية الدنيا. إنهم يقولون ببساطة عن مصير الإنسان بعد رحلة الحياة الحافلة: إنه الفناء والعدم المطلق: أن تطويه الأرض فى بطنها كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى، وأن تعيد هذا الجسد ــ الذى هو الإنسان عندهم ــ إلى عناصره الأولى، فيعود تراباً تذروه الرياح!

هذه هى قصة الحياة والإنسان عند هؤلاء: « أرحام تدفع، وأرض تبلع »! ولا خلود ولا جزاء. يستوى فى ذلك من أحسن غاية الإحسان، ومن أساء كل الإساءة. يستوى فى ذلك من عاش عمره للناس على حساب شهواته، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس. يستوى فى ذلك من ضحّى بحياته فى سبيل الحق. ومن اعتدى على حيوات الآخرين فى سبيل الباطل!

---

(١) الطور: ٣٥، ٣٦ (٢) الزخرف: ٩.

فعلام إذن تميز الإنسان على غيره من كائنات الأرض؟ ولماذا سخر له كل ما حوله؟ ولماذا منح من المواهب والقوى الروحية والعقلية مالم يمنح لغيره؟ وما سر هذا التطلع إلى الكمال والخلود يغمر جوانب نفسه. إذا كان مصيره التلاشى والعدم بعد أيام الحياة المعدودات؟!

أما المؤمنون فهم يعرفون إلى أين يسيرون؟. يعرفون أنهم لم يخلقوا لهذه الدنيا. وإنما خلقت هذه الدنيا لهم.

يعرفون أنهم خلقوا لحياة الخلود ودار البقاء وهم فى هذه الحياة إنما يُستصلحون ويُعَدون للدار الأخرى، ويتزودون منها هنا ما ينفعهم هناك، ويترقون فى مدارج الكمال الروحى والنفسى حتى يكونوا أهلاً لدخول تلك الدار الطيبة التى لا يدخلها إلا الطيبون، وهناك يقول لهم خزنتها: «سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ» (١)

وإنه لعسير على العقل أن يؤمن بخالق عليم حكيم أحسن هذا الكون صنعاً وقدر كل شىء فيه تقديراً، ووضع كل شىء فيه بميزان وحساب، ثم يؤمن بعد ذلك أن سوق هذه الحياة ستنفض، وقد نهب فيها الناهب، وسرق السارق، وقتل القاتل، ولا تقتص يد العدل الإلهى من هؤلاء المجرمين، ولا تنتصر للضعيف المظلوم الذى لم يكن له نصير غير الله، ولا ملجأ غير السماء، ولا تكافىء المحسن الذى كافأه الناس بالتنكروالاضطهاد!! إن هذا لهو العبث الذى يتنزه خالق هذا الكون البديع عنه، وإنه لَلبَاطل الذى قامت السموات والأرض بضده. وما أروع القرآن وهو يوضح هذه الحقيقة الكبيرة: «أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ» (٢)«أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى»؟(٣) «أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) الزمر: ٧٣
(٢) المؤمنون: ١١٥، ١١٦
(٣) القيامة: ٣٦

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (١) « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ » (٢) ! « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ » (٣)

* * *

● **لماذا خلق الإنسان ؟**

وأما السؤال الثالث وهو الذى يجب أن يسأله الإنسان ـــ بعد أن يعرف أنه مخلوق لخالق ومربوب لرب ـــ وهو ببساطة : لماذا خلقت فى هذه الحياة ؟ ولماذا ميزت على سائر الكائنات الأخرى ؟ وما مهمتى فوق الأرض ؟

فالجواب عنه عند المؤمنين حاضر : إن كل صانع يعرف سر صنعته : لماذا صنعها ؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره ؟

والله ـــ تعالى ـــ هو صانع الإنسان وخالقه ومدبر أمره ، فلنسأله : يارب لماذا خلقت هذا الإنسان ؟ هل خلقته لمجرد الطعام والشراب ؟ هل خلقته

(١) الجاثية : ٢١ ، ٢٢ (٢) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

(٣) الدخان : ٣٨ ـــ ٤٠

للهو واللعب؟ هل خلقته لمجرد أن يمشي على التراب، ويأكل مما خرج من التراب، ثم يعود كما كان إلى التراب، وقد ختمت القصة؟ هل ليعيش تلك الفترة القصيرة المعذبة ما بين صرخة الوضع وأنة النزع؟ إذن فما سر هذه القوى والملكات التي أودعها الإنسان من عقل وإرادة وروح؟

وسيرد الله على تساؤلنا بما بيّن لنا في كتابه — كتاب الخلود — أنه خلقه ليكون خليفة في الأرض — وهذا واضح في آدم وما كان من تمنى الملائكة لمنزلته «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (1)

وأول شيء في هذه الخلافة أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته قال تعالى: «ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا» (2) وفي هذه الآية جعلت معرفة الله هي الغاية من خلق السموات والأرض.

ويقول تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ» (3)

---

(1) البقرة: ٣٠ (2) الطلاق: ١٢

(3) الذاريات: ٥٦ — ٥٨

وفى بعض الآثار القدسية يقول سبحانه : « عبادى .. إنى ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ، ولا لأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة ، وإنما خلقتكم لتعبدونى طويلاً ، وتذكرونى كثيراً ، وتسبحونى بكرة وأصيلاً » .

إن المتأمل فى هذا الكون الذى نعيش فيه يرى كل شىء فيه يحيا ويعمل لغيره ، فنحن نرى أن الماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن ؟ هذا هو السؤال .

والجواب الذى تنادى به الفطرة ، وتنطق به مراتب الكائنات فى هذا الكون : أن الإنسان لله .. لمعرفته ، لعبادته .. للقيام بحقه وحده . ولا يجوز أن يكون الإنسان لشىء آخر فى الأرض أو فى الأفلاك ، لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له ، وتعمل فى خدمته كما هو مشاهد ، فكيف يكون هو لها أو يعمل فى خدمتها ؟

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته ، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها ، قلباً للوضع الطبيعى ، وانتكاساً بالإنسان أى انتكاس ! !

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون ، إنما هو لله سبحانه لا لغيره . لعبادته وحده ، لا لعبادة بشر ولا حجر ، ولا بقر ولا شجر ، ولا شمس ولا قمر ، وكل عبادة لغير الله إنما هى من تزيين الشيطان عدو الإنسان .

* * *

● **النداء الأول فى كل رسالة « اعبدوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيره » :**

هذه العبادة لله وحده هى العهد القديم الذى أخذه الله على بنى الإنسان ، وسجله بقلم القدرة فى فطرهم البشرية ، وغرسه فى طبائعهم الأصيلة ، منذ وضع فى رؤوسهم عقولاً تعى ، وفى صدورهم قلوباً تخفق ، وفى الكون حولهم آيات تهدى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟

ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » (١) .

هذا العهد بين الله وعباده هو الذى صوّره القرآن فى روعة وبلاغة حين قال : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ » (٢) .

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين ، وإرسال المرسلين ، وإنزال الكتب المقدسة ، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم ، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد . ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول : « يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ » (٣) بهذا دعا قومه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين . قال تعالى :« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ »(٤) « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ »(٥)وقال تعالى بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء : « إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ

(١) يس : ٦٠ ، ٦١

(٢) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣

(٣) الأعراف : ٥٩

(٤) النحل : ٣٦

(٥) الأنبياء : ٢٥

فَاعْبُدُونِ »([1]) كما قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ »([2]) .

* * *

● الجميع مأمورون بالعبادة :

وقد أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله :« وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » ([3]) أي الموت . كما قال تعالى على لسان قوم « وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ » ([4]) وهو الموت . فالتكليف بالعبادة لازم له حتى يلحق بربه . لم تسقط عنه بسمو الروح ولا بالاتصال القوى بالله . وهكذا ظل حتى فى مرض موته عابداً لله .

وقال تعالى فى شأن المسيح عيسى ابن مريم الذى رفعه قومه إلى مرتبة الألوهية « لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » ([5])

---

(١) الأنبياء : ٩٢

(٢) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢

(٣) الحجر : ٩٩

(٤) المدثر : ٤٦ ، ٤٧

(٥) النساء : ١٧٢ ، ١٧٣

ويعرض لنا القرآن مشهداً من مشاهد يوم الحشر. يسأل الله فيه المسيح عما نسبوه إليه وافتروه عليه، فيجيب في أدب العبودية متبرئاً مما صنعوا «وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ» (١).

ويروى إنجيل متى عن المسيح أن إبليس اللعين أراد أن يختبره فأخذه إلى جبل عال جداً، وأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها ثم قال له: أعطيك هذه كلها إن خررت ساجداً لى. حينئذ قال له المسيح عليه السلام: «اذهب ياشيطان. فإنه قد كتب : للرب إلهك تسجد. وإياه وحده تعبد».

فالأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده. والأنبياء جميعاً أول العابدين لله.

وعبادة الله وحده هى — إذن — مهمة الإنسان الأولى فى الوجود. كما بينت ذلك كل الرسالات.

* * *

(١) المائدة: ١١٦، ١١٧

حقيقة العبادة في الإسلام

- معنى العبادة فى اللغة
- العبادة فى الشرع خضوع وحب
- خطأ صنفين من الناس فى فهم حقيقة العبادة.

• معنى العبادة فى اللغة :

فى القاموس : العبدية والعبودية والعبادة : الطاعة .

وفى الصحاح : أصل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد : التذليل .

يُقال : طريق معبد . والبعير المعبد : المهنوء بالقطران المذلل . .

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التنسك . تفرق بين المعانى بحسب الاشتقاق .

«فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى»(١)أى فى حزبى . فأضاف معنى جديداً وهو الولاء . وفى المخصص (ج ١٣ ص ٩٦) :

أصل العبادة : التذليل . من قولهم طريق معبد أى بكثرة الوطء عليه . ومنه أخذ «العبد» لذله لمولاه .

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب فى المعانى .

يُقال : تعبد فلان لفلان ـــ إذا تذلل له . وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة ، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهى عبادة . والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم . كالحياة والفهم والسمع والبصر .

وفى اللسان : أصل العبودية : الخضوع والتذلل ... وفى حديث أبى هريرة «لا يقل أحدكم لمملوكه : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى» هذا على نفى الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه . فإن المستحق لذلك الله تعالى رب العباد كلهم والعبيد .

وجعل بعضهم العبادة للّه . بخلاف العبدية وغيرها فهى تجعل لله وللمخلوقين .

قال الأزهرى : ولا يُقال : عبد يعبد عبادة . إلا لمن يعبد الله . ومن عبد إلهاً دونه فهو من الخاسرين . قال : وأما عبد خدم مولاه . فلا يقال : عَبَدَه .

قال الليث : ويقال للمشركين : هم عبدة الطاغوت .

---

(١) الفجر : ٢٩

ويقال للمسلمين : عباد الله ، يعبدون الله . والعابد : الموحد .

قال في اللسان : والتعبد : التنسك . والعبادة : الطاعة .

قال : والتعبد : التذلل . والتعبيد : التذليل .

بعير معبد : مذلل ، وطريق معبد : مسلوك مذلل .

ويرى الأستاذ أبو الأعلى المودودى استناداً إلى الاستعمال اللغوى لمادة ع ب د : ــ أن مفهوم العبادة الأساسى أن يذعن المرء لعلو أحد وغلبته ، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله . ويترك إزاءه كل مقاومة وعصيان وينقاد له انقياداً . وهذه هى حقيقة « العبدية » و « العبودية » ومن ذلك أن أول ما يتمثل فى ذهن العربى بمجرد سماعه كلمة « العبد » و « العبادة » هو تصور العبدية والعبودية . وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هى إطاعة سيده وامتثاله أوامره . فحتماً يتبعه تصور الإطاعة .

ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه . وكان قلبه مفعماً بعواطف الشكر والامتنان على نِعَمه وأياديه ، فإنه يبالغ فى تمجيده وتعظيمه ، ويتفنن فى إبداء الشكر على آلائه ، وفى أداء شعائر « العبدية » له ، كل ذلك اسمه التألّه والتنسك . وهذا التصور لا ينضم إلى معانى العبدية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب ، بل يخضع معه قلبه أيضاً (١)

فكأن الأستاذ يرى أن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلى ، والخضوع الكامل ، والطاعة المطلقة . ثم قد يضاف إلى هذا المعنى عنصر عاطفى جديد ، تتمثل فيه عبودية القلب . بعد عبودية الرأس أو الرقبة . ومظهر هذا العنصر هو التأله والتنسك وأداء الشعائر .

---

(١) المصطلحات الأربعة فى القرآن ص ٩٧ .

ويقول الشيخ محمد عبده فى تفسير « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » من سورة الفاتحة فى « المنار » :

« ما هى العبادة ؟ يقولون : هى الطاعة ، مع غاية الخضوع ، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل فتجليه للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل ، فكثيراً ما يفسرون الشىء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها . بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظى ، ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة ، التى شرحوا بها معنى العبادة . فإن فيها إجمالا وتساهلاً .

وإننا إذا تتبعنا آى القرآن ، وأساليب اللغة ، واستعمال العرب لـ « عَبَدَ » وما يماثلها ويقاربها فى المعنى — كخضع ، وخنع ، وأطاع ، وذل — نجد أنه لا شىء من هذه الألفاظ يضاهى « عَبَدَ » ويحمل محلها ، ويقع موقعها ، ولذلك قالوا إن لفظ « العباد » مأخوذ من العبادة ، فتكثر إضافته إلى الله تعالى ، ولفظ « العبيد » تكثر إضافته إلى غير الله تعالى ، لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى .

ومن هنا قال بعض العلماء . إن العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى ، ولكن استعمال القرآن يخالفه » ، ثم يسترسل الشيخ فى النهاية فيقول :

« يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه ، والخضوع له ، غلواً كبيراً ، حتى يفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء ، والملوك والأمراء فترى فى خضوعهم لهم ، وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين . دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة . فما هى العبادة إذن ؟

تدل الأساليب الصحيحة، والاستعمال العربى الصراح. على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود. لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك تفهمها وماهيتها. وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به، ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال «إنه عبده» وإن قبّل موطىء أقدامه، مادام سبب الذل والخضوع معروفاً، وهو الخوف من ظلمه المعهود، أو الرجاء فى كرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم أطيب الناس عنصراً، وأكرمهم جوهراً، هؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية».

فالشيخ محمد عبده يرى هنا أن الذى يميز العبادة من غيرها من ألوان الخضوع والتذلل والانقياد ليس هو درجة الخضوع والطاعة. كما يقول اللغويون الذين يرون العبادة هى أقصى الطاعة والخضوع، وإنما ينظر إلى منشأ هذا الخضوع والانقياد، فإن كان منشؤه وسببه أمراً ظاهراً كالملك والقوة ونحوهما، فلا يسمى عبادة، وإن كان منشؤها الاعتقاد بأن للمعبود عظمة وقدرة فوق الإدراك والحس فهذا هو العبادة (١)

* * *

(١) ولكن هذا التقييد — مع مخالفته لما اتفقت عليه كتب اللغة — يبدو مخالفاً أيضاً لظاهر قوله تعالى على لسان فرعون وملئه فى شأن موسى وهارون: «**أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون**» (المؤمنون: ٤٧) قال الطبرى: «يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون لأمرهم، ويدينون لهم. والعرب تسمى كل من دان لملك عابداً له» أهـ

● العبادة فى الشرع خضوع وحب :

أما شيخ الإسلام ابن تيمية. فهو ينظر إلى العبادة نظرة أعمق وأوسع، فهو يحلل معناها إلى عناصره البسيطة. فيبرز إلى جوار المعنى الأصلى فى اللغة ــ وهو غاية الطاعة والخضوع ــ عنصراً جديداً له أهمية كبرى فى الإسلام، وفى كل الأديان. عنصراً لا تتحقق العبادة ــ كما أمر الله ــ إلا به، وذلك هو عنصر «الحب» فبغير هذا العنصر العاطفى الوجدانى لا توجد العبادة التى خلق الله لها الخلق، وبعث بها الرسل، وأنزل الكتب.

وفى توضيح ذلك يقول شيخ الإسلام فى رسالته عن «العبودية» :

«الدين يتضمن معنى الخضوع والذل. يقال: دنته فدان، أى أذللته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله: أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له».

«والعبادة أصل معناها: الذل أيضاً. يقال: طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمّن معنى الذل ومعنى الحب، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم. يقال: تيم الله، أى عبد الله، فالمتيم: المعبّد لمحبوبه».

قال : «ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له، لم يكن عابداً له. كما قد يحب الرجل ولده وصديقه. ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء. وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل. قال الله تعالى «قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا

وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ» (١) .

وبهذا الشرح العميق لمعنى العبادة وحقيقتها ، ندرك أن العبادة المشروعة لا بد لها من أمرين :

الأول : هو الالتزام بما شرعه الله ودعا إليه رسله ، أمراً ونهياً ، وتحليلاً وتحريماً . وهذا هو الذى يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله .

فليس عبداً ولا عابداً لله من رفض الاستسلام لأمره ، واستكبر عن اتباع نهجه . والانقياد لشرعه وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه ، فقد كان مشركو العرب يقرُّون بذلك . ولم يجعلهم القرآن بذلك مؤمنين ولا عباداً لله طائعين ، فخضوع الإقرار بالربوبية لا يكفى ، وخضوع الاستعانة فى الكربات والاستغاثة فى الشدائد لا يكفى ، ولا بد من خضوع التعبد والانقياد والاتباع الذى هو حق الألوهية . وبهذا يتحقق معنى « **إياك نعبد وإياك نستعين** » .

وأساس الخضوع لله تعالى هو الشعور الواعى بوحدانيته تعالى ، وقهره لكل من فى الوجود . وما فى الوجود . فكلهم عبيده وخلقه ، وفى قبضة قدرته وسلطانه . وفى هذا يقول القرآن الكريم : «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ

(١) التوبة : ٢٤

تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ » (١) .

أساس الخضوع لله الواحد القهار هو الشعور الذاتى بالحاجة إلى من يملك الضر والنفع والموت والحياة ، ومن له الخلق والأمر ، ومن بيده ملكوت كل شىء ، ومن إذا أراد شيئاً قال له « كن » فيكون .. الشعور بالضعف أمام من يملك القوة كل القوة . والشعور بالجهل(٢) أمام من أحاط بكل شىء علماً . والشعور بالعجز أمام من يملك القدرة كل القدرة ، والشعور بالفقر أمام من يملك الغنى كل الغنى . وباختصار شعور العبودية المخلوقة الفانية الفقيرة بالذات أمام الربوبية الخالقة الأزلية الأبدية ، المالكة لكل شىء ، والمدبر لكل أمر .

وكلما ازداد الإنسان معرفة بنفسه ، ومعرفة بربه ، ازدادت هذه المشاعر وضوحاً وقوة ، فقوى اعتماده على الله ، واتجاهه إليه ، وتوكله عليه ، واستعانته به ، وتذلله له ، ومد يد الضراعة إليه ، ووقوفه ببابه سائلاً داعياً منيباً إليه .

فإذا جهل الإنسان قدر نفسه ، وجهل قدر ربه لم تمت هذه المشاعر ، ولكنها تنحرف وتتحول فتبحث لها عن رب تتجه إليه ، وتخضع له ، وتنقاد إليه ولا بد ، وإن لم تشعر بذلك ، أو لم تسمه خضوعاً ، وانقياداً ، ولم تسم مقصودها رباً وإلهاً .

والثانى : أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحب الله تعالى . فليس فى الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يُحَب ؛ فهو صاحب الفضل والإحسان ، الذى خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وخلق له ما فى

---

(١) الرعد : ١٥ ، ١٦ .

(٢) الإنسان يجهل أسرار ما يحدث له فى حاضره ، ويجهل ماذا يكنه له ضمير المستقبل، فلا يدرى ماذا يكسب غداً ؟ ولا متى يموت ؟ وأين يموت ؟ وكيف يموت ؟ وماذا وراء الموت ؟ إلى غير ذلك من الأمور .

الأرض جميعاً ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وخلقه في أحسن تقويم وصوره فأحسن صورته ، وكرّمه وفضّله على كثير من خلقه ، ورزقه من الطيبات ، وعلّمه البيان ، واستخلفه في الأرض ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، فمن أولى من الله بأن يُحب ؟ ومن يحب الإنسانُ — إذن — إن لم يحب الله تعالى ؟ ! إن أساس محبة الله تعالى هو الشعور بفضله ونعمته ، وإحسانه ورحمته ، والإحساس بجماله وكماله ، فمن كان يحب الإحسان فالله هو واهبه وصاحبه ، ومن كان يحب الجمال فالله هو مصدره ، ومن كان يحب الكمال فلا كمال في الحقيقة إلا كماله ، ومن كان يحب ذاته . فالله هو خالقه .

فمن عرف الله أحبه ، وبقدر درجته في المعرفة تكون درجته في المحبة ، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أشد الناس حباً لله ؛ لأنه كان أعرفهم بالله ، وكانت قرة عينه في الصلاة ؛ لأنها الصلة المباشرة بين قلبه وبين الله ، وكان في دعائه يسأل الله الشوق إلى لقائه ، ولذة النظر إلى وجهه سبحانه . ولما خُيّر بين البقاء في الدنيا وبين اللحوق بربه قال : أختار الرفيق الأعلى !

أما علماء الكلام أو بعضهم ممن زعموا أن الحب الحقيقي لا يتصور من جانب العبد لله ، وقالوا : إن معنى حب الله هو المواظبة على طاعته تعالى ، وأما حقيقة الحب فهو محال ، إلا مع الجنس والمثال ، فقد رد عليهم الغزالي في « الإحياء » رداً مفصلاً (١) ، مبيناً أن الذي يستحق المحبة الكاملة بكل وجوهها ، وكافة أسبابها هو الله وحده .

فإن أسباب الحب — كما شرحها — ترجع إلى خمسة هي : (١) حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه . (٢) وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه (٣) وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه (٤) وحبه لكل ما هو جميل

---

(١) كما رد عليهم العلامة ابن القيم ، وبين فساد قولهم بأكثر من ثمانين وجهاً ذكرها في كتابه « روضة المحبين » .

فى ذاته، سواء أكان من الصور الظاهرة أو الباطنة (٥) وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن.

فلو اجتمعت هذه الأسباب فى شخص تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة، حسن الخُلُق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى الخلق، ومحسن إلى الوالد نفسه، كان محبوباً لا محالة غاية الحب. وتكون قوة الحب ــ بعد اجتماع هذه الخصال ــ بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها، فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال، كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات.

وقد بين الغزالى بالتفصيل أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى. فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

ولا مجال هنا لذكر هذا التفصيل. ونجتزىء بنبذة يسيرة من حديثه عن السبب الأول للمحبة قال:

« فأما السبب الأول ــ وهو حب الإنسان نفسه، وبقاءه وكماله، ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه، ونقصانه وقواطع كماله ــ فهذه جبلة كل حى، ولا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى ».

« فإن من عرف نفسه، وعرف ربه، عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته، ودوام وجوده، وكمال وجوده، من الله وإلى الله وبالله. فهو المخترع الموجد له، وهو المبقى له، وهو المكمل لوجوده، بخَلْق صفات الكمال، وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا، فالعبد ــ من حيث ذاته ــ لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض، وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته. وبالجملة فليس فى الوجود شىء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى، الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به. فإن أحب العارف

ذاته ــ ووجوده ذاته مستفاد من غيره ــ فبالضرورة يحب المفيد لوجوده، والمديم له، إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره».

«فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة، فتنعدم بانعدامها، وتضعف بضعفها، وتقوى بقوتها. ولذلك قال الحسن البصرى ــ رحمه الله تعالى: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها. وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه، ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب ــ بالضرورة ــ الأشجار التى بها قوام الظل. وكل ما فى الوجود ــ بالإضافة إلى قدرة الله تعالى ــ فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإن الكل من آثار قدرته تعالى، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس، ووجود الظل تابع للشجر» أهـ

محبة الله إذن ضرورية لكل من عرف نفسه وعرف ربه.

ولكن الخطر إنما يكمن فى ادعاء المحبة لله دون تحقيق العنصر الأول وهو الاتباع والانقياد لما جاءت به رسل الله، كاليهود والنصارى الذين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. مع أنهم انحرفوا عما نزلت به كتب الله، ودعا إليه رسله، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فحادوا عن الصراط المستقيم.

لا بد إذن فى العبادة من العنصرين معاً: غاية الخضوع لله، وغاية المحبة لله، كما بين ابن تيمية رحمه الله.

* * *

• خطأ صنفين من الناس فى فهم حقيقة العبادة:

وهذا البيان لحقيقة العبادة يصحح خطأ صنفين من الناس:

الصنف الأول: أسرف فى دعوى المحبة، حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التى تنافى العبودية، وتدخل العبد فى نوع الربوبية التى لا تصلح إلا لله، فيدعى أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ــ

فضلاً عن عامة الناس ـــ أو يطلب من الله مالا يصلح بكل وجه إلا لله ، لا يصلح للأنبياء ولا للمرسلين . قال ابن تيمية : وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ ـــ يعنى من المتصوفة ـــ وسببه : ضعف تحقيق العبودية التى بينها الرسل ، وحررها الأمر والنهى الذى جاءوا به ، بل ضعف العقل الذى به يعرف العبد حقيقته . وإذا ضعف العقل ، وقل العلم بالدين ، وفى النفس محبة طائشة جاهلة ، انبسطت النفس بحمقها فى ذلك ، كما ينبسط الإنسان فى محبة الإنسان مع حمقه وجهله ، ويكون سبباً لبغض المحبوب له ، ونفوره منه ، بل سبباً لعقوبته .

« وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين . إما من تعدى حدود الله ، وإما من تضييع حقوق الله . وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التى لا حقيقة لها ، كقول بعضهم : أى مريد لى ترك فى النار أحداً فأنا برىء منه ! فقال الآخر : أى مريد لى ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برىء » !

فالأول : جعل مريده يخرج كل من فى النار.
والثانى : جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.

« ويقول بعضهم : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم ، حتى لا يدخلها أحد !! وأمثال ذلك من الأقوال التى تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين ، هى إما كذب عليهم ، وإما غلط منهم .

« ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة فناء يسقط فيها تمييز الإنسان ، أو يضعف حتى لا يدرى ما قال[1] . والسكر هو لذة مع عدم تمييز . ولهذا كان من هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام . والذين توسعوا من الشيوخ فى سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل

(١) نلاحظ أنه لم يكفرهم مع خطورة ما قالوا ، والتمس لهم العذر بغلبة الأحوال عليهم ، لعظم شأن التكفير وخطره ، كما سنبين ذلك فى كتاب مستقل بإذن الله .

والغرام، كان هذا أصل مقصدهم فإن هذا الجنس يحرك ما فى القلب من الحب كائناً ما كان. ولهذا أنزل الله محنة ـ اختباراً ـ يمتحن بها المحب فقال «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ»(١) فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله. وطاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية. وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدعى من الحالات مالا يتسع هذا الموضوع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر، وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسنته وطاعته.

«بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجهاد فى سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه. ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه «أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ» (٢).

« ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة فى ذلك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل» (٣).

هذا صنف...

والصنف الثانى الذى غلط فى فهم حقيقة العبادة: هو الذى ظن أن المحبة تنافى أدب العبودية ولا تصاحب خشية الله ومخافته التى يجب أن يتصف بها كل عبد لله. كما ظن أن المحبة لا تتحقق من المخلوق للخالق، إنما المطلوب منه الطاعة والخضوع فقط.

---

(١) آل عمران : ٣١ (٢) المائدة : ٥٤

(٣) العبودية : ص ١٢٨ ـ ١٣١

والحقيقة أن المحبة لا تنافى الخشية والمخافة، بل الخوف لازم للمحبة كما قال ابن تيمية [1]، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له وإخلاصه الدين له. وذلك يقتضى انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيباً إلى الله، خائفاً منه، راغباً راهباً، كما قال تعالى: «مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ»[2] إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه أو عدم حصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء، كما قال تعالى: «أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا»[3]

ويؤكد ابن تيمية فى غير موضع من رسالة «العبودية» أن المحبة جزء لا يتجزأ من حقيقة العبودية مستدلا على ذلك باللغة وبالشرع قال: «ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب. والتتيم: التعبد، وتيم الله: أى عبد الله. وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم».

وفى موضع آخر يقول:

«إنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه. وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا. وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله فهى باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو

---

(١) العبودية: ص ١٤٠
(٢) سورة ق: ٣٣
(٣) الإسراء: ٥٧

باطل. فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع.

وكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع وصفين: أن يكون لله وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله، وهو الواجب والمستحب».

ومن السلف من لم ينكر حقيقة المحبة وإنما أنكر ادعاءها والانبساط فى هذه الدعوى بما لا يليق بمقام العبودية، وجلال الربوبية، كما رأينا فى أقوال من ذكرنا من الصنف الأول.

ومن علماء الكلام من ذهب إلى أن المحبة لا تجوز فى حق الله، وتأول ما جاء فى الكتاب والسنة، من ذلك بأن المراد به الطاعة، فالعبودية هى الذل والخضوع لله سبحانه لا غير.

وفى الرد على هؤلاء يقول ابن تيمية بعد أن ذكر أن الخلة والمحبة لله تحقيق عبوديته:

« وإنما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط، لا محبة معه، وأن المحبة فيها انبساط فى الأهواء، أو إذلال لا تحتمله الربوبية. ولهذا ذكر عن ذى النون[1]: أنهم تكلموا عنده فى مسألة المحبة، فقال: أمسكوا عن هذه المسألة، لا تسمعها النفوس فتدعيها.

«وكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام فى المحبة بلا خشية، وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء[2] ومن عبده بالخوف فهو

(١) ذو النون المصرى: أحد مشاهير العباد الزاهدين العارفين، له أقوال كثيرة فى الزهد وأحوال القلوب، واسمه: ثوبان بن إبراهيم، من أهل مصر، وهو نوبى الأصل، توفى بمصر سنة ٢٤٥ هـ.

(٢) المرجئة: فرقة يحكى عنها: أنها كانت تقول: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

حرورى (١). ومن عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن موحد».

والذى دعا هذا القائل من السلف إلى اتهام من عبد الله بالحب وحده بالزندقة والمروق إنما هو غلو فريق من الناس انتهى به المطاف فى دعوى الحب لله أن زعم لنفسه أنه وصل إلى حال مع الله لم تعد فيها لتكاليف الشرع فائدة عنده، فقد عبد ربه حتى أتاه اليقين! وليس بعد اليقين شىء، فسقط عنه الأمر والنهى، وأحل له شرب الخمر والمعاصى!!.

وهذا الصنف هو الذى قال فيه الإمام الغزالى: «هذا ممن لا شك فى وجوب قتله.. وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر، إذ ضرره فى الدين أعظم، وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد. وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقاً، فإنه يمنع عن الإصغاء إليه ظهور كفره، وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع! ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم، إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته فى الدين، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصى بظاهره وهو بباطنه برىء عنها» (٢)!.

على أن الغزالى إن توقف هنا فى تكفير هذا الصنف المدعى، فقد استدرك عليه ذلك مَن بعده، كابن حجر الهيثمى المكى الشافعى الذى جزم بكفره، لأنه منكر لقطعيات الدين وضرورياته (٣).

ومن هنا عُنى ابن تيمية فى بيانه حقيقة العبودية بذكر «الضوابط» التى تقف بالعبد عند حده ولا تشرد به عن سواء الصراط تحت عنوان «محبة الله». يقول ابن تيمية:

«وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالى أولياء الله تعالى ويعادى أعداء الله تعالى. هذا هو الذى استكمل الإيمان، كما فى

(١) الحرورية: نسبة إلى «حروراء» موضع بالعراق وهو الذى قاتل فيه على - رضى الله عنه - الخوارج. فالمراد بالحرورية هنا: الغلاة الذين يكفرون المسلم إذا ارتكب كبيرة.

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

(٣) انظر تحفة المحتاج بشرح المنهاج: كتاب الردة جـ٣

الحديث : «من أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » (١) وقال : «أوثق عرا الإيمان الحب في الله والبغض في الله » (٢) .

وفي الصحيح : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يُلقى في النار» (٣) .

فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه ، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر ، فكان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب . فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر ، فقد أحبهم لله لا لغيره وقد قال تعالى : « فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » (٤) ولهذا قال تعالى : « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ » (٥) فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحب الله ، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به .

فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى به فيما فعل . ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله .

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجهاد في سبيله ، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه

---

(١) رواه أبو داوود بسند حسن ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٣٧٩

(٢) رواه أحمد والطبراني وهو حديث حسن .

(٣) رواه الشيخان عن أنس .

(٤) المائدة : ٥٤

(٥) آل عمران : ٣١

الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان. وقد قال تعالى « قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ » (١).

فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد بل قد ثبت عنده صلى الله عليه وسلم فى « الصحيح » أنه قال: « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢).

وفى الصحيح « أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله.. والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى. فقال: لا يا عمر. حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال: فوالله لأنت أحب إلىّ من نفسى. فقال: الآن يا عمر» (٣).

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب. وهو موافقته فى حب ما يحب. وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، و يبغض الكفر والفسوق والعصيان.

* * *

- **مزاعم المستشرقين:**

للمستشرقين فى كل جانب من جوانب الإسلام، وفى كل فرع من فروع المعرفة الإسلامية دعاوٍ عريضة دفع إليها أحد أمرين أو كلاهما:

---

(١) التوبة: ٢٤ (٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الشيخان.

الأول : سوء الفهم لدين الإسلام ولغته التى نزل بها كتابه، وجاءت بها أحاديث نبيه، وكتبت بها مؤلفات علمائه. وهم ــ لعجمتهم وغربتهم عنها ــ لا يتذوقونها، ولا يدركون أسرار تعبيرها، وتنوع دلالاتها.

والثانى : سوء النية والقصد إلى البحث عن عورات يشنعون بها. ونقاط ضعف يسوغون بها ما يعتقدونه من دعوى بشرية القرآن وعدم صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهم يقرأون تراثنا ويدرسونه بروح المتعصب الباحث عن المطاعن، لا بروح الباحث عن الحق.

فهم قد كوّنوا فكرة سابقة عن الإسلام وكتابه ونبيه ورجاله وتاريخه، وهمهم فى دراسة تراث الإسلام أن يعثروا على أدلة توافق فكرتهم. فإن لم يجدوا الأدلة ــ كما هو الواقع ــ تصيدوا الشبهات. فإن أعيتهم الشبهات، لفقوا من المصادر الضعيفة، والأقوال المردودة، والروايات المنكرة، ما يشوشون به ويهرجون.

ومن ذلك ما ذكره بعضهم عن عبادة المسلمين وأنها تقوم على الخوف والخضوع وحده، ولا مجال فيها لحب الله تعالى. وأن الله فى تصور المسلمين إله قهر وجبروت لا إله رحمة وحب.

ويزعمون أن المسلمين لم يعرفوا عنصر الحب فى صلتهم بالله تعالى، إلا بعد انتشار التصوف الذى اقتبس هذا العنصر من مصادر أجنبية عن الإسلام.

ولو أنصف هؤلاء ورجعوا إلى نصوص القرآن والسنة. وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسير أصحابه ومن تبعهم بإحسان. بل لو حللوا معنى العباة لغة ــ كما فعل ابن تيمية ــ لكفوا عن هذا اللغو، وعلموا أن العبادة فى الإسلام تعنى : غاية الخضوع لله مع غاية الحب له.

والمتصوفة لم يستمدوا حب الله تعالى من خارج الإسلام. وإنما التفتوا إليه ونمّوه وعمقوه فى الوقت الذى كان بعض المنتسبين إلى علم الكلام لا يتصورون قيام حب حقيقى من الإنسان لربه، لأن الحادث كيف يحب القديم ؟

وما حاجة الصادقين من أهل الذوق والوجدان الروحى «الصوفى» إلى اقتباس الحب من مصدر أجنبى عن الإسلام، ونصوصه المحكمة فى هذا الأمر أمام أعينهم بينة واضحة، وكافية شافية؟.

يكفى أن نذكر هنا ما كتبه الإمام الغزالى فى بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى فى كتاب «المحبة» من «إحيائه» لنعلم من أى ينبوع استقى الصوفية المعتدلون فكرة «الحب الإلهى» قال: «اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله وعليه وسلم فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة. والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل: «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ»[1] وقوله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ»[2] وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه. وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة. إذ قال أبو رزين العقيلى: «يارسول الله.. ما الإيمان؟ قال: أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما»[3] وفى حديث آخر: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.»[4] وفى حديث آخر: «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»[5] وفى رواية: «ومن نفسه» كيف وقد قال تعالى: «قُلْ

(١) المائدة: ٥٤ (٢) البقرة: ١٦٥

(٣) قال الحافظ العراقى: أخرجه أحمد بزيادة فى أوله.

(٤) حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» متفق عليه من حديث أنس بلفظ «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله» وذكره بزيادة.

(٥) حديث «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» وفى رواية: «ومن نفسه» متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم، دون قوله: ومن نفسه. وقال البخارى «من والده وولده». وله من حديث عبد الله بن هشام: «قال عمر: يارسول الله.. لأنت أحب إلىّ من كل شيء إلا نفسى. فقال: لا والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال عمر: فأنت الآن والله احب إلىّ من نفسى، فقال: الآن ياعمر».

إنْ كَانَ آبَآؤُكُمْ وأَبْنَآؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ » الآية (١). وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله إياى» (٢) ويروى أن رجلاً قال: يا رسول الله.. إني أحبك. فقال صلى الله عليه وسلم: استعد للفقر، فقال: إنى أحب الله تعالى. فقال: استعد للبلاء» (٣) وعن عمر رضى الله عنه قال: «نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب ابن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تَنَطَّقَ به فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى هذا الرجل الذى نَوَّرَ الله قلبه. لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله إلى ما ترون» (٤) وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه «اللهم ارزقنى حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربنى إلى حبك، واجعل حبك أحب إلىّ من الماء البارد» (٥) وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله.. متى الساعة؟ قال: ما أعددت لها؟ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أننى أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك» (٦).

فهذه هى حقيقة العبادة فى الإسلام. إنها معنى مركب من عنصرين: غاية الخضوع لله تعالى، مع غاية المحبة له سبحانه.

بل قال ابن القيم: «أصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه» (٧).

* * *

(١) التوبة: ٢٤
(٢) رواه الترمذى من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب.
(٣) رواه الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ «فأعد للفقر تجفافاً» دون آخر الحديث وقال: حسن غريب.
(٤) رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد حسن.
(٥) رواه الترمذى بنحوه من حديث أبى الدرداء مرفوعاً: كان من دعاء داوود يقول: «اللهم إنى أسألك حبك»... الخ.
(٦) متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبى موسى وابن مسعود بنحوه.
(٧) مدارج السالكين جـ١ ص٩٩

مجالات العبادة في الإسلام

- مجالات العبادة كما بيّنها الإسلام.
- من اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته.
- الاعمال الاجتماعية النافعة عبادة.
- صحح وجهتك تكن كل حياتك عبادة.
- شمول العبادة لكيان الإنسان كله.
- مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن.
- أي العبادات أفضل؟.

مجالات العبادة كما بيّنها الإسلام

عرفنا أن رسالة الإنسان فى هذه الأرض أن يعبد الله الذى خلقه فسوّاه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وعرفنا معنى العبادة. وحقيقتها فى اللغة والشرع.

وبقى أن نعرف صور العبادة وأنواعها ومظاهرها ومجالاتها. وبعبارة أخرى: علينا أن نعرف جواب هذا السؤال: بماذا نعبد الله تعالى؟

إذا كان الله قد خلقنا لنعبده، أى لنطيعه طاعة مصحوبة بأقصى الخضوع، الممزوج بغاية الحب، ففى أى شىء تكون هذه الطاعة؟ — طاعة الخضوع والحب — وفى أى مجال يجب أن تكون؟ إن الجواب عن هذا التساؤل سيبين لنا حقيقة هامة، هى: شمول معنى العبادة فى الإسلام، وسعة آفاقها. وهذا الشمول له مظهران:

الأول: شمولها للدين كله وللحياة كلها.

الثانى: شمولها لكيان الإنسان كله ظاهره وباطنه. كما سنشرح ذلك فيما يلى.

* * *

• شمول العبادة للدين كله:

لقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الله عز وجل: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ» (١) ما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ فأجاب رحمه الله عن ذلك إجابة مبسوطة مفصلة تضمنتها رسالته المعروفة باسم «العبودية» وقد بدأها بقوله:

«العبادة: هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق

(١) البقرة: ٢١

الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدمين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة».

«وكذلك حب الله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هى من العبادة لله» [1] أ هـ

وهكذا نجد أن للعبادة ــ كما شرحها ابن تيمية ــ أفقاً رحباً ودائرة واسعة، فهى تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

وهى تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعى من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وهى تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، كبّر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهى تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

كما تشمل ما نسميه بـ «الأخلاق الربانية» من حب الله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وخشية الله، والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه.

---

(١) العبودية ص ٣٨ ط المكتب الإسلامى. ثانية.

وأخيراً تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه وهما: (١) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، (٢) وجهاد الكفار والمنافقين فى سبيل الله.

بل تشمل العبادة أمراً له أهميته وخطره فى الحياة المادية للناس، ذكره ابن تيمية فى موضع آخر من رسالته، وهو الأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن التى أقام الله عليها الكون قال «فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة» [١].

وأكثر من ذلك ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله: أن الدين كله داخل فى العبادة. إذ الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال: دنته فدان، أى أذللته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله، أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له. والعبادة أصل معناها الذل أيضاً» [٢].

وبهذا يلتقى معنى الدين بأصل معنى العبادة لغة وشرعاً.

* * *

● **العبادة تسع الحياة كلها:**

وإذا عرفنا أن الدين كله عبادة كما قال الإمام ابن تيمية، وعرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته، الظاهرة والباطنة، ويحدد سلوكه وعلاقاته، وفقاً لما يهدى إليه هذا المنهج الإلهى — عرفنا أن عبادة الله تسع الحياة كلها، وتنظم أمورها قاطبة: من أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية فى السلم والحرب.

ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفية وأحكام شرعية، تتناول جوانب شتى من الحياة، وفى سورة واحدة — هى سورة البقرة —

---

(١) العبودية ص ٧٣ (٢) انظر ص ٤٣، ٤٤ من العبودية.

نجد مجموعة من التكاليف كلها جاءت بصيغة واحدة « **كتب عليكم** ».
ولنقرأ هذه الآيات الكريمة :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى »(١). « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ »(٢) « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٣) « كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ »(٤).

فهذه الأمور كلها من القصاص ، والوصية ، والصيام ، والقتال ، مكتوبة من الله على عباده ، أى مفروضة عليهم ، فعليهم أن يعبدوا الله بالتزامها والانقياد لها .

وبهذا البيان يتضح لنا حقيقة هامة لا زال يجهلها الكثيرون من المسلمين . فبعض الناس لا يفهم من كلمة « العبادة » إذا ذكرت إلا الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة ، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار ، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب ، أو النظم والقوانين ، أو العادات والتقاليد .

إن عبادة الله ليست محصورة — إذن — فى الصلاة والصيام والحج وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار ، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله ، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفوا الإلهية حقها ، وقاموا بواجب العبودية لله كاملاً .

---

(١) البقرة : ١٧٨ (٢) البقرة : ١٨٠
(٣) البقرة : ١٨٣ (٤) البقرة : ٢١٦

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية فى بناء الإسلام — على منزلتها وأهميتها — إنما هى جزء من العبادة لله، وليست هى كل العبادة التى يريدها الله من عباده.

والحق أن دائرة العبادة التى خلق الله لها الإنسان، وجعلها عايته فى الحياة، ومهمته فى الأرض، دائرة رحبة واسعة. إنها تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً.

* * *

• العبادة انقيَاد لمنهج الله وشرعه :

إن مقتضى عبادة الإنسان لله وحده: أن يخضع أموره كلها لما يحبه تعالى ويرضاه، من الاعتقادات والأقوال والأعمال، وأن يكيّف حياته وسلوكه وفقاً لهداية الله وشرعه. فإذا أمره الله تعالى أو نهاه، أو أحل له أو حرّم عليه كان موقفه فى ذلك كله: « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ » [1]

ففرق ما بين المؤمن وغيره: أن المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه. خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله. ليس المؤمن «سائباً» يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق. إنما هو «ملتزم» بعهد يجب أن يفى به، وميثاق يجب أن يحترمه، ومنهج يجب أن يتبعه. وهذا التزام منطقى ناشىء من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه.

مقتضى عقد الإيمان : أن يسلم زمام حياته إلى الله، ليقودها رسوله الصادق، ويهديه الوحى المعصوم.

مقتضى عقد الإيمان : أن يقول الرب : أمرت ونهيت. ويقول العبد: سمعت وأطعت.

مقتضى عقد الإيمان : أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه.

---

(١) البقرة : ٢٨٥

وفى هذا يقول القرآن الكريم : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا » (١) ويقول : « إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (٢) .

ليس بعابد لله إذن من قال : أصلى وأصوم وأحج ، ولكنى حر فى أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر، أو أكل الربا ، أو رفض مالا يروقنى من أحكام الشريعة ، فأحكم فيه بغير ما أنزل الله ! ليس بعابد لله من أدى الشعائر، ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده فى نفسه أو أهله ، كالرجل الذى يلبس الحرير الخالص ويتحلى بالذهب ، ويتشبه بالنساء ، والمرأة التى تلبس ما يبرز مفاتنها ، ولا يغطى جسدها ، ولا تضرب بخمارها على جيبها . ليس بعابد لله من ظن أن عبوديته لله لا تعدو جدران المسجد ، فإن انطلق فى ميادين الحياة المتشعبة ، فهو عبد نفسه فقط ، وبعبارة أخرى : هو حر فى اتباع هواها ، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين !

* * *

● **من اتبع غير منهج الله فقد أشرك فى عبادته :**

إن من العبادة التى يغفلها كثير من الناس : الخضوع لشرع الله ، والانقياد لأحكامه التى أحلَّ بها الحلال وحرَّم الحرام ، وفرض الفرائض ، وحدَّ الحدود .

فمن أدى الشعائر وصلى وصام وحج واعتمر، ولكنه رضى أن يحتكم فى شئون حياته الخاصة والعامة ، أو فى شئون المجتمع والدولة ، إلى غير شرع الله وحكمه ، فقد عبد غير الله ، وأعطى غيره ما هو من خالص حقه سبحانه .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) النور : ٥١ .

إن الله وحده هو المشرع الحاكم لخلقه؛ لأن الكون كله مملكته، والناس جميعاً عباده، وهو وحده الذى له أن يأمر وأن ينهى، وأن يقول: هذا حلال، وهذا حرام، بمقتضى ربوبيته وملكه وألوهيته للناس، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

فمن ادعى من الخلق أن له أن يُشرِّع ما شاء، أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً، بدون إذن من الله، فقد تجاوز حده، وعدا طوره، وجعل نفسه رباً أو إلهاً من حيث يدرى أو لا يدرى!

ومن أقرَّ له بهذا الحق، وانقاد لتشريعه ونظامه، وخضع لمذهبه وقانونه، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فقد اتخذه رباً، وعبده مع الله، أو من دون الله، ودخل فى زمرة المشركين من حيث يشعر أو لا يشعر!

إن القرآن الكريم دمغ أهل الكتاب بالشرك، ورماهم بأنهم عبدوا أحبارهم ورهبانهم، واتخذوهم أرباباً من دون الله، وذلك حين أطاعوهم واتبعوهم فيما شرعوا لهم مما لم يأذن به الله.

قال تعالى: « ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (١).

وقد فسر هذه الآية أعلم الناس بمراد ربه -عز وجل- من كلامه، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى، والذى أوحى الله إليه هذا القرآن ليبينه للناس ولعلهم يتفكرون، فلنصغ إلى التفسير النبوى الكريم لهذه الآية الكريمة.

---

(١) التوبة : ٣١

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير ـ من طرق ـ عن عدى بن حاتم رضى الله عنه: أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَرَّ إلى الشام وكان قد تنصّر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرّغبته فى الإسلام، وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عدى إلى المدينة ـ وكان رئيساً فى قومه وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ـ فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق عدى صليب من فضه، وهو يقرأ هذه الآية: «**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**» قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم! فقال: بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرَام فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم».

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره: وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما فى تفسير «**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**»: إنهم اتبعوهم فيما حللُّوا وحرَّموا.

وقال السدى: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

قال: ولهذا قال تعالى «**وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلهاً وَاحِداً**» أى الذى إذا حرَّم الشىء فهو الحرام، وما حلَّله فهو الحلال، وما شرعه اتُبع، وما حكم به نفذ «**لا إله إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**» (١) أ هـ

* * *

• الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة:

وأكثر من ذلك: أن الإسلام قد فسح مجال العبادة ووسع دائرتها، بحيث شملت أعمالاً كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة وقُربة إلى الله.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص: ٣٤٩

إن كل عمل اجتماعى نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات مادام قصد فاعله الخير لا تصيد الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس. كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضى به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذى عيال، أو يهدى حائراً. أو يعلم جاهلاً، أو يؤوى غريباً، أو يدفع شراً عن مخلوق أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعاً إلى ذى كبد رطبة — فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صحت فيه النية.

أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمن، وشعب الإيمان، وموجبات المثوبة عند الله.

فليست الصلاة أو الصيام أو الذكر والدعاء هى التى تكتب لك عبادة فى يومك وتستوجب بها الأجر عند ربك. كلا.. إنك تستطيع فى اليوم الواحد أن تضيف إلى ميزان عبادتك وحسناتك أشياء كثيرة، لها ثقلها وقيمتها فى تقدير الحق تبارك وتعالى، وإن بدت عندك هينة خفيفة فى الميزان.

من ذلك ما قاله رسول الإسلام — صلى الله عليه وسلم — عن الإصلاح بين المتخاصمين قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى..

قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هى الحالقة» (١)، وفى رواية: «لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» (٢).

ويقول عليه السلام فى عيادة المريض وما لها من مكانة عند الله لما فيها من تخفيف ومواساة: «من عاد مريضاً ناداه مناد من السماء: طبت وطاب

---

(١) رواه أبو داوود والترمذى وابن حيان فى صحيحه.

(٢) هذه الزيادة للترمذى.

ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » (١) « من عاد مريضاً لم يزل يخوض فى الرحمة حتى يجلس ، فإذا جلس اغتمس فيها » (٢) .

ويروى لنا النبى صلى الله عليه وسلم مشهداً من المشاهد البديعة العميقة يوم القيامة فى صورة حوار بين الله وعباده : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم .. مرضت فلم تعدنى ! ! قال : يارب .. كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم .. استطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يارب .. كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ! قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ ! يا ابن آدم .. استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب .. كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ! قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى » (٣) .

و يروى الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك فأخره فشكر الله له ، فغفر له » ، وفى رواية مسلم : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق فقال : والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم .. فأُدخِلَ الجنة » .

وعن أبى ذر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « عُرِضت علىّ أعمال أمتى حسنها وسيئها فوجدت فى محاسن أعمالها : الأذى يُماط عن الطريق » (٤) .

والإسلام لا يستحب هذه الأعمال ويحمدها فحسب ، بل هو يدعو إليها ، ويحث عليها ، ويأمر بها ، ويجعلها من الواجبات اليومية على المسلم ، التى

(١) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه واللفظ له ، ورواه الطبرانى بنحوه من حديث أبى هريرة ورواته ثقات كما فى الترغيب .

(٢) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح والبزار وابن حبان فى صحيحه من حديث جابر ، وابن جابر فى صحيحه .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

تُقربه إلى الجنة ، وتُبعده عن النار، وهو تارة يسميها «صدقة» وطوراً يسميها «صلاة» وهى على كل حال عبادة وقربة إلى الله الكريم.

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا ينجى العبد من النار؟ قال: الإيمان بالله.

قلت: يا نبى الله.. مع الايمان عمل؟

قال: أن ترضخ مما خَوَّلك الله (أى تعطى مما ملكّك الله).

قلت: يا نبى الله.. فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ؟

قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

قال: فليعن الأخرق (هو الجاهل الذى لا يعرف صنعة. يعينه على تعلم صنعة).

قلت: يا رسول الله.. أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟

قال: فليعن مظلوماً.

قلت: يا نبى الله.. أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً؟!

قال: ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟! يمسك أذاه عن الناس.

قلت: يا رسول الله.. أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة؟

قال: ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة» (١)

بمثل هذه الروح يستحث نبى الإسلام كل مسلم — وإن يكن محدود الاستطاعة — أن يؤدى هذه العبادة أو «الضريبة» الاجتماعية. ولم يجعل

(١) رواه البيهقى واللفظ له.

الإسلام هذه العبادة موقوتة بزمان أو مرهونة بمكان، كما لم يجعل هذه العبادة أو الضريبة مالية فينفرد بها الأغنياء، ولا بدنية فيختص بها الأقوياء، ولا ثقافية فيتميز بها المتعلمون، ولكنه جعلها ضريبة إنسانية عامة، يؤديها كل إنسان على قدر طاقته، يشترك فيها الفقير والغنى، والضعيف والقوى، والأمى والمتعلم.

وإننا لنقرأ أحاديث النبى الكريم فى هذا الباب، فنرى أنه لم يكتف بفرض هذه العبادة العامة على الإنسان من حيث هو إنسان فحسب، بل يشتد فى طلبها، فيفرضها على كل ميسم من مياسمه، أو كل مفصل من مفاصله. فيروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل سُلامىّ من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة. ويعين الرجل فى دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة. وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة» (١).

ويروى ابن عباس نحو هذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم! فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أنبأتنا به! قال: أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك القذر من الطريق صلاة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة» (٢).

ونحو ذلك ما رواه بريدة عنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال: «فى الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة. قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ ـــ ظنوها صدقة مالية ـــ قال: النخامة فى المسجد تدفنها، والشىء تنحيه عن الطريق..» (٣).

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه.

(٣) رواه أحمد واللفظ له وأبو داوود وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما.

وقد وردت أحاديث عديدة تجعل تبسم المرء فى وجه أخيه صدقة وإسماع الأصم، وهداية الأعمى، وإرشاد الحيران، ودلالة المستدل على حاجته، والسعى بشدة الساقين مع اللهفان المستغيث، والحمل بشدة الذراعين مع الضعيف، وما يدور فى هذا الفلك من الأعمال، عدّه رسول الإسلام عبادة كريمة، وصدقة طيبة.

وبهذا يعيش المسلم فى مجتمعه ينبوعاً يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يفعل الخير ويدعو إليه، ويبذل المعروف ويدل عليه، فهو مفتاح للخير، مغلاق للشر، كما حثه النبى الكريم (١).

وأفق الخير والنفع الذى يعيش المسلم فى دائرته ليس خاصاً بالإنسان وحده، وإنما يتسع فيشمل كل كائن حى فى الوجود حتى الطيروالحيوان، فكل إحسان يسديه إليه أو أذى يدفعه عنه عبادة تقربه إلى الله، وتوجب له رضاه.

وقد حدث النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه عن رجل وجد كلباً يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فنبضت عروق الرحمة فى قلبه، وعَزَّ عليه أن يدع هذا الكلب فى حرقه وشدة ظمئه، فذهب به إلى بئر فنزع خفه وملأه منها، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له.. سمع الصحابة هذه القصة فقالوا فى عجب: أئن لنا فى البهائم لأجراً يا رسول الله؟

قال: «فى كل كبد رطبة ــ أى فيها حياة ــ أجر» (٢).

وفى هذه الدائرة الرحبة من أعمال البر التى شملت الإنسان وغير الإنسان يجد المهتمون بالعبادة، الراغبون فى الإكثار منها، والمهتمون بخدمة المجتمع والإحسان إلى الخلق أيضاً ما يشبع نهمهم ويتجاوب مع أشواقهم، بدل أن يحصروا فى عبادات «الصوامع» وحدها وينقطعوا عن ركب الحياة.

* * *

---

(١) كما فى حديث ابن ماجه «طوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر».

(٢) رواه البخارى.

● **عمل الإنسان فى معاشه عبادة بشروط:**

وأعجب من هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم يجعل الأعمال الدنيوية التى يقوم بها الإنسان لمعيشته، والسعى على نفسه وأهله، من أبواب العبادة والقربات إلى الله، وإن لم يتعد نفعها دائرته الشخصية والأسرية. فالزارع فى حقله، والعامل فى مصنعه، والتاجر فى متجره، والموظف فى مكتبه، وكل ذى حرفة فى حرفته، يستطيع أن يجعل من عمله المعاشى صلاة وجهاداً فى سبيل الله، إذا التزم فيه الشروط الآتية:

١ ــ أن يكون العمل مشروعاً فى نظر الإسلام. أما الأعمال التى ينكرها الدين كالعمل فى الربا والحانات، والمراقص ونحوها، فلا تكون ولن تكون عبادة أبداً.. إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

٢ ــ أن تصحبه النية الصالحة: نية المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض، كما أمر الله.

٣ ــ أن يؤدى العمل بإتقان وإحسان ففى الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء» (١) «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» (٢).

٤ ــ أن يلتزم فيه حدود الله فلا يظلم ولا يخون، ولا يغش ولا يجور على حق غيره.

٥ ــ ألا يشغله عمله الدنيوى عن واجباته الدينية كما قال تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» (٣) «رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة وفيه راو تكلم فيه. وكذا رواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما، كما فى «الفيض»

(٣) المنافقون: ٩

تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ » (١).

إذا راعى المسلم هذه الأمور كان في سعيه عابداً وإن لم يكن في محراب، مبتهلا إلى الله وإن لم يكن في صومعة.

عن كعب بن عجرة قال: مَرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه فقالوا: يارسول الله.. لو كان هذا في سبيل الله؟! – أي في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وكان أفضل العبادات عندهم – فقال: إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان» (٢).

ويخلع القرآن على السعى في مناكب الأرض، لطلب الرزق تسمية جميلة موحية برضا الله، فيسمى ذلك «الابتغاء من فضل الله» مثل قوله تعالى:

« فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ » (٣)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » (٤) ويقرن المسافرين للرزق بالمجاهدين لله في سياق واحد إذ يقول: « وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ » (٥).

---

(١) النور: ٣٧

(٢) قال المنذرى: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الجمعة: ١٠ (٤) البقرة: ١٩٨

(٥) المزمل: ٢٠

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى فضل الزرع والغرس وما يجلب لصاحبه من مثوبة عند الله: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» (١).

ويعلن أن «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» (٢).

وفى ظل هذه التعاليم لا يجوز للمسلم – ولا يتصور منه – أن يكون عالة على غيره، أو عبئاً على المجتمع: يأخذ من الحياة ولا يعطيها، ويعتزل الناس والحياة باسم التفرغ للعبادة أو التبتل. بل يندفع بغير وازع خارجى إلى كل ميادين الحياة منتجاً متقناً متفوقاً، وهو يوقن أنه فى صلاة وجهاد!

* * *

• حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة:

على أن الأروع مما تقدم كله أن تشمل العبادة الحاجات الضروية التى يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية. فالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته، وما كان من هذا القبيل يدخله الإسلام فى دائرة العبادة الفسيحة بشرط واحد هو «النية». فالنية هى المادة السحرية العجيبة التى تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها طاعات وقربات.

وأوضح شاهد على ذلك ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

«وفى بُضْعِ (٣) أحدكم صدقة قالوا: أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم قال: كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر» !! (٤) قال العلماء: وهذا من تمام رحمة الله على عباده، يثيبهم على ما فيه قضاء شهواتهم إذا نووا أداء حق الزوجة وإحصان الفرج ولله الحمد.

* * *

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه الترمذى وحسنه.

(٣) البضع: قال فى القاموس: الجماع أو الفرج نفسه.

(٤) رواه مسلم والترمذى.

• صحح وجهتك تكن كل حياتك عبادة :

بحسب المسلم أن ينظر إلى نفسه على أنه خليفة لله فى الأرض، مهمته أن ينفذ أمره، ويقيم حدوده ويعلى كلمته، ويقوم بواجب العبودية له تعالى، بحسبه ذلك لتصطبغ أعماله كلها بصبغة ربانية، وليكون بما يصدر عنه من أقوال وأفعال وحركات وسكنات عبادة لله رب العالمين.

وهذا هو الموافق لما تعطيه الآية الكريمة من معنى كبير: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»(١) فأين هى العبادة التى جعلها الله غاية لخلقهم إذا حصرنا معنى العبادة فى تلك الشعائر التى لا تستغرق إلا دقائق معدودات من يوم الإنسان وليلته. أما جل الوقت ففى معترك الحياة، ويعجبنى ما قاله هنا الأستاذ محمد الغزالى (٢):

« إن الإسلام ليس أفعالاً تعد على الأصابع دون زيادة أو نقص. كلا.. إنه صلاحية الإنسان للمسير فى الحياة وهو يؤدى رسالة محددة.

فالمهندس الذى يصنع آلة ما لا يعنيه كم تنتج من السلع والأدوات، وإنما يعنيه أن تكون أجهزتها مستعدة على الدوام لإنجاز ما تكلف به.

فصلاحية الطيارة للانطلاق. وصلاحية المدفع للقذف. وصلاحية القلم للكتابة... هذه الصلاحيات هى مناط الحكم على قيمة الشىء فإذا أطمأننا إلى وجودها قبلناها ورجونا ثمرتها.

كذلك الإنسان، إن الإسلام يريد أن تستقيم أجهزته النفسية أولاً. فإذا توفرت لها صلاحيتها المنشودة، بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فكل عمل تتعرض له فى الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة الله. إن آلة سك النقود يدخلها المعدن الغفل ــ الخام ــ فيخرج منها عملة مالية غالية الثمن، تحمل من الألوان والأختام والشارات ما يجعلها شيئاً آخر. كذلك المسلم

---

(١) الذاريات : ٥٦.

(٢) فى كتاب « هذا ديننا » ص ٨٤

يعالج ما يعالج من شئون الدنيا ، فيضفي عليه من طبيعة إيمانه وسناء وجهته ما يجعل أي عمل يقبل عليه يتحول في يده إلى عبادة غالية القدر.

وبهذه الصلاحية النفسية رفض الله دعوى أصحاب الدعاوى الذين اغتروا « وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ ۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » [1]

في شئون الحياة ليس للأعمال الصالحة حصر تنتهي عنده ولا رسم تخرج فيه. إنما هو إسلام الوجه لله وإصلاح العمل والبلوغ به حد الكمال المطلوب » .

* * *

● **آثار هذا الشمول في النفس والحياة :**

إن شمول معنى العبادة في الإسلام — كما شرحناه — له آثار مباركة في النفس والحياة يحسها الإنسان في ذاته. ويلمسها في غيره. ويرى ظلالها في الحياة من حوله. وأبرز هذه الآثار وأعمقها أمران :

الأول : أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية ، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه للحياة ، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع . وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع . وكل إنتاج صالح ، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل وجوهها . فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله عز وجل . كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه ، مادام يقدمه هدية إلى ربه سبحانه ، ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته .

(١) البقرة : ١١١ ، ١١٢ .

والثانى : أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة ، ووحدة الغاية فى حياته كلها ، فهو يرضى رباً واحداً ، فى كل ما يأتى ويدع ، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله : الدينى والدنيوى ، لا انقسام ولا صراع ولا ازدواج فى شخصيته ولا فى حياته .

إنه ليس ممن يعبدون الله فى الليل ، ويعبدون « المجتمع » فى النهار .

وليس ممن يعبدون الله فى المسجد ، ويعبدون « الدنيا » أو « المال » فى ساحة الحياة .

وليس ممن يعبدون الله فى يوم من أيام الأسبوع ثم يعبدون ما سواه ومن سواه سائر أيام الأسبوع .

كلا .. إنه يعبد الله وحده حيثما كان ، وكيفما كان ، وفى أى عمل كان .. فوجه الله لا يفارقه فى عمل ولا حال ولا زمان « وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ » (١) .

وبهذا ينصرف همه كله إلى الله ، ويجتمع قلبه كله على الله ، ولا يتوزع شمل حياته وفكره وإرادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات ، والتيارات والانقسامات .

إن حياته كلها وحدة لا تتجزأ . منهجه فيها عبادة الله ، وغايته رضوان الله . ودليله وحى الله .

يقول المسلم النمساوى الأستاذ محمد أسد فى بيان مزية العبادة فى الإسلام :

« يختلف إدراك العبادة فى الإسلام عما هو فى كل دين آخر . إن العبادة فى الإسلام ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص ، كالصلاة والصيام مثلاً ، ولكنها تتناول « كل » حياة الإنسان العملية أيضاً . ولذا

(١) البقرة : ١١٥

كانت الغاية من حياتنا على العموم «عبادة الله» فيلزمنا حينئذ ــضرورةــ أن ننظر إلى هذه الحياة فى مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية، متعددة النواحى. وهكذا يجب أن نأتى أعمالنا كلها ــ حتى تلك التى تظهر تافهة ــ على أنها عبادات، وأن نأتيها بوعى، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمى الذى أبدعه الله.. تلك حال ينظر إليها الرجل العادى على أنها مثل أعلى بعيد. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقق المثل العليا فى الوجود الواقع؟

إن موقف الإسلام فى هذا الصدد لا يحتمل التأويل. إنه يعلمنا أولاً: أن عبادة الله الدائمة، والمتمثلة فى أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هى معنى الحياة نفسها، ويعلمنا ثانياً: أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحية. وحياتنا المادية.. يجب أن تقترن هاتان الحياتان فى وعينا وفى أعمالنا لتكوّن (كلاً) واحداً متسقاً.. إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى فى سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة فى حياتنا.

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه. هى فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة. ذلك أن الإسلام ــعلى أنه تعليمــ لا يكفى بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط. ولكن يعرض أيضاً ــ بمثل هذا التوكيد على الأقل ــ للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية..

إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة، التى هى آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معنى ما. ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة فى نفسها. والله تعالى «وحدة» لا فى جوهره فحسب، بل فى الغاية إليه أيضاً. من أجل ذلك كان خلقه وحدة، ربما فى جوهره، إلا أنه وحدة فى الغاية منه بكل تأكيد.

وعبادة الله فى أوسع معانيها — كما شرحنا آنفاً — تؤلف فى الإسلام معنى الحياة الإنسانية .. هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال — فى إطار حياته الدنيوية الفردية — ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام — وحده — يعلن أن الكمال الفردي ممكن فى الحياة الدنيا .. إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات «الجسدية» ، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من «تناسخ الأرواح» على مراتب متدرجة — كما هى الحال فى الهندوكية — ولا هو يوافق البوذية التى تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانقسام علاقاتها الشعورية من العالم .. كلا . إن الإسلام يؤكد فى إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال فى حياته الدنيا الفردية . وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوى فى حياته هو» (١) .

* * *

● **سؤالان وجوابها :**

يعن لبعض الناس هنا سؤال يحتاج إلى جواب . وهو: إذا كانت العبادة تشمل الدين كله — كما قال ابن تيمية — فلماذا عطف القرآن عليها غيرها من أوامر الدين ونواهيه ، فى مثل قوله تعالى :« وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ .. » الآية (٢) وقوله تعالى على لسان شعيب :« يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ ... » « ... وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ... » الآية(٣) .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٢١ - ٢٣ ترجمة الدكتور عمر فروخ .
(٢) النساء : ٣٦ (٣) هود : ٨٤—٨٥

فهذه الأشياء المعطوفة على العبادة تدل على أنها غيرها، فإن العطف يقتضى المغايرة، كما هو معلوم. فما تفسير ذلك؟

وسؤال آخر يرد هنا أيضاً، وهو: إذا كان الدين كله عباده، فلماذا قسم الفقهاء أحكام الشرع إلى «عبادات» و«معاملات»؟

أما السؤال الأول. فجوابه يسير، وهو: أن عطف الخاص على العام مألوف فى العربية، ومأنوس لدى البلغاء، وذلك للتنبيه على مزية فى الخاص اقتضت إفراده بالذكر، كأنه جنس مستقل. مع دخوله فى أفراد العام. كما أن عكسه أيضاً معروف، وهو عطف العام على الخاص.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ» [1] فنص على إيتاء ذى القربى مع أنه يدخل فى الإحسان. وكذلك خص الفحشاء بالذكر مع دخولها فى عموم المنكر وكذلك البغى. وأمثلة هذا فى القرآن كثيرة.

وأما السؤال الثانى. فجوابه: أن تقسيم الفقاء الأحكام الشرعية العملية إلى عبادات ومعاملات، إنما هو اصطلاح منهم، أرادوا به التفريق بين نوعين من الأحكام.

النوع الأول: يضم الصور والكيفيات المحددة التى شرعها الله تعالى، ليتقرب عباده إليه بأدائها. فالشارع هو المنشىء لها والآمر بها. وليس للعباد فيها إلا التلقى والتنفيذ. وتلك هى الشعائر التعبدية التى لا يخلو دين منها. وبها يمتحن الله عباده، وبها تظهر حقيقة العبودية، حيث لا يبدو للعباد فيها حظ شخصى لأول وهلة.

أما النوع الثانى: فهو يشمل الأحكام التى تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض فى حياتهم ومعايشهم ومبادلاتهم. فهذه العلاقات والنشاطات

---

(١) النحل: ٩٠

لم ينشئها الشرع، بل هي موجودة قبله. ومهمة الشارع هنا: أن يُعَدِّلها، ويهذبها ويقر الصالح منها، والنافع، ويمنع الفاسد والضار.

وبهذا يتبين لنا أن موقف الشرع من النوع الأول الذى سماه الفقهاء «العبادات» غير موقفه من النوع الثانى الذى سموه «المعاملات». فهو فى الأولى منشىء مخترع، وليس من حق غيره أن ينشىء أو يتبدع صوراً للعبادة من عند نفسه لم يأذن بها الله. وفيه جاءت بذلك الأحاديث: «من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو ردٌّ وكل بدعة ضلالة».

وهو فى الثانية مصلح لما أنشأه الناس وأوجدوه فعلاً.

وبناءً على هذا قرروا أن الأصل فى العبادات الحظر والمنع، حتى لا يشرع الناس فى الدين مالم يأذن به الله. أما فى العادات والمعاملات فالأصل فيها الإباحة (١).

وهناك فائدة أخرى لهذا التقسيم، نبَّه عليها الإمام الشاطبى وغيره وهى: أن الأصل فى جانب العبادات هو التعبد، دون الالتفات إلى المعانى والمقاصد. أما العادات أو المعاملات فالأصل فيها الالتفات إلى ما وراءها من المعانى والحكم والمقاصد.

فإذا أمر الشارع مثلاً بذبح الهدى فى الحج. فهذا أمر تعبدى لا يجوز تركه والتصدق بثمن الهدى، لما فى ذلك من تعطيل هذه العبادة الشعائرية.

ولكن إذا حث الشارع على رباط الخيل واقتنائها والاهتمام بها لقتال الأعداء، ثم تغير الزمن وأصبح الناس يركبون للحرب الدبابات والمدرعات بدل الخيل، أصبح الاهتمام بهذه الأسلحة الجديدة هو التنفيذ العملى لما جاء من حث على رباط الخيل. بناء على رعاية المعانى والمقاصد التى تفهم من وراء ما جاءت به نصوص الشرع هنا.

---

(١) انظر كتابنا «الحلال والحرام» ص ٢١ ط خامسة قاعدة «الأصل فى الأشياء والتصرفات الإباحة»

فهذا هو سر تقسيم الفقهاء أحكام الفقه إلى عبادات ومعاملات، وهذا هو أثره. وإن كان التزام أحكام الشرع فى كل المجالات هو عبادة بالمعنى الشامل الذى بيناه من قبل.

غير أن هذا التقسيم الاصطلاحى الفنى الذى هو طابع التأليف العلمى أنشأ فيما بعد، كما ذكر الشهيد سيد قطب ــ آثاراً سيئة فى التصور، تبعته ــ بعد فترة ــ آثار سيئة فى الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب فى تصورات الناس: أن صفة «العبادة» إنما هى خاصة بالنوع الأول من النشاط الذى يتناوله «فقه العبادات» بينما أخذت الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثانى من النشاط الذى يتناوله فقه المعاملات.

إن ذلك التقسيم ــ مع مرور الزمن ــ جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» وفق أحكام الإسلام، بينما هو يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر. لا يتلقونه من الله، ولكن من إله آخر! هو الذى يشرع لهم فى شئون الحياة مالم يأذن به الله!

وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين ــ على هذا النحو ــ فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر: يخرج من هذا الدين (١).

ولا ريب أن هذا الانحراف الذى وقع فى تصور كثير من المسلمين لحقيقة الإسلام، وحقيقة العبادة فيه، لم يكن مقصوداً للفقهاء، ولا هم مسئولون عنه. فإن ما صنعوه من التقسيم هو مقتضى التصنيف والتأليف العلمى كما ذكر المرحوم سيد قطب نفسه، ولم يستطع من ألف فى الفقه فى عصرنا أن يستغنى عن هذا التقسيم أيضاً.

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ١٢٩، ١٣٠

على أن هذا التقسيم إنما يأتى إذا كتبوا فى الفقه ــ فإذا كتبوا فى غيره وجدنا مثل ابن تيمية يصرح بأن العبادة تشمل الدين كله. كما ذكرنا. ووجدنا مثل ابن القيم يدخل الدين كله أيضاً فى « **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** » كما سيأتى قريباً فى بيانه لمراتب العبودية الخمسين.

* * *

- **شمول العبادة لكيان الإنسان كله:**

هذا هو المظهر الثانى لشمول العبادة فى الإسلام.

فكما شملت العبادة فى الإسلام الحياة كلها، استوعبت كذلك كيان الإنسان كله.

فالمسلم يعبد الله بالفكر، ويعبد الله بالقلب، ويعبد الله باللسان، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس، ويعبد الله ببدنه كله، ويعبد الله ببذل المال، ويعبده ببذل النفس، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن.

المسلم يتعبد لله بالفكر، عن طريق التأمل في النفس والآفاق، والتفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء، والتدبر لآيات الله المنزلة وما فيها من هدى وحكمة، والنظر فى مصاير الأمم وأحداث التاريخ وما فيها من عظة وعبرة، فهذا كله مما يتقرب به المسلم إلى الله الذى أنزل كتابه إلى الناس « لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ » (١). ودعاهم فى محكم كتابه إلى إعمال العقل نظراً وتفكراً وتعلماً «وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ » (٢) «إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ

---

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) الذاريات : ٢٠، ٢١

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ » (١) .

وقد ورد عن ابن عباس :« تفكر ساعة خير من قيام ليلة » (٢) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » (٣) .

وقال الشافعي رضي الله عنه : « طلب العلم أفضل من صلاة النافلة » ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه . وقال وهب : كنت بين يدى مالك رضى الله عنه فوضعت ألواحى ، وقمت أصلى ، فقال : مالذى قمت إليه بأفضل من الذى قمت عنه (٤) .

ويتعبد المسلم لله بالقلب عن طريق العواطف الربانية والمشاعر الروحية ، مثل : حب الله وخشيته ، والرجاء فى رحمته والخوف من عقابه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والشكر لنعمائه ، والحياء منه ، والتوكل عليه ، والإخلاص له ، قال تعالى : « وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ » (٥) « قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ » (٦) .

ويتعبد المسلم لله باللسان عن طريق الذكر والتلاوة والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبيرجاء فى القرآن الكريم « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١

(٢) رواه أبو الشيخ موقوفاً . وروى مرفوعاً بإسناد ضعيف من حديث أبى هريرة « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، رواه ابن حبان فى كتاب العظمة ، ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٣) رواه احمد عن أبى هريرة .

(٤) مدارج السالكين جـ ٣

(٥) البينة : ٥

(٦) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (١) « وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ» (٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» (٣) وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فمرنى بأمر أتشبث به. فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» (٤).

والذكر نوعان: ذكر ثناء مثل «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وذكر دعاء مثل: « رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » (٥).

وقد جاء من النوعين عن النبى صلى الله عليه وسلم أدعية وأذكار كثيرة، فى مختلف المناسبات والأوقات، تجعل المسلم موصول القلب بربه، ورطب اللسان بذكره تعالى: عند النوم واليقظة، وعند الإصباح والإمساء، وعند الأكل والشرب، وعند السفر والأوبة، عند لبس الثوب، وركوب الدابة، وهبة الريح ونزول المطر.. وفى كل حال وكل حين. وقد ألف العلماء فى ذلك كتباً شتى (٦).

والذكر المحمود هو ما اجتمع فيه القلب واللسان، ولا خير فى ذكر اللسان إذا كان القلب ناسياً غافلاً.

---

(١) الأحزاب: ٤١، ٤٢ (٢) الأعراف: ٢٠٥

(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبى أمامة.

(٤) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

(٥) الأعراف: ٢٣، وقد ورد على لسان آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة.

(٦) من أفضلها كتاب «الأذكار» للإمام النووى، و «الكلم الطيب» لشيخ الإسلام ابن تيمية و «الوابل الصيب» للإمام ابن القيم.

ويتعبد المسلم لله ببدنه كله: إما كفاً وامتناعاً عن ملذات البدن وشهواته، كما فى الصيام. وإما حركة وعملاً ونشاطاً، كما فى الصلاة التى يتحرك فيها البدن كله: اللسان والأعضاء، مع العقل والقلب.

ويتعبد المسلم لله ببذل المال الذى هو شقيق الروح، كما فى الزكاة والصدقات، وهذا ما يسميه الفقهاء «العبادة المالية» كما سموا الصلاة والصوم «العبادة البدنية» ويعنون بكلمة «البدن» هنا كيان الإنسان كله لا الجسم المادى وحده. فإن النية شرط لكل عبادة، ومحلها القلب بالإجماع، وعبادة المجنون والسكران ونحوها لا تصح ولا تقبل «حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ» (١).

ويتعبد المسلم لله ببذل مهجته والتضحية بنفسه وبمصالحه المادية العاجلة، ابتغاء مرضاة الله، كما فى الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

ويتعبد المسلم لله بمفارقة الأهل والوطن والضرب فى الأرض: إما للحج والعمرة، وإما للهجرة إلى أرض يستطيع فيها المسلم إقامة دينه، وإما للجهاد فى سبيل الله، وإما لطلب علم نافع، أو نحو ذلك، مما يبذل فيه المسلم — عادة — راحة بدنه وحُرّ ماله. ولهذا نعتبر هذا النوع من العبادات «بدنياً ومالياً» معاً حسب التقسيم الفقهى المتعارف.

* * *

● **مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن:**

وقد قرأت لابن القيم — رضى الله عنه — تفصيلاً حسناً فى مراتب العبودية لله، وحظ القلب واللسان والجوارح والحواس كلها من هذه العبودية الشاملة، رأيت أن أنقله هنا — ببعض تصرف — من كتابة القيم النافع

---

(١) النساء: ٤٣

« مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين ، إلى مقامات« **إِيَّاكَ نَعبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ** » قال :

« ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة ، من كملها كمل مراتب العبودية .

وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح ، وعلى كل منها عبودية تخصه .

والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهى لكل واحد من القلب ، واللسان والجوارح .

* حظ القلب من العبودية لله :

فواجب القلب : منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه .

فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية فى العبادة . وهذه قدر زائد على الإخلاص ، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان :

إحداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض .

والأقسام الثلاثة واجبة .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن ، أو بضع وتسعين ، وله طرفان أيضاً : واجب مستحق ، وكمال مستحب .

وأما المختلف فيه فكالرضا ، فإن فى وجوبه قولين للفقهاء والصوفية .

ومن هذا أيضاً اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته؛ فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائماً بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها. فوظيفة «**إياك نعبد**» على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً : شهوة المحرمات وتمنيها . وتتفاوت درجات الشهوة فى الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى . فشهوة الكفر والشرك : كفر. وشهوة البدعة : فسق . وشهوة الكبائر: معصية . . فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب . وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره فى تحصيلها : استحق عقوبة الفاعل ، لتنزيله منزلته فى أحكام الثواب والعقاب ، وإن لم ينزل منزلته فى أحكام الشرع . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار. قالوا : هذا القاتل يارسول الله ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» فنزَّله منزلة القاتل ، لحرصه على قتل صاحبه فى الإثم دون الحكم ، وله نظائر كثيرة فى الثواب والعقاب .

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

* حظ اللسان من العبودية لله :

وأما عبوديات اللسان الخمس فواجبها : النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن ، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه ، وتلفظه بالأذكار الواجبة فى الصلاة التى أمر الله بها ورسوله ، كما أمر بالتسبيح فى الركوع والسجود ، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه رد السلام ، وفى ابتدائه قولان .

ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة ، وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة فى العلم النافع ، وتوابع ذلك .

وأما محرمه : فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله ، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله . والدعاء إليها ، وتحسينها وتقويتها ، وكالقذف وسبّ المسلم ، وأذاه بكل قول ، والكذب وشهادة الزور، والقول على الله بغير علم . وهو أشدها تحريماً .

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به . مع عدم العقوبة عليه .

* حظ الجوارح والحواس من العبودية لله :

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً ، إذ الحواس خمسة ، وعلى كل حاسة خمس عبوديات .

* حظ السمع :

فعلى السمع : وجوب الإنصات ، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه ، مِن استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة فى الصلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة ، فى أصح قولى العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون فى استماعه مصلحة راجحة ، من ردّة ، أو الشهادة على قائله ، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسرّه ، ولا يحب أن يطلعك عليه ، ما لم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التى تُخشى الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع إليه حاجة : من شهادة ، أو معاملة ، أو استفتاء ، أو محاكمة ، أو مداواة ونحوها .

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه : عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

* حظ النظر:

وأما النظر الواجب: فالنظر فى المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام فى الأعيان التى يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التى يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام : النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذى المحرم.

والمستحب : النظر فى كتب العلم والدين التى يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر فى المصحف؛ ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر فى آيات الله المشهودة، ليستدلّ بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه : فضول النظر الذى لا مصلحة فيه، فإن له فضولاً كما للسان فضولاً. وكم قاد فضولها إلى فضول عزّ التخلص منها وأعيا دواؤها، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام..

والمباح : النظر الذى لا مضرة فيه فى العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام : النظر إلى العورات، وهى قسمان:

عورة وراء الثياب. وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر فى العورة التى وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه ، لم يكن عليه شيء ، وذهبت هَدَراً ، بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته ، وإن ضعفه بعض الفقهاء ، لكونه لم يبلغه النص ، أو تأوله .

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أو ريبة هو مأمور — أو مأذون له — فى الاطلاع عليها .

* حاسة الذّوق وحظها من العبودية لله :

وأمّا الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت . فإن تركه حتى مات ، مات عاصياً قاتلاً لنفسه ؛ قال الإمام أحمد وطاووس : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات ، دخل النار .

ومن هذا : تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك ، على أصح القولين . وإن ظن الشفاء به ، فهل هو مستحب مباح ؟ أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر والسموم القاتلة . والذوق الممنوع منه للصوم الواجب .

وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذَوْق طعام الفجاءة ، وهو الطعام الذى تفجأ آكله ، ولم يُرد أن يدعوك إليه ، وكأكل أطعمة المرائين فى الولائم والدعوات ونحوها .

وفى السُّنن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن طعام المتباريين » وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به من الشارع.

والذوق المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

* حاسة الشم :

وأما تعلّق العبوديات الخمس بحاسة الشم. فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذى تعلم به هذه العين هل هى خبيثة أو طيبة؟ وهل هى سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به وما لا يملك؟ ومن هذا شمّ المقوِّم وربّ الخبرة، عند الحكم بالتقويم، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام : فالتعمد لشم الطيب فى الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوى الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم «مَن عُرض عليه ريحانٌ فلا يردّه، فإنه طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه : كشمّ طِيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

* حاسة اللمس :

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب : كلمس الزوجة حين يجبُ جماعها، والأمة الواجب إعفافها .

والحرام : لمس ما لا يحلّ من الأجنبيات .

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله .

والمكروه : لمس الزوجة فى الإحرام للذة . وكذلك فى الاعتكاف، وفى الصيام . إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت ــ لغير غاسله ــ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحى تكريماً له . ولهذا يستحب ستره عن العيون، وتغسيله فى قميصه فى أحد القولين، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا : هى عورة .

والمباح : ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .

* البطش باليد والرجل :

وهذه المراتب أيضاً مرتبة على البطش باليد والمشى بالرجل . وأمثلتها لا تخفى .

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله : واجب . وفى وجوبه لقضاء دينه خلاف . والصحيح : وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة . وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى فى الدليل : وجوبه لدخوله فى الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب : إعانة المضطر، ورمى الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم .

والحرام : كقتل النفس التى حرّم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرّم بالنص: كالنرد ، أو ما هو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة كالشطرنج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، أو دونه عند بعضهم (١) . ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً ، إلا مقروناً بردّها ونقضها ، وكتابة الزور والظلم ، والحكم الجائر ، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم ، ولا سيما إن كسبت عليه مالا « فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ » (٢) ، وكذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً ، فالإثم موضوع عنه .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذى ليس بحرام ، وكتابة ما لا فائدة فى كتابته ، ولا منفعة فيه فى الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة فى الدين ، أو مصلحة لمسلم . والإحسان بيده بأن يعين صانعاً أو يصنع لأخرق ، أو يفرغ من دلوه فى دلو المستقى ، أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ، أو فيما يحتاج إليه ونحو ذلك . ومنه : س الركن بيده فى الطواف ، وفى تقبيلها بعد اللمس قولان .

والمباح : ما لا مضرة فيه ولا ثواب .

وأما المشى الواجب : فالمشى إلى الجمعات والجماعات ، فى أصح القولين ، لبضعة وعشرين دليلا ، مذكورة فى غير هذا الموضع . والمشى حول البيت للطواف الواجب ، والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه ، والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دُعى إليه ، والمشى إلى صلة رحمه ، وبر والديه والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه ، والمشى إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر .

---

(١) انظر رأينا فى لعب الشطرنج فى كتابنا « الحلال والحرام » ص : ٢٩٠ ، ٢٩١ ط خامسة .

(٢) البقرة : ٧٩

والحرام : المشي إلى معصية الله ، وهو من رجْل الشيطان ، قال تعالى : «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»(١) فقال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم . فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس .

* حتى الركوب على الدابة :

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً .

فواجبه : في الركوب في الغزو ، والجهاد ، والحج لحواجب .

ومستحبه : في الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وفي الوقوف بعرفة نزاع : هل الركوب فيه أفضل أم على الأرض؟ والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم للمناسك ، واقتداء به ، وكان أعون على الدعاء ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للّهو واللعب ، وكل ما تركه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولا تحصيل وزر .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء ، القلب ، واللسان ، والسمع ، والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد ، والرجل ، والفرج ، والاستواء على ظهر الدّابة » . أهـ تفصيل ابن القيم .

وبهذا البيان المستوعب يتضح لنا شمول العبادة في الإسلام للإنسان كله من قرنه إلى قدمه ظاهره وباطنه ، وأن حياة المسلم ليست حياة سائبة ، إنما هي في جوهرها تعبد والتزام .

* * *

(١) الاسراء : ٦٤

• أيّ العبادات أفضل ؟

وإذا كانت العبادة في الإسلام لها ذلك الشمول الذي شرحناه. فأي أنواع العبادات وصورها أفضل، وأحب إلى الله، وأعظم منزلة لديه، وزلفى إليه ؟

لقد فصّل المحقق ابن القيم الجواب عن هذا السؤال تفصيلاً يشفي الصدور، ذاكراً اختلاف طرق السالكين في ذلك، ووجهة كل منهم ودليله، مرجحاً ما رآه أقرب إلى الحق، وأولى بالصواب.

قال رحمه الله :

« أهل مقام « **إياك نعبد** » لهم في أفضل العبادة وأنفعها، وأحقها بالإيثار والتخصيص، أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف :

*** القائلون بأن أفضل العبادات أشقها على النفس :**

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا : والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثاً لا أصل له : « أفضل الأعمال أحمزها » (١) أي أصعبها وأشقها. وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

---

(١) وكذا قال الزركشي والسيوطي : لا يعرف. كما في كشف الخفاء للعجلوني جـ ١ ص ١٥٥. وذكر ابن حجر في اللآلىء عقبه : أن مسلماً روى في صحيحه قول عائشة : « إنما أجرك على قدر نصبك » ولهذا قال القاري في الموضوعات الكبرى : معناه صحيح مستدلا بحديث عائشة. ولكنه موقوف. وقد لا يطرد. وقد ورد : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه .. ».

* القائلون بأنه الزهد والتجرد :

الصنف الثاني : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة . فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان . فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ، ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم . والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله . فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه . وربما يقول قائلهم :

يطالب بالأوراد من كان غافلا
فكيف بقلب كل أوقاته ورد ؟ !

ثم هؤلاء أيضاً قسمان . منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته . ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل ، وتعلم العلم النافع لجمعيته .

وسأل بعض هؤلاء شيخاً عارفاً ، فقال : إذا أذّن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله ، فإن قمت وخرجت تفرقت ، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي ، فما الأفضل في حقي ؟

فقال : إذا أذّن المؤذن وأنت تحت العرش فقم ، وأجب داعى الله ، ثم عد إلى موضعك ! وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب ، وإجابة الداعى حق الرب . ومن آثر حظ روحه على حق ربه ، فليس من أهل **« إياك نعبد »** .

* القائلون بأن أفضل العبادات ما كان منه نفع الغير :

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعدٍّ – أى تتعدى منفعته إلى الغير – فرأوه أفضل من النفع القاصر . فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل ، فتصدوا له وعملوا عليه . واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » رواه أبو يعلى .

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفّاع متعد إلى الغير . وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

قالوا : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء » واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير » وبقوله صلى الله عليه وسلم : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، والنملة فى جحرها » .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذى نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم، ولم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبى صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق فى أمر الله. ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

* القائلون بأن لكل وقت عبادته الأفضل :

الصنف الرابع :قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما فى حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلا : القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل فى وقت السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل فى أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة: الإكثار من التعبد، ولا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل فى العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم فى الخير، فهى خير من اعتزالهم، واعتزالهم فى الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل فى كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاه الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلا فى منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها. واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق الذى لم تملكه الرسوم. ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه؛ وما فيه لذتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه. فهذا هو المتحقق بـ« **إياك نعبد وإياك نستعين** » حقاً، القائم بهما صدقاً: ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولى عليه رسم. حر مجرد. دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل محق. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة، حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله »(١). أ هـ.

* * *

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم جـ ١ ص ٨٥ ــ ٩٠.

- لماذا نعبد الله ؟
- العبادة غذاء للروح .
- العبودية لله سبيل الحرية .
- العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان .
- العبادة حق الله على عباده .
- العبادة طلباً للثواب وخوفاً من العقاب .
- هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس .
- صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقة وليس علة لها .
- مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة .
- استكبار عن عبادة الله .
- صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق .
- عبادة المؤمن لون من الأخلاق .. وأخلاقه لون من العبادة .

• لماذا نعبد الله ؟

عرفنا أن رسالة الإنسان فى الوجود هى عبادة الله وحده..

وعرفنا أن العبادة هى غاية الخضوع الممزوج بغاية الحب لله..

وعرفنا أن العبادة — فى الإسلام —، تشمل الدين كله، وتسع الحياة بمختلف جوانبها.

وبقى هنا سؤال قد يسأله بعض الناس. وهو: لماذا نعبد الله تعالى؟ وبعبارة أخرى: لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته وهو الغنى عنا؟ وما الغاية من تكليفنا هذه العبادة؟ هل يعود عليه — سبحانه — نفع من عبادتنا له، وخشوعنا لوجهه؟ ووقوفنا ببابه، وانقيادنا لأمره ونهيه جل شأنه؟ أم النفع يعود علينا نحن المخلوقين؟ وما حقيقة هذا النفع إن كان؟ أم الهدف هو مجرد الأمر من الله والطاعة منا؟

والجواب : أنه — تبارك اسمه — لا تنفعه عبادة من عبده، ولا يضره إعراض من صد عنه. ولا يزيد فى ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين. فهو الغنى ونحن الفقراء إليه، وهو الودود الكريم، والبر الرحيم، الذى لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين. فضلا عن حقه — تعالى — فى أن يفرض علينا ما يشاء، يكلفنا ما يريد. بحكم خلقه لنا وإنعامه علينا. وبحكم عبودتنا الطبيعية القسرية له سبحانه، فهو لا يكلفنا إلا بما ينفعنا نحن ويصلحنا نحن المحتاجين إليه فى كل نفس من أنفاس حياتنا، وهو الغنى غنى ذاتياً. إذ كيف يحتاج الخالق إلى من خلق؟

وقد أخبرنا على لسان سليمان فى القرآن: «قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» (١) وقال تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ

(١) النمل : ٤٠

ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ » (١) وقال تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ » (٢) وقال تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ » (٣)

وقال عز وجل فى الحديث القدسى : «يا عبادى إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » (٤) .

وإذا كان الله سبحانه له هذا الغنى المطلق فلماذا إذن كلف عباده أن يعبدوه ويطيعوه ؟

وأظن ـــ بعد أن يعرف الإنسان جواب الأسئلة الخالدة : من أين ، وإلى أين ، ولم ـــ أن من السهل أن يعرف جواب هذا السؤال . إنه كامن فى طبيعة الإنسان نفسه ، وطبيعة مهمته فى الأرض ، والغاية التى أُعد لها من وراء هذه الحياة .

* *

● **العبادة غذاء للروح :**

(أ) فالإنسان ليس هو هذا الغلاف المادى الذى نحسه ونراه ، والذى يطلب حظه من طعام الأرض وشرابها . ولكن حقيقة الإنسان فى ذلك الجوهر النفيس الذى به صار إنساناً مكرماً سيداً على ما فوق الأرض من

(١) لقمان : ١٢
(٢) آل عمران : ٩٧
(٣) فاطر : ١٥
(٤) رواه مسلم

كائنات. ذلك الجوهر هو الروح.. الذى يجد حياته وزكاته فى مناجاة الله عز وجل. وعبادة الله هى التى توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه، وتمده بمدد يومى لا ينفد ولا يغيض.

ولئن تراكم على هذا الجوهر المعنوى الغفلة والغرور، وران عليه صدأ الجحود أو الشك، لقد تهب عواصف المحن فتزيح الغبار، أو تندلع نار الشدائد فتجلو الصدأ. وسرعان ما يعود الإنسان إلى ربه فيدعوه ويتضرع إليه. وهذه حقيقة ذكرها القرآن، وأيدتها وقائع الحياة:

«هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» (1)

إن القلب الإنسانى دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء فى الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أديت على وجهها.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«القلب فقير بالذات إلى الله من جهتين: من جهة العبادة... ومن جهة الاستعانة والتوكل.. فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر، ولا يلتذ ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه ـ بالفطرة ـ من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

(1) يونس: ٢٢

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله. فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**».

فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادة لله، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئاً لذاته إلا الله» (١).

وهكذا كلما أخلص المرء العبودية لله وجد نفسه، واهتدى إلى سر وجوده، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها سعادة.. تتمثل فيما سماه الرسول «حلاوة الإيمان».

وإن لهذه الحلاوة لطعماً لا يتذوقه إلا من عرف الله، وآثره على كل ما سواه.

قال ابن القيم رحمه الله (٢): «إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس؛ وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه. والحلاوة التى يجدها المؤمن فى قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذى يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التى تناله أعلى من كل لذة. كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وحبه له.

---

(١) العبودية ص ١٠٨، ١٠٩.

(٢) إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٩٧

وقـال آخـر: مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها فـقـيـل لـه: وما هو؟ قال: محبة الله والأنس به. ومثل هذا ما قاله الآخر: أطيـب مـا فـى الـدنـيـا معرفته ومحبته. وأطيب ما فى الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقـال آخر — من أهل معرفة الله وطاعته —: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!

ووجـدان هـذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، بحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليـه أقـرب، وجد من هذه الحلاوة فى قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يـعـرف إلا بـالـذوق والـوجـد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبـاً لـغـيـره، ولا أنـسـاً بـه. وكـلـما ازداد لـه حبـاً إزداد له عبودية وذلاً، وخضوعاً ورقاً له، وحرية عن رق غيره.

فـالـقـلـب لا يفلح ولا يصلح ولا ينعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يـسـكـن إلا بـعـبـادة ربـه وحـبـه، والإنابة إليه، وكلما تمكنت محبة الله من القلب، وقويت فيه أخرجت منه تأله لما سواه وعبوديته له:

فـأصـبـح حـراً عـزة وصـيـانـة   عـلـى وجـهـه أنـواره وضـيـاؤه

وقال الإمام فخر الدين الرازى:

«اعـلـم أن مـنْ عـرف فـوائد العبادة طاب له الاشتغال بها، وثقل عليه الاشتغال بغيرها. وبيانه من وجوه:

الأول: أن الكـمـال محـبـوب بـالـذات، وأكـمـل أحـوال الإنسان اشتغاله بـعـبـادة الله، فـإنـه يـسـتـنـير قـلبه بنور الالٰهية، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والـقـراءة، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله، وهذه الأحوال أشرف المراتب

الإنسانية ، والدرجات البشرية . فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية فى الحال ، وهى موجبة أيضاً لأكمل السعادات فى الزمان المستقبل ، فمن وقف على هذه الأحوال ، زال عنه ثقل الطاعات ، وعظمت حلاوتها فى قلبه .

الثانى : أن العبادة أمانة ، بدليل قوله تعالى « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ .. » (١)

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات . ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثانى ؛ قال بعض الصحابة : رأيت أعرابياً أتى باب المسجد فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد ، وصلى بالسكينة والوقار ودعا بما شاء ، فتعجبنا ، فلما خرج لم يجد ناقته ، فقال : أديت أمانتك فأين أمانتى ؟ ! قال الراوي : فزدنا تعجباً ! فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته .. وسلم الناقة إليه .

قال الرازى : والنكتة أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته ، وهو المراد من قوله عليه السلام لابن عباس : « احفظ الله ... يحفظك .. » (٢)

الثالث : أن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الغرور إلى عالم السرور . ومن الاشتغال بالخلق إلى حضرة الحق ، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة . يحكى عن أبى حنيفة أن حية سقطت من السقف وتفرق الناس ، وكان أبو حنيفة فى الصلاة ولم يشعر بها ... ومن استبعد هذا فليقرأ قوله تعالى فى قصة يوسف – « فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » (٣) . فإن النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام ، وصلت تلك الغلبة إلى حيث قطعن أيديهن وما شعرن بذلك . فإذا جاز هذا فى حق البشر

---

(١) الأحزاب : ٧٢ . (٢) رواه الترمذى .
(٣) يوسف : ٣١ .

فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى . ولأن من دخل على ملك مهيب فربما مر به أبواه وبنوه وهو ينظر إليهم ولا يعرفهم . لأن استيلاء هيبة ذلك تمنع القلب عن الشعور بهم . فإذا جاز هذا فى حق ملك مخلوق ، فلأن يجوز فى حق خالق العالم أولى » (١) .

وبهذا نتبين أن الذى يذوق طعم الإيمان الحق ، وتزهر فى قلبه مصابيح اليقين ، لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو « تنفيذ أوامر » فحسب ، إنه يجد فيها تلذذاً بمناجاة الله وطاعته ، والسعى فى مرضاته ، ويجد فيها سعادة لا تدانيها سعادة أصحاب القصور والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ينتظر فريضة الصلاة انتظار الظمآن اللهف إلى شربة الماء العذب الزلال ، ويهرع إليها كما يهرع السائر فى الصحراء إلى الواحة الخضراء . وكان يقول لبلال — فى شوق ولهفة — إذا حان وقتها : « أرحنا بها يا بلال » (٢) . وقالت زوجه عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة ، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه . فلا عجب أن يقول عليه السلام : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » (٣) .

إن المؤمن ليجد فى عبادة ربه فى ساعة الشدة ، سكينة لنفسه ، وأنساً لوحشته ، وانشراحاً لصدره ، وتخفيفاً عن كاهله ، كما قال الله تعالى لرسوله :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » (٤)

فدله على العبادة إذا ضاق صدره بأقاويل المتقولين ، وأكاذيب المفترين .

وفى ساعة المنحة والنعمة يتذوق المؤمن حلاوة الشكر للمنعم ، والحمد لذى الجلال والإكرام . وما أروع خطاب الله لنبيه فى مثل هذا الموقف :

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ١ ص٢٤٩ ، ٢٥٠ ، (٢) رواه أبو داوود

(٣) رواه أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى . (٤) الحجر: ٩٧ — ٩٩

«إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا» (١).

* * *

- **العبودية لله سبيل الحرية :**

(ب) ثم إن العبودية الخالصة لله هى — فى واقع الأمر — عين الحرية. وسبيل السيادة الحقيقية، فهى — وحدها — التى تعتق القلب من رق المخلوقين، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التى تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد، وإن ظهروا — صورة وشكلا — بمظهر السادة الأحرار!

ذلك أن فى قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب، إلى إله، إلى معبود، يتعلق به، ويسعى إليه، ويعمل على رضاه، فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد، تخبط فى عبادة آلهة شتى وأرباب أخر، مما يرى وما لا يرى، وممن يعقل، وما لا يعقل، ومما هو موجود وما ليس بموجود، إلا فى الوهم والخيال.

وليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد من خلقه فسواه فعدله، ويطرح عبادة كل ما سواه ومن سواه.

وليس أجلب لسعادته وسلام ضميره من توجيه همه إلى إله واحد يخصه بالخضوع والحب، فلا تتوزع قلبه الآلهة والأرباب المزيفون «ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا» ؟ (٢).

فالعبد السالم لسيد واحد قد استراح؛ إذ عرف ما يرضى سيده فأداه بارتياح وانشراح. أما العبد الذى يملكه شركاء متشاكسون يأمره أحدهم بعكس ما يأمره غيره، فما أتعسه وما أشقاه!!

---

(١) سورة النصر

(٢) الزمر : ٢٩

يقول ابن تيمية :

« وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره. فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أصدق الأسماء حارث وهمام » فالحارث: الكاسب الفاعل، والهمّام: فعّال من الهم. والهم أول الإرادة. فالإنسان له إرادة دائماً. وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه. فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً، وكل مستكبر فهو مشرك. ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله، وكان مشركاً. قال تعالى « وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ » ـ يعني فرعون ـ إلى قوله: « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » (١).

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله: « وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ » ؟! (٢).

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله. كان أعظم إشراكاً بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقراً وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو مقصود القلب بالقصد الأول، فكون مشركاً بما استعبده من ذلك.

(١) غافر : ٢٧ ـ ٣٥ (٢) الأعراف : ١٢٧

«ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذى لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالى إلا من والاه الله، ولا يعادى إلا من عاداه الله. ولا يحب إلا لله ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطى إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوى إخلاص دينه لله، كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك» (١).

* * *

• العبادة ابتلاء إلٰهي يصقل الإنسان :

(جـ) والحياة التى نحياها هذه ــ طالت أو قصرت ــ ليست هى الغاية ولا إليها المنتهى، وما هى إلا محطة انتقال إلى حياة أخرى ودار أخرى؛ حياة البقاء، ودار الخلود. وفى بعض الآثار: «إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار» وقال الشاعر:

وما الموت إلا رحلة غير أنها ... من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

فالمعول عليه إذن إنما هو الدار الأخرى «وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ» (٢)

والإنسان فى هذه الدار الفانية إنما يستصلح لتلك الدار الباقية. يستخلفه الله هنا ليعد ويصقل للخلود هناك. ولا شىء يصقله ويهذبه ويعده مثل الابتلاء، فهو البوتقة التى تصهر فيها النفس ويصفو الروح.

فقد شاء الله أن يخلق الإنسان نوعاً متميزاً على غيره، بما ركب فيه من عناصر مزدوجة، يمكن أن تصعد به إلى السماء، وأن يهبط بها إلى الأرض، ففيه الغريزة والشهوة، وفيه العقل والإرادة؛ فيه المادة، وفيه الروح، وقد دل

(١) العبودية : ص ١١٢ ــ ١١٤.   (٢) العنكبوت : ٦٤

هذا الخلق على أن الإنسان مسئول ومبتلى. وهذا هو السر فى استعداده لحمل المسئولية، وأمانة التكاليف الإلهٰية التى عبَّر عنها القرآن تعبيراً بديعاً فقال: «إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ» (١).

لقد كان ما أُوتى الإنسان من عقل وإرادة وضمير واستطاعة، وما يُسِّرَ له من أسباب، نعمة عليه أى نعمة، وتكريماً له أى تكريم، ولكنها كانت تحمل فى طيها ابتلاء له أى ابتلاء: أيشكر أم يكفر؟ أيطيع ربه أم يتمرد عليه؟

وهكذا ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه إنما خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها؛ ليبتلى عباده ويمتحنهم —وهو بهم أعلم— ليظهر من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها، قال تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٢).

«تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٣).

«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٤).

«إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ» (٥).

إن هذه الحياة الدنيا لا تعطى حصادها إلا لمن يزرعون، ولا جناها إلا لمن يغرسون، ولا ينال المرء فيها ما يحب إلا بصبره على ما يكره، ولا

---

(١) الاحزاب : ٧٢ (٢) هود : ٧
(٣) الملك : ١ (٤) الكهف : ٧
(٥) الإنسان : ٢

يتحقق له أمل يصبو إليه إلا بعد أن يجتاز امتحانات عسيرة، ويتحمل مشقات شديدة. ولذلك لا يطمع فى إدراك المعالى وتحقيق الآمال الكبيرة إلا أولوا العزم وأصحاب النفوس الكبيرة. وفى هذا يقول المتنبى :

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل!

هذا شأن حياتنا هذه القصيرة، فكيف بحياة الخلود؟ أيريد الإنسان أن يحظى بنعيمها ورضوان الله فيها، ويسعد بالنظر إلى وجهه الكريم، دون جهد ولا ابتلاء ودون أن يسعى لها سعيها؟ إذن يستوى القاعدون والمجاهدون، يستوى الكسالى والعاملون، يستوى الطالحون والصالحون. وهم فى عدالة الله لا يستوون!!

لقد عرفنا من عدالة السنن الإلهية فى الكون أن الشىء النفيس لا يدرك إلا بجهد كبير، وكلما كانت نفاسته أظهر، احتاج إلى جهد أكبر، فهل هناك شىء أنفس وأعظم من الآخرة الباقية، من الحياة الأبدية، من رضوان الله تعالى؟ لا والله. ولهذا حُفت الجنة بالمكاره، ومُلىء طريقها بأشواك الابتلاء.

ومن هنا قال الإنجيل: «ما أضيق الطريق الذى يؤدى إلى الحياة الأبدية»! وما ضيقه إلا تكاليف العبودية والتزامات الإيمان.

وقال القرآن العظيم : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ»؟(١)

* * *

(١) آل عمران : ١٤٢

• **العبادة حق الله على عباده :**

(د) والعبادة — فوق ذلك كله — هى حق الخالق — جل شأنه — على خلقه.

وفى ذلك روى البخارى ومسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: «كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال لى: يا معاذ.. أتدرى ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

وليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عباته وحده سبحانه، بل المستنكر أن يكون غير هذا.. المستنكر أن نعبد ما دون الله أو من دون الله، فنؤدى الحق لغير أهله. أو نزعم لأنفسنا الاستقلال عن الله فنجحد عبوديتنا له بغير حق.

إننا لم نكن شيئاً مذكوراً ثم كنا: خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ثم كنا نوعاً مكرماً من الخليقة: خُلِقْنا فى أحسن تقويم، وصُوِّرْنا فى أحسن صورة، وعُلمنا البيان، وأوتينا العقل والإرادة، وسخرت الكائنات حولنا لخدمتنا: الأرض لنا مهاد وفراش، والسماء لنا سقف وبناء، والشمس تمدنا بالضوء والحرارة، والكواكب تهدينا وتزين سقفنا، والبحار تجرى فيها سفائننا بأرزاقنا، والماء ينزل من السماء ليكون لنا شراباً طهوراً، ونسقى منه أنعاماً وأناسى كثيراً.

ترى من الذى فعل ذلك كله؟ أما نحن فلم نخلق أنفسنا ولم نصنع ذرة مما حولنا.. ولم يدّع بشر ولا جن ولا ملاك: أنه صانع ذلك ومدبره.. فمن هو صاحب العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة القاهرة والإرادة الفعالة.. الذى صنع هذا الكون الدقيق فأحكمه، ورتبه فأحسنه؟ والذى خلق الإنسان فأحسن خلقه، وسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة؟

إنه الله الذى شهدت بربوبيته الفطر السليمة، وأقرت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة « قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ » ؟ (١).

« قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » ؟ (٢).

فلا عجب أن يكون لهذا الخالق المنعم حق العبادة والاستعانة به والابتهال إليه، والوقوف ببابه الكريم موقف الضراعة والتسليم والانقياد « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ » (٣).

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا

(١) المؤمنون : ٨٤ — ٨٩
(٢) يونس : ٣١ ، ٣٢
(٣) الأعلى : ١ — ٥

وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » (١) .

هذه العبادة إذن هى حق الربوبية على العبودية ، حق الخالق على الخلق ، حق الكريم الذى أحسن وأنعم على من أحسن إليه وأنعم عليه .

ألا إن من كنود الإنسان لربه ، وظلمه لنفسه ، أن يشكر للخلق ولا يشكر للخالق ، وأن يأسره إحسان من أحسن إليه من الناس ولا يأسره إحسان الله إليه ، وهو يغمره من قرنه إلى قدمه ، من يوم أن كان نطفة فعلقة فمضغة ، إلى ما شاء الله من أطوار الحياة ! واقرأ إن شئت قول الله تعالى : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٢) .

وظلم الإنسان وكفرانه هو الذى عجب منه ربنا فى الحديث القدسى : « إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيرى ! وأرزق ويشكر سواى ! خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىّ صاعد ! أتحبب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم ، فيتعرضون إلى بالمعاصى وهم أفقر شىء إلى » ! ! .

فالله الخالق المنعم هو المستحق للعبادة وحده ، أما من دون الله فلا يستحقون عبادة الإنسان وهم مثله مخلوقون مرزوقون مربوبون ! ! ولهذا قال

---

(١) البقرة : ٢١ ، ٢٢

(٢) إبراهيم : ٣٢ — ٣٤ .

ابن سيده فيما نقلناه فى أول الكتاب: «العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر... لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة — وهو الله — فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله».

وبهذا كله نعلم أن العبادة مطلوبة في الدين طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل. أعنى أنها فى الدرجة الأولى: امتثال لأمر الله ووفاء بحقه سبحانه. فهى مطلوبة لذاتها، قبل أى شيء آخر فى هذه الحياة.

* * *

• العبادة طلباً للثواب وخوفاً من العقاب:

هل يجوز أن يُعبد الله طمعاً فى ثوابه وخوفاً من عقابه؟ بعبارة أخرى: طلباً لجنته، وهرباً من ناره؟

لقد شنَّع الصوفية على من عبد الله بهذا القصد. وقالوا: لا ينبغى للعابد أن يعبد الله ويقوم بأمره ونهيه، خوفاً من عقابه أو طمعاً فى ثوابه. فإن مثل هذا العابد واقف مع غرضه وحظ نفسه، ومحبة الله حقاً تأبى ذلك وتنافيه. فإن المحب لا حظ له مع محبوبه، فوقوفه مع حظه علة فى محبته، كما أن طمعه فى الثواب تطلع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أجرة. وفى هذا آفتان: تطلعه إلى الأجرة، وإحسان ظنه بعمله. ولا يخلصه من ذلك إلا تجريد العبادة والقيام بالأمر والنهى من كل علة، بل يقوم به تعظيماً للآمر الناهى، وأنه أهل أن يُعبد وتُعظَّم حرماته. فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته. كما فى الأثر الإلهى: «لو لم أخلق جنة ولا ناراً. أما كنت أهلا أن أعبد»؟[1] ومنه قول القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله ... وجاحمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق ... ثناء العباد على المنعم؟

(١) ذكر ابن القيم فى المدارج: إنه أثر إسرائيلى.

فالنفوس الزكية العلية تعبده، لأنه أهل أن يُعبد، ويُجل ويُحب ويُعظم، فهو لذاته مستحق للعبادة. قالوا: ولا يكون العبد مع ربه، كأجير السوء: إن أُعطى أجره عمل، وإن لم يُعط لم يعمل. فهذا عبد الأجرة، لا عبد المحبة والإرادة.

ولهذا يروون عن رابعة الأبيات المشهورة:

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يدخلوا الجنان فيحظوا بنعيم ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلا

ومن علماء المسلمين من رد هذا الكلام. واعتبره من شطحات القوم ورعوناتهم، ولم ير أي حرج أو نقص في عبادة الله خوفاً وطمعاً، ورغباً ورهباً. واحتج هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين والصالحين، ودعائهم والثناء عليهم –في كتاب الله– بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة. كما قال تعالى في خواص عباده الذين عبدهم المشركون ودعوهم من دون الله أو مع الله: « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا »(1).

وذكر سبحانه عباده الذين شرفهم بالإضافة إلى اسمه «الرحمن» فسماهم «عباد الرحمن» وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، فجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » (2).

---

(1) الإسراء: ٥٧
(2) الفرقان ٦٥، ٦٦

وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فقال تعالى: « ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ » (١) فجعلوا أعظم وسائلهم إليه، وسيلة الإيمان، أن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته، ويتعوذون به من ناره، فقال تعالى: « إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم » ..الآية (٢).

ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله هو الجنة التي سألوها.

---

(١) آل عمران: ١٦ .

(٢) آل عمران: ١٩٠ ــ ١٩٥

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام : « وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ * وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ » (١) .

فسأله الله الجنة واستعاذ به من النار وهو الخزى يوم البعث .

وأخبرنا سبحانه عن الجنة : أنها كانت وعداً عليه مسئولا ، أى يسأله إياها عباده وأولياؤه .

وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أمته أن يسألوا له فى وقت الإجابة ــ عقيب الأذان ــ أعلى منزلة فى الجنة ، وأخبر أن من سألها له حلّت عليه شفاعته .

وقال له سليم الأنصارى : «أما إنى أسأل الله الجنة ، وأستعيذ به من النار ، لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ ! فقال صلى الله عليه وسلم : «أنا ومعاذ حولها ندندن» ! .

وفى الصحيح ، فى حديث الملائكة السيّارة : أن الله تعالى يسألهم عن عباده ــ وهو أعلم بهم ــ فيقولون : أتيناك من عند عبادك يهللونك ويكبرونك ويحمدونك ، و ويمجّدونك . فيقول عز وجل : وهل رأونى ؟ فيقولون : لا ، يارب ، ما رأوك . فيقول عز وجل : كيف لورأونى ؟ ! فيقولون : لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيداً . قالوا : يارب ، ويسألونك جنتك . فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا . وعزتك ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشد طلباً . قالوا : ويستغيثون بك من النار.

(١) الشعراء : ٨٢ ــ ٨٧

فيقول عز وجل : وهل رأوها ؟ ! فيقولون : لا ، وعزتك ما رأوها ! فيقول : فكيف لو رأوها ؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها هرباً . فيقول : إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعذتهم مما استعاذوا » .

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده ــ تعالى ــ وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها ، والاستعاذة من النار والخوف منها .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «استعيذوا بالله من النار» وقال لمن سأله مرافقته فى الجنة : «أعنّى على نفسك بكثرة السجود » .

قالوا : والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار ، مقصود الشارع من أمته ، ليكونا دائماً على ذكر منهم . فلا ينسونها . ولأن الإيمان بهما شرط فى النجاة . والعمل على خصول الجنة والنجاة من النار ، هو محض الإيمان .

وقد حض النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته على طلب الجنة ، فوصفها وجلاَّها لهم ليخطبوها . وقال : « ألا مشمّر للجنة ؟ فإنها ــ ورب الكعبة ــ نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وزوجة حسناء ، وفاكهة نضيجة ، وقصر مشيد ، ونهر مطرّد . » الحديث . فقال الصحابة : يا رسول الله .. نحن المشمرون لها . فقال : « قولوا : إن شاء الله » .

ولو ذهبنا نذكر ما فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة » تحريضاً على عمله لها ، وأن تكون هى الباعثة على العمل ، لطال ذلك جداً . وذلك فى جميع الأعمال.

فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولا ، والرسول صلى الله عليه وسلم يحرِّض عليه ؟ ! قالوا : وأيضاً ، فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته ، ويستعيذوا به من ناره ، فإنه يحب أن يُسئل . ومن لم يسأله يغضب عليه . وأعظم ما سئل « الجنة » وأعظم ما استعيذ به من « النار » .

قالوا : وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه، والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهىَ باعثه، وكلما كان أشد طلباً للجنة وعملا لها، كان الباعث له أقوى، والهمّة أشد، والسعى أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

قالوا : ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع، لما وصف الجنة للعباد، وزيَّنها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملاً، تشويقاً لهم إليها، وحثاً لهم على أن يسعوا لها سعيها (١)

على أن الإمام ابن القيم وقف موقفاً وسطاً بين الصوفية وبين من رد عليهم وخطّأهم من علماء الأمة فقال — بعد أن حكى قول أولئك ورد هؤلاء :

« والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه. والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون فى مسمى الجنة، فان الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة : التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه. وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً. فأيسر يسير من رضوانه، أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى : « وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ » (٢) وأتى به منكّراً فى سياق الإثبات، أى : أى شىء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يكفينى، ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفى الحديث الصحيح — حديث الرؤية — « فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه ». وفى حديث آخر : « إنه سبحانه إذا

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢ص ٧٥ — ٧٩، مطبعة السنه المحمدية.
(٢) التوبة : ٧٢

تجلى لهم، ورأوا وجهه عياناً، نسوا ما هم فيه من النعيم، وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه».

قال ابن القيم: ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجَلُّ مما يخطر بالبال، أو يدور فى الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعيّة المحبة، فإن المرء مع من أحب. فأى نعيم، وأى لذة، وأى قرة عين، وأى فوز، يدانى نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها؟

وهذا والله هو العلم الذى شمَّر إليه المحبون، واللواء الذى أمَّه العارفون، وهو روح مسمّى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يُعبد الله، طلباً لجنته، ولا خوفاً من ناره؟

وكذلك النار أعاذنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، والبعد عنه، أعظم من التهاب النار فى أجسامهم.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين هو: الجنة، ومهربهم: من النار» [1]. أ هـ

* * *

• هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس؟

وهناك دعوة خبيثة شريرة يروجها بعض الملحدين المستكبرين عن عبادة الله، فتجد هؤلاء يستغلون ما جاء به الدين نفسه من رد العبادة السطحية المرائية التى لا تنفذ إلى القلب، ولا تزكى النفس، ولا تنهى عن فحشاء أو منكر — يستغلون هذا ليقولوا: إن الغرض من الأديان وعقائدها وعباداتها إنما هو إصلاح النفس وتربية الضمير، واستقامة الخلق.. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة بأى وسيلة أخرى كالتهذيب النفسى المجرد، والتربية الأخلاقية المدنية، فلسنا بحاجة إلى العبادة والشعائر والصلوات والمناسك، فإنما هذه

(١) مدارج السالكين جـ٢ ص ٨٠ — ٨١

وسائل لا غايات. وقد انتهينا إلى الغاية التى يريدها الله منا، فما تشبثنا بالوسيلة وما حاجتنا إليها؟

هذه هى الدعوة الجاحدة الماكرة التى ذهب إليها بعض المتفلسفين قديماً وبعض المنحرفين حديثاً. وهى دعوة باطلة يراد بها باطل.

* * *

• صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقة وليس علة لها:

أما أنها دعوة باطلة، فلأن العبادة مطلوبة لذاتها، وغاية فى نفسها، بل هى ــ كما أوضح القرآن ــ مراد الله من خلق المكلفين إنساً وجناً، بل هى الغاية وراء خلق السموات والأرض «ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا» (١)

«وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (٢).

والمقصود الأول من العبادة ــ كما ذكرنا ــ هو أداء حق الله عز وجل.

والمقصود بالعبادة أن يعرف الإنسان نفسه فقيراً لا حول ولا قوة له إلا بربه، ولا اعتماد له إلا عليه، ولا قيام له بذاته، ويعرف ربه علياً كبيراً، غنياً عن العالمين «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ» (٣).

---

(١) الطلاق: ١٢
(٢) الذاريات: ٥٦
(٣) فاطر: ١٥ ــ ١٧

إظهار العبودية لرب العالمين، وامتثال أمره سبحانه فيما تَعَبَّد به خلقه هو علة العبادات كلها من صلاة وصيام، وزكاة وحج وتلاوة وذكر ودعاء واستغفار واتباع للشريعة، والتزام بأحكام الحلال والحرام. أما صلاح النفس وزكاة الضمير واستقامة الأخلاق، فهي ثمرة لازمة للعبادة الحقة؛ وليست علة غائية لها، لهذا قال تعالى: « ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١).

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٢) فالتعبير بـ« لعل » هنا التى تفيد الترجى ــ دون التعبير بلام التعليل أو « كى » ــ يفيد أن العبادة أو الصيام تجعلهم على رجاء التقوى وتعدهم لها.

وحتى لو ذكر التعليل صريحاً ما أفاد ذلك ترك العبادة إذا لم تؤد إلى التقوى، وإنما تفيد إعادة النظر فى العبادة وإحسانها حتى تؤتى أُكُلها من تقوى الله وخشيته. ولو فرضنا أن قلنا لفلاح: ازرع لتحصد، فزرع ولم يحصد الحصاد المرجو، لتقصيره فى بعض ما كان واجباً عليه أن يرعاه، لم يكن معنى ذلك أن نقول له: اترك الزرع والغرس. مع أنه مهنته التى لا وظيفة له غيرها. وكل ما يقال له: ابذل جهداً أكثر، ووف عملك حقه من الإتقان، لتحصل على ثمرة أفضل.

وهذا ما أجاب به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين ذكروا له قوماً يصلون ولكنهم يقومون بأمور لا تليق بمن يقيم الصلاة فقال لهم: إن صلاتهم ستنهاهم!!

ولو أن إنساناً صلى الصلوات الخمس أو صام رمضان مثلا ولم يقصد فى ذلك إلا تزكية نفسه، وتربية خلقه، دون الالتفات إلى حق الله عليه، والقيام بواجب العبودية له جل شأنه، ما كانت هذه الصلاة وذاك الصيام

(١) البقرة: ٢١ (٢) البقرة: ١٨٣

إلا عادة من العادات لا يؤبه لها فى ميزان الحق، ولا تحظى بذرة من القبول عند الله.

* * *

- **مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة :**

ذلك أن للعبادة — كما قال الإمام الشاطبى — مقصداً أصلياً ومقاصد تابعة، فالمقصد الأصلى فيها هو التوجه إلى الواحد المعبود، وإفراده بالقصد إليه فى كل حال: ويتبع ذلك قصد التعبد لنيل الدرجات فى الآخرة أو ليكون من أولياء الله تعالى وما أشبه ذلك. ومن المقاصد التابعة للعبادة صلاح النفس، واكتساب الفضيلة.

قال الشاطبى: «فالصلاة مثلا، أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه، بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له. قال تعالى «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ» (1) وقال: «إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ» (2)— يعنى أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله أكبر وأعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر، لأن ذكر الله هو المقصود الأصلى — وفى الحديث «إن المصلى يناجى ربه» (3)

« ثم إن لها مقاصد تابعة كالنهى عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا، كما فى الخبر: «أرحنا بها يا بلال» (4) وفى الصحيح: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» (5). وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة.. وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهى الفائدة العامة الخالصة، وكون المصلى فى خفارة الله. وفى الحديث «من صلى الصبح لم يزل

---

(1) طه : 14
(2) العنكبوت : 45
(3) رواه أحمد
(4) رواه الدرقطنى وأبو داوود
(5) رواه أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى وليس فى الصحيح.

في ذمة الله» (١). ونيل أشرف المنازل قال تعالى : «وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» (٢) فأعطى بقيام الليل المقام المحمود».

« وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهى العامة، وفوائد دنيوية، وهى كلها تابعة للفائدة الأصلية، وهى الانقياد والخضوع لله ».

ولا حرج على المؤمن أن يطلب بعبادته الفوائد الأخروية من الفوز بالجنة والنجاة من النار. فإن هذا داخل تحت معنى الرجاء فى مثوبة الله، والخشية من عذابه، وهو ضرب من العبودية لرب العالمين، والخوف والرجاء بهذا المعنى لا يقدح فى الإخلاص لله — كما بيناه من قبل.

أما الفوائد الدنيوية فلا يجوز أن تكون الباعث الوحيد للعبادة، سواء أكانت مادية أم معنوية.

وقد أنكر الراسخون من العلماء ما كان يشيع فى رحاب التصوف وبين بعض أتباعه ومريديه من التعبد بقصد تجريد النفس، وتصفيتها من الشواغل والعلائق، لتكون أهلا للاطلاع على عالم الأرواح ورؤية الملائكة، وخوارق العادات، ونيل الكرامات، والحصول على «العلم اللدنى» الموهوب من لدن الله.. وما أشبه ذلك.

أنكروا هذا وقالوا: إنه خروج عن طريق العبادة، وتخرص على علم الغيب، ويزيد بأن جعل عبادة الله وسيلة إلى ذلك، وهو أقرب إلى الانقطاع عن العبادة؛ لأن صاحب هذا القصد داخل —بوجه ما— تحت قوله تعالى: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا

(١) رواه مسلم.
(٢) الإسراء : ٧٩

وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ » (١). كذلك هذا ؛ إن وصل إلى ما طلب فرح به وصار قصده من التعبد، فقوى فى نفسه مقصوده وضعفت العبادة.

وإن لم يصل رمى بالعبادة، وربما كذَّب بنتائج الأعمال التى يهبها الله لعباده المخلصين. وقد روى أن بعض الناس سمع بحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (٢) فتعرض لذلك لينال الحكمة، فلم يفتح له بابها. فبلغت القصة بعض الفضلاء، فقال: هذا أخلص للحكمة ولم يخلص لله!

والخلاصة أن كل دعوة تغفل المقصد الأصلى فى العبادات وتهيل تراب النسيان عليه، وتشيد بالمقاصد الفرعية التابعة، وتسلط الأضواء عليها وحدها، هى دعوة باطلة؛ لأنها تضاد القصد الأول من العبادة، بل القصد الأول من الدين، بل القصد الأول من خلق الناس، بل من خلق السموات والأرض.

* * *

• استكبار عن عبادة الله:

وأما ما وراء هذه الدعوة من أغراض خبيثة؛ فإن أربابها يبطنون إلحاداً وكفراً واستكباراً على الله، واستنكافاً عن عبادته، ويخفون ذلك تحت ستار التحمس للأخلاق المجردة، والفضيلة الذاتية، كما يخفى السم الزعاف فى الحلو والدسم. فما أجدر هؤلاء بوعيد الله: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (٣) « وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

(١) الحج: ١١ (٢) ذكره رزين فى كتابه عن ابن عباس.
(٣) غافر: ٦٠

ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » (١) .

وما أجدر هؤلاء المتكبرين على الله أن يُحرموا من نور الهداية إلى الحق، واستبانة طريق الرشد، فإن الكبر يعمى ويصم، وصدق الله: « سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » (٢) .

إن لله تعالى ليس فى حاجة إلى عبادة أحد من خلقه ؛ فهو سبحانه غنى عن العالمين. وعبّاد الله ليسوا قليلين، فالكون كله يعبد الله بلغة نجهلها نحن البشر « تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (٣) وحسبنا من العقلاء العابدين الملائكةُ فى السموات السبع وفى كل مكان: « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » (٤) فأين موضع هؤلاء الذين حسبوا أنفسهم كبراء على عبادة الله ؟ « فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ » (٥) .

* * *

(١) النساء : ١٧٢ ، ١٧٣
(٢) الأعراف : ١٤٦
(٣) الإسراء : ٤٤
(٤) الأنبياء ١٩ ، ٢٠
(٥) فصلت : ٣٨

• صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق:

إننا لا ننكر أن للخُلُق والضمير مكانة أى مكانة فى الإسلام، وأن الخلق مقوم أصيل من مقومات الشخصية الإسلامية، وأن أبرز ماأثنى به الله على محمد رسوله صلى الله عليه وسلم: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (١) وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى بعض أحاديثه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٢)

لا ننكر شيئاً من هذا؛ وإنما الذى ننكره أن يقال: إن عبادة الله ما هى إلا أداة ــ مجرد أداة ــ لتربية ما أسموه الضمير. وليست هى الأداة الوحيدة؛ بل ليست الأداة المفضّلة فى نظر هؤلاء!

إننا ننكر أن يقوّم فضل إنسان فلا يجعل لعبادة الله وزن فى تقويمه وتقدير. وهذا ما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم وتنبأ به حين قال: «يأتى على الناس زمان يقال للرجل فيه: ما أظرفه! ما أعقله! ماأجلده! وما فى قلبه مثقال حبة من إيمان» (٣)

إننا نقرأ القرآن وهو يرسم صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فنجد العبادة أول مَعْلم واضح فيها. ففى سورة المؤمنون يقول سبحانه: «قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (٤).

---

(١) القلم: ٤
(٢) رواه الحاكم وصححه.
(٣) رواه البخارى.
(٤) المؤمنون ١ ــ ٩

فانظر كيف جعل أول أوصافهم الخشوع فى الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها ، ووصفهم بفعل الزكاة وهى عبادة ، مع الفضائل الخلقية الأخرى .

وفى سورة المعارج :

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » (١) .

فهنا أيضاً بدأ بالصلاة وختم بها . وأضاف إليها التصديق بيوم الدين . والإشفاق من عذاب الله . بجوار الصفات الخلقية الأخرى .

وقد يبرز القرآن أحياناً جانب العبادة ، وأحياناً جانب الأخلاق ، لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز . ففى سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة فى وصف المتقين « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا

---

(١) المعارج ١٩ — ٣٤

مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » (١).

وفى سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقى فى وصف أصحاب العقول : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ » (٢).

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية ــ لمناسبة أولى الألباب ــ مثل الوفاء والصلة والصبر والإنفاق.. لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرد أخلاق « مدنية » وإنما هى أخلاق « ربانية » أو « دينية ». أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى. فهم إنما يوفون « بعهد الله » وإنما يصلون «ما أمر الله به أن يوصل». وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم « يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » وهم إنما يصبرون « ابتغاء وجه ربهم » فهم فى كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر.

ومن أراد الإنصاف والإصلاح فلينهج نهج القرآن الحكيم؛ حيث ينظم العقائد والعبادات والأخلاق والأعمال الطيبة كلها فى سلك واحد ينتظم منه عقد جميل، هو صفات المؤمن البار التقى.

نجد ذلك فيما ذكرناه من آيات فى سور شتى. وفى غيرها من السور « لوحات » كثيرة تصور لنا المؤمنين الصادقين، نكتفى منها باثنتين.

---

(١) الذاريات : ١٦ ــ ١٩ (٢) الرعد : ١٩ ــ ٢٢

الأولى: قوله تعالى «لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» (١).

جمعت الآية لهم بين العقيدة التى تتجلى فى الإيمان بالله وما بعده وبين العمل الذى يتجلى فى إيتاء المال على حبه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الأخلاق التى تتجلى فى الوفاء والصبر.

والثانية: قوله تعالى: «وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا * وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا * وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا *

(١) البقرة: ١٧٧

يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا * وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا * وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا » [1] وهي باقة جمعت كل الأوصاف الطيبة، وأغنت عن كل تعليق.

* * *

• عبادة المؤمن لون من الأخلاق وأخلاقه لون من العبادة:

وخلاصة ما نقوله هنا: إن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم. وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس.

ومن أجل ذلك نجد القرآن يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الجمل: «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟» [2] «أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ» [3]، والصدق فضيلة خلقية خالصة، وإنما استحقوها — بل

(١) الفرقان: ٦٣ — ٧٥
(٢) البقرة: ١٧٧
(٣) الحجرات: ١٥

جعلت مقصورة عليهم — لأن أعلى مراتب الصدق، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين.

وإذا كانت العبادة عند المؤمن لوناً من الأخلاق المحمودة، فالأخلاق عنده لون من العبادة المفروضة.

فهى — كما ذكرنا — أخلاق ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء فى الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثوبته، فهو يصدق الحديث، ويؤدى الأمانة، ويفى بالعهد، ويصبر فى البأساء والضراء وحين البأس، ويغيث اللهيف، ويعين الضعيف، ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرعى الفضيلة فى سلوكه — كل ذلك ابتغاء وجه ربه، وطلباً لما عنده تعالى. وقد تلونا فى ذلك آيات من القرآن، ونكتفى هنا بما وصف الله به الأبرار من عباده من البذل والرحمة والإيثار، إذ قال: «وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» (١) ثم يكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم، وطوايا نفوسهم، فيقول معبراً عن لسانهم: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا» (٢).

ثم إن أخلاق المؤمن عبادة من ناحية أخرى، هى أن مقياسه فى الفضيلة والرذيلة، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع هو أمر الله ونهيه.

فالضمير وحده ليس بمعصوم، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال (٣).

---

(١) الانسان : ٨ (٢) الإنسان : ٩، ١٠

(٣) انظر بحث «خرافة الضمير بلا إيمان» فى كتابنا «الإيمان والحياة» ص ٢٥٦

والعقل وحده ليس بمأمون، لأنه محدود بالبيئة والظروف. ومتأثر بالأهواء والنزعات، وفى الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين فى مقياس الحكم الخلقى دليل واضح على ما نقول..

والعرف لا ثبات له ولا عموم، لأنه يتغير من جيل إلى جيل، وفى الجيل الواحد من بلد إلى بلد، وفى البلد الواحد من إقليم إلى إقليم.

لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذى لا يضل ولا ينسى، ولا يتأثر ولا يجور. وذلك هو حكم الله «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (1).

وخلاصة الخلاصة: أن المؤمن لا يعبد الله ليكون بذلك فاضلا، ولكنه يكون فاضلا ليعبد بذلك الله، وبينهما فارق لو يعلمون عظيم!

* * *

(1) المائدة : ٥٠

الإصلاح الإسلامي في مجال العبادة

- لا يُعبد إلا الله.
- تحرير العبادة من رق الكهنوت.
- إخلاص القلوب أساس القبول.
- لا يُعبد الله إلا بما شرع.
- التوازن بين الروحية والمادية.
- اليسر ورفع الحرج.

• **تمهيـــد :**

إن لعنة الجاهلية لم تدع شيئاً دون أن تصيبه بالعقم والفساد. أفسدت العقائد والأفكار، وأفسدت العبادات والشعائر، وأفسدت الأخلاق والآداب. وأفسدت النظم والتقاليد، وأفسدت الحياة كلها، ولم يبق شيء من دين الله المنزل على أنبيائه إلا ناله رذاذ من هذا الشر المستطير.

وحينما أراد الله أن يبعث خاتم رسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، كان في العالم ألوان من الشعائر والعبادات، بعضها بقايا أديان سماوية قديمة، وبعضها إضافات، وابتداعات أرضية جديدة، بعضها مسخت صورته ومعناه، وبعضها بقيت صورته وإن مسخ معناه، فلم يعد يوجه إلى مستحقه وهو الله وإنما يتوجه به العابدون إلى إلٰه أو آلهة أو سماسرة آلهة في الأرض أو في السماء!

أديان بالغت في الرسوم والشكليات ففقدت الروح والإخلاص. وأديان تحررت من كل رسم وشكل، ففقدت معنى التعبد والابتلاء.

أديان تشددت وتعنتت وتزمتت حتى لكأنها إصر وأغلال، وأخرى ترخصت وغلت في الترخص، حتى لكأنها لهو ولعب.

وجاء الإسلام، فلم يمل مع الغالين، ولم ينحرف إلى المقصرين، بل شرعه الله «**ديناً قيماً**» لا عوج فيه، ولا غلو ولا تقصير، بل كان كما خاطب الله رسوله: « قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ » (١).

أجل .. جاء الإسلام بعدة توجيهات ومبادىء إصلاحية كانت هى حجارة الأساس، التى يقوم عليها صرح العبادة الشعائرية فى الإسلام، ونحن نذكرها فيما يلى من الصحائف.

* * *

(١) الأنعام : ١٦١ — ١٦٤

١ ــ لا يُعْبَدُ إلا الله

● منذ أكثر من ألفى سنة قال المؤرخ اليونانى المشهور بلوتارك بعد فحص واستقراء: «من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار، ولا ملوك ولا ثروة، ولا آداب ولا مسارح. لكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا يمارس أهلها العبادة».

وما سجل التاريخ هذه الحقيقة إلا لأن الاتجاه إلى الخالق الأعلى مركوز فى الفطرة البشرية، نابع من أعماق النفس.. غير أن هذا الشعور الأصيل كثيراً ما أخطأ الطريق إلى معبوده الحق «الله جل جلاله» وجرفته تيارات الجهل أو الغفلة أو التضليل، فعبد غير الله، أو عبد معه آلهة شتى، أو عبده بغير ما شرعه ورضيه من صور التعبد.

ولذا كانت مهمة الرسل أن يوجهوا الفطرة وجهتها السليمة إلى الله، وأن يحفظوا ذلك الشعور الأصيل من الانحراف، حتى لا يعبد الإنسان إلا الله، ولا يشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعض المخلوقات أرباباً من دونه.

وفى الفترات التى طال فيها الأمد على دعوة الرسل فنسيت أو حرفت، ضل الناس وعبدوا أنواعاً من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها.

فهناك قوم عبدوا الشمس، كما حكى القرآن عن ملكة سبأ وقومها على لسان هدهد سليمان: « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » (١)

---

(١) النمل : ٢٤

ومنهم من عبد القمر والكواكب .. كقوم إبراهيم ومن بعدهم من الصابئة .

ومنهم من عبد النار كالمجوس ، الذين بنوا لها البيوت الكثيرة ، ووقفوا لها الأوقاف ، واتخذوا لها السدنة والحجاب ، فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة .

ومن عبادتهم لها : أن يحفروا لها أخدوداً مربعاً فى الأرض ويطوفون به . وهم أصناف مختلفة :

فمنهم من يحرم إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها ، وهم أكثر المجوس .

وطائفة أخرى منهم تبلغ بهم عبادتهم لها أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها ! !

وهناك طائفة عكس هؤلاء عبدوا الماء من دون الله وتسمى « الحلبانية » وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء ، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وطهارة وعمارة ، كان حقه أن يُعبد ! ! .

وهناك طوائف كثيرة عبدوا الحيوانات : فطائفة عبدت الخيل ، وطائفة عبدت البقر ــ كقدماء المصريين قديماً الذين عبدوا عجل أبيس ، وكالهندوس حتى اليوم ــ .

وهناك طائفة عبدت البشر الأحياء والأموات .

وطائفة عبدت الشجر ، وطائفة عبدت الجن كما قال تعالى : « بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ » (١) .

وهناك من عبد الأصنام والأوثان . وهذا داء قديم منذ عهد قوم نوح الذين اتخذوا من دون الله وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً . وقد روى

(١) سبأ : ٤١

ابن عباس أنها كانت في الأصل صوراً لبعض موتاهم الصالحين اتخذوها لتذكرهم بهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوها .

وفي بلاد كالهند ، قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس الميلادي ، وأصبح عدد الآلهة في هذا القرن ٣٣٠ مليون . وقد أصبح كل شيء رائع ، وكل شيء جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة ، إلٰهاً يعبده الناس ! وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلٰهات الحصر ، وأربت على العد (١) .

وكانت عبادة الأصنام قد انتشرت في ديار العرب قبل الإسلام انتشاراً ذريعاً . قال ابن اسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد رجل منهم سفراً تمسح به ، وإذا قدم من سفر تمسح به ، فيكون آخر عهده به وأول عهده به .

وقال أبو رجاء العطاردي : كنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به .

وكذلك قال عمرو بن عبسة : « كنت امرءاً ممن يعبد الحجارة ؛ فينزل الحي ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم ، فيأتي بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلٰهاً يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحس منه قبل أن يرتحل ، فيعتزله ويأخذ غيره » ! !

ترى أي هوان أصاب الإنسان وأي ضلال لحقه حتى ركب هذه الاضاليل ؟

ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعن بسيفه في وجوهها وعيونها ويقول : « جَآءَ ٱلْحَقُّ

---

(١) انظر : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبي الحسن الندوي ص ٣٧ ط ثانية .

وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا »(١) وهى تتساقط على رؤوسها ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت.

حتى القوم الذين كانوا قريبى العهد بالكتب السماوية والنبوات الهادية ـ وهو اليهود والنصارى ـ ضلوا طريق التوحيد ، وزحفت عليهم الوثنيات ، فأفسدت عليهم دينهم.

فاليهود فسد تصورهم للألوهية ، ونسبوا إلى الله مالا يجوز أن يُنسب إليه من صفات النقص ، فهو تعالى عما يقولون ـ يجهل ويندم ويتعب ويصارع ويُصرع إلى آخر ما فى أسفار العهد القديم.

والنصارى غزتهم الوثنية ، فتسرب دين المسيح من بين أيديهم ، كما يتسرب الماء من بين الأصابع ! والمؤسف حقاً أن ديانة المسيح الحقة لم تكد تعيش على سلامتها وتوحيدها إلا فترة قصيرة جداً ، ثم رزىء تاريخها برجلين حرفاها شر تحريف : أحداهما : رجل دين والثانى رجل مُلك.

فالأول : هو سانت « بولس » الذى طمس معالمها وأطفأ نور التوحيد فيها ، وطعمها بخرافات الجاهلية التى انتقل منها ، والوثنية التى تأثر بها.

والثانى : هو الملك قسطنطين الذى قضى على البقية الباقية ـ فقد جمع الأساقفة والبطارقة ليتناظروا ويخلصوا إلى عقيدة يتفقون عليها . وقد انتهوا إلى تلك العقيدة العجيبة(٢) : الإيمان بالله الواحد الأب ، وبالرب يسوع المسيح ابن الله ! إله حق من إله حق ! تجسد من روح القدس وصار إنساناً وحُمل به ثم ولد من مريم البتول ، وأُلِمَ وشُج وقُتل وصُلب ودُفن .. الخ.

وهكذا أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية.

والمهم أن القوم عبدوا المسيح الذى كان من أشد الناس عبادة لله ، واعترافاً بعبوديته لربه ! واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

---

(١) الإسراء : ٨١

(٢) التى اتخذها مجمعه نيقية سنة ٣٢٥م.

وأسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية ، كما يقول «سيل» ــ مترجم القرآن إلى الإنجليزية ــ عن نصارى القرن السادس .

* * *

• دعوة الإسلام إلى عبادة الله وحده :

ذلك هو الشرك الذى طم سيله فى الآفاق قبل الإسلام . وتلك هى الوثنية الجاهلية التى سادت العالم القديم ، فماذا كان موقف الإسلام من الشرك بكل مظاهره وأنواعه ؟

لقد جاء الإسلام يدعو إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة كل ما سواه ومن وسواه من الآلهة المزعومين ، والأرباب المزيفين ، سواء أكانوا من البشر أم من الجن أم أى عالم من عوالم المخلوقات العلوية والسفلية . إن روح الإسلام هو التوحيد ، توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، الذى هو إفراد الله بالعبادة ــ وأن عنوان الإسلام هو تلك الكلمة العظيمة التى هى أفضل ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله «لا إله إلا الله» إحدى كلمتى الشهادة فى الإسلام .

إن سر الإسلام ــ على سعة تعاليمه ــ يتجلى فى دستوره الخالد : القرآن الكريم ، وسر هذا الدستور يتركز فى فاتحته : أم القرآن والسبع المثانى . وسر هذه الفاتحة يتلخص فى هذه الآية الكريمة : **«إياك نعبد وإياك نستعين» :** أى لا نعبد شيئاً ولا أحداً غيرك ، ولا نستعين بكائن سواك .

إن أول وصية فى القرآن ، وأول مبدأ يبايع عليه الرسول كل من اعتنق دينه أن **«اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً»** .

وأول ما دعا إليه رسول الإسلام ملوك الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى : أن يُعبد الله وحده لا شريك له ، وأن تُطرح الآلهة والأرباب التى اتخذها الناس من دون الله ، فأذلوا أنفسهم لمن لا يستحق الذل والخضوع .

ومن هنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يختم رسائله إلى قيصر والنجاشي، وغيرهما من أصحاب الملك والإمارة بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: « قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » (١).

بل أكد القرآن ان هذه الدعوة هي دعوة الرسل جميعاً، فكلهم دعا قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت. وكل ما عُبِدَ من دون الله فهو طاغوت. فهما معبودان لا ثالث لهما: إما الله وإما الطاغوت. ومن استكبر عن عبادة الله سقط ـ حتماً ـ في عبادة الطاغوت.

قال تعالى: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ » (٢).

وقال سبحانه مخاطباً خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم: « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ » (٣).

شدّد الإسلام حملته على الشرك، وقعد له كل مرصد، وحاربه بكل سلاح، وقرر أنه الإثم العظيم، والضلال البعيد، والجرم الأكبر، والذنب الذي لا يغفر. « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا » (٤) « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ

---

(١) آل عمران: ٦٤ — (٢) النحل: ٣٦

(٣) الأنبياء: ٢٥ — (٤) النساء: ٤٨

أن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا »(١).

وفى الصحيح : «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار» (٢) «ومن لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار» (٣).

كل ذنب يمكن أن يغفره الله بفضله وكرمه، ويمكن أن يقبل فيه شفاعة الشافعين، إلا الإشراك بالله تعالى.

فى الحديث القدسى : «يا ابن آدم.. إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة »! (٤).

ففى هذه الآيات والأحاديث أن أهل التوحيد الخالص ــ الذى لا يشرك صاحبه بالله شيئاً ــ أى شىء ــ يُعفى لهم ما لا يُعفى لغيرهم؛ لأن التوحيد المحض يحرق الذنوب والخطايا وإن كانت مثل زبد البحر، كما أن الشرك يمحق الحسنات وإن كانت عدد الرمل.

لقد كان الإسلام على الحق ــ كل الحق ــ حين وقف موقفه الصارم من الشرك بكل أنواعه. وحرَّم ــ أشد التحريم ــ أن توجه العبادة إلى غير الله جل ثناؤه.

فالعبادة ــ كما قال ابن سيده ــ نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر... لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة، ألا وهو الله سبحانه. فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله. (٥).

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) رواه البخارى من حديث ابن مسعود

(٣) رواه مسلم من حديث جابر.

(٤) رواه الترمذى وحسنه من حديث أنس، ومسلم وأحمد بمعناه من حديث أبى ذر، والطبرانى من حديث أبى ذر.

(٥) المخصص جـ ١٣ ص ٩٦

وقال الإمام الرازى[1] :

إن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهى لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام. وأعظم وجوه الإنعام : الحياة التى تفيد المُكنة من الانتفاع، وإليها الإشارة بقوله تعالى : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا »[2] وقوله : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ »؟[3] الآية.
وخلق ما يتنفع به من الأشياء وإليها الإشارة بقوله تعالى : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا »[4] .

ومثله قوله سبحانه : « أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً »[5]. أ هـ
والحقيقة التى لا ريب فيها أن النعم التى تحيط بالإنسان فى كل أطوار حياته، وتغمره من قرنه إلى قدمه، إنما هى من عند الله. كما قال سبحانه : « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ »[6] .
يقول ابن القيم فى « شفاء العليل » :

« الرب تبارك اسمه، وتعالى جده ولا إله غيره — هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم. التى لا يحصيها أهل سماواته وأرضه.

فإيجادهم نعمة منه .. وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه .. واعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه .. وإدرار الأرزاق عليهم — على اختلاف أنواعها وأصنافها — نعمة منه .. وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته

---

(١) التفسير الكبير جـ ١ ص ٢٤٢ بتصرف .
(٢) مريم : ٩
(٣) البقرة : ٢٨
(٤) البقرة : ٢٩
(٥) لقمان : ٢٠
(٦) النحل : ٥٣

وأفعاله نعمة منه .. وإجراء ذكره على ألسنتهم ، ومحبته ومعرفته على قلوبهم ، نعمة منه .. وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه .. وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه .. وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم نعمة منه . وذكر نعمه تعالى على سبيل التفصيل لا سبيل إليه ولا قدرة للبشر عليه » .

فلهذا كان هو وحده الجدير بأن يُعبد ، ولا يُشرك معه أحد ولا شيء في الأرض أو في السماء .

لم يكن الإسلام متعنتاً ولا متزمتاً إذن ، حين قاوم الشرك إلى هذه الدرجة . فالشرك — في الحقيقة — هوان لا يليق بكرامة الإنسان . وأي هوان يصيب الإنسان أشد من هذا الشرك الذي يُسَخِّر الإنسان المُكرَّم للحيوان والجماد ، ويخيفه مما لا يخاف ، ويُرجيّه فيما لا يرجى ؟ !

ثم إن الشرك — فضلا عما فيه من انحطاط وقذارة وهوان بالإنسان — هو كذب على الحقيقة ، وتزوير على الواقع ، وصدق الله : إذ يقول : « فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ » (١) .

أعلن الإسلام الحرب على هذا الشرك الضال المضل بكل ألوانه وأصنافه ، ورفع من قيمة الإنسان ، وأعلن أنه المخلوق المكرَّم المفضل المستخلف لله في الأرض ، المصوَّر في أحسن صورة وأحسن تقويم .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » (٢) « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٣) « لَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) الحج : ٣١ — (٢) الإسراء : ٧٠

(٣) البقرة : ٣٠

ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » (١) « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » (٢) « عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (٣) « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » (٤) .

فكيف يسجد الإنسان لهذه المخلوقات وهى له مسخرة ، وفى مصلحته وخدمته مذللة ؟ وكيف يسجد لها وقد سجدت الملائكة بأمر الله تحية له واحتفاء به « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ » (٥) .

أعلن الإسلام أنه ليس فى العالم المخلوق شيء يستحق أن يسجد له الإنسان أو يتضرع إليه أو يرجوه أو يخشاه !

فالملائكة عباد لله خاشعون خاضعون « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » (٦) « لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٧) . « لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ » (٨) .

---

(١) التين : ٤
(٢) التغابن : ٣
(٣) العلق : ٥
(٤) الجاثية : ١٣
(٥) سورة ص : ٧١ – ٧٤
(٦) الانبياء : ١٩ ، ٢٠
(٧) التحريم : ٦
(٨) الانبياء : ٢٧ ، ٢٨

والبشر — وإن علا سلطانهم. أو عظم قدرهم، أنبياء كانوا أو سلاطين، هم أيضاً عباد لله، لا يملكون لأنفسهم، فضلا عن غيرهم. ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

والعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعاً «إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا» (١).

والشمس والقمر والنجوم إن هي إلا كواكب مسخرات بأمره تعالى. لا يجوز أن ينحني صلب من أجلها راكعاً، أو يخر وجه من أجلها ساجداً «وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (٢).

وكل ما يُدْعىٰ من دون الله في الأرض أو السماء، هو مخلوق عاجز لا قدرة له، محتاج لا قيام له بذاته، ضعيف لا يقوى على حماية نفسه ولا غيره «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ» (٣) «قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ

(١) مريم: ٩٣ — ٩٥
(٢) فصلت: ٣٧
(٣) الحج: ٧٣، ٧٤

ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » (١).

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » (٢) .

* * *

● **سد الذرائع المفضية إلى الشرك :**

وقد احتاط الإسلام كل الاحتياط ، فسدّ كل ذريعة **تُفضى** إلى الشرك أو مشابهة المشركين.

فنجد نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم يرفض فى شدة وصراحة كل مبالغة فى تعظيمه تظهره فى غير مظهر العبودية لله ، التى لا يفخر بغيرها . فيقول لأصحابه : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وقولوا : عبد الله ورسوله » متفق عليه .

وروى النسائى عن ابن عباس : أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت .. فقال : « أجعلتنى لله نداً ؟ ! قل : ما شاء الله وحده » .

وروى الطبرانى : أنه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يُستغاث بى وإنما يُستغاث بالله » .

وهكذا **علّمهم** النبى صلى الله عليه وسلم أن يعطوا كل ذى حق حقه . فالعبد عبد والرب رب .

---

(١) الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ (٢) الأعراف : ١٩٤

وروى النسائى عن أنس ـ بسند جيد ـ أن أناساً قالوا : يا رسول الله . . يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا ، وابن سيدنا ، فقال :«يا أيها الناس.قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » . وفى رواية أنه قال لهم : « السيد الله تبارك وتعالى » .

إن الجماهير دائماً تميل إلى الغلو فى تعظيم القادة ، بعضهم عن إخلاص . وبعضهم عن ملق . فكيف إذا كان القائد نبياً ؟ وكيف إذا كان سيد النبيين ؟ !

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لقّنهم درساً ألا يتجاوزا به حد العبودية : « أنا محمد عبد الله ورسوله » .

كما علمهم أن يعلنوا كل يوم تسع مرات ، فى الصلوات المفروضة ، فضلا عن السنن والنوافل كلما جلسوا للتشهد : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » (١) .

* * *

● **لا تتخذوا القبور مساجد :**

إن الغلو فى تعظيم الصالحين والقديسين فى حياتهم ، والتبرك بآثارهم وقبورهم بعد مماتهم ، هما أوسع أبواب الشرك بالله ، وقد سدّهما النبى صلى الله عليه وسلم سداً منيعاً . فلم يقر أحداً على الغلو فى تعظيمه حياً أو تعظيم قبره ميتاً ، بل دعا ربه فقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٢) .

وعن على بن الحسين ـ زين العابدين ـ رضى الله عنهما : أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.　　(٢) رواه مالك فى الموطأ.

صلى الله عليه وسلم ؟.. قال : «لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً فإن تسليمكم ليبلغنى أينما كنتم» (١)

وفى الصحيح عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ـ أو العبد الصالح ـ بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله».

فهؤلاء ـ كما قال العلماء ـ جمعوا بين فتنة القبور، وفتنة التماثيل

وروى الشيخان عنها: أن النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى اللحظات الأخيرة له يودع الدنيا ويستقبل الآخرة ـ كان يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خُشِى أن يُتخذ مسجداً.

وكل هذا احتياط من النبى صلى الله عليه وسلم لأمته، فالقليل يجر إلى الكثير، والصغير يدفع إلى الكبير، فربما تدرج بهم الأمر إلى تلك القبور فعظموها مع الله. وأصبحت شبيهة بالأصنام تبركاً وتمسحاً بها، وطوافاً حولها، وتقبيلا لجوانبها، والتماساً للبركات عندها أو منها، كما يفعل ذلك اليوم بعض الضالين من المسلمين، ويعتذر لهم بعض الخادعين أو المخدوعين.

وقد روى أهل العلم فى أصنام قوم نوح «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» أنها أسماء قوم صالحين، لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم!

وقد أنكر أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كل ما يُشْتَم منه رائحة التقديس لمكان أو شىء من مخلوقات الله، فعن المعرور بن سويد قال: صليت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى طريق مكة صلاة الصبح.. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل:

(١) رواه الضياء فى المختارة.

ياأميرالمؤمنين.. مسجد صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم فهم يصلون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا: كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة منكم فى هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها. وكذلك أرسل عمر رضى الله عنه أيضاً فقطع الشجرة التى بايع تحتها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما نهى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس أو عند زوالها أو عند غروبها، بعداً بالمسلم عن مظنة المشابهة لعبَّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هذه الأوقات.

* * *

• لا حلف إلا بالله:

ومما منعه النبى صلى الله عليه وسلم أن يحلف المسلم بغير الله تعالى. فالحلف تعظيم وتقديس للمحلوف به، ولا ينبغى أن يكون التعظيم والتقديس إلا للخالق جل وعلا. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله» (١) «من حلف بغير الله فقد أشرك» (٢) «لا تحلفوا بآبائكم» (٣). وكانوا يحلفون فيقولون: والكعبة، فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة (٤).

* * *

• لا ذبح ولا نذر إلا لله:

وحرَّم الإسلام على المسلم أن يذبح لغير الله فقال عليه الصلاة والسلام «لعن الله من ذبح لغير الله» (٥).

---

(١) رواه النسائى
(٢) رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه.
(٣) رواه ابن ماجه بسند حسن.
(٤) رواه النسائى وصححه.
(٥) رواه البخارى.

وقد جعل من الأطعمة المحرمة ما أُهِلَّ لغير الله به ــ أى رفع الصوت عند ذبحه باسم غير الله ــ وكذلك ما ذُبح على النُصب (1).

وهكذا حمى الإسلام جناب التوحيد، وسَدَّ منافذ الشرك.

* * *

● **أوثان جديدة يجب الحذر منها :**

ومن واجبنا ونحن نبين تحذير الإسلام من الشرك بكل صوره ــ أن ننبه على أوثان جديدة غزت عقيدة التوحيد الخالصة فى هذا العصر. إن بعض السطحيين من المتدينين أنفسهم يحصرون الشرك وعبادة غير الله فى صورة واحدة، هى الوثنية التقليدية التى تتمثل فى عبادة إله أو آلهة مجسمة أو منظورة، تُقدم الصلوات والقرابين إليها، وتُلتمس المنافع والبركات من بين يديها.

ونسى هؤلاء أن الشرك مراتب وأنواع، وأن الأصنام منها ما يُرى ومنها ما لا يُرى. وأن العبادة منها التقليدى وغير التقليدى.

من الشرك أكبر وأصغر، ومنه جلى وخفى. بل منه ما هو أخفى من دبيب النمل على الصفا.

ومن الأوثان ما يعبده الناس ويقدمون له الولاء، وإن لم يسموه وثناً أو إلهاً أو ربّا. ولم يسموا ما يقدمونه إليه عبادة. ولكن العبرة بالمقاصد لا بالألفاظ، وبالمسميات لا بالأسماء.

لهذا حذَّر الإسلام من الشرك كله : أكبره وأصغره، جليه وخفيه، وأغلق كل المنافذ التى تهب منها ريحه السموم، حماية لحمى التوحيد.

حتى رأينا النبى صلى الله عليه وسلم يعد الرياء شركاً..

ويعتبر القسم بغير الله شركاً..

---

(1) انظر : كتابنا «الحلال والحرام» : ص ٤٦ ــ ٤٨ ط. خامسة

وينكر على من قال له : ما شاء الله وشئت يا رسول الله ، فيقول له : «أجعلتني لله نداً ؟ ! قل : ما شاء الله وحده » .

و ينهى أن يقول المسلم : هذه لله وللرحم ، أو لوجه الله وفلان . فإن الله لا يقبل الشركة . وإنه لأغنى الأغنياء عن الشرك .

كما رأيناه — صلى الله عليه وسلم — يعد تقديس المقابر والأضرحة ضرباً من الوثنية . وهذا ما جعله يدعو ربه فيقول :«اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد » .

بل رأينا القرآن الكريم يلفتنا إلى « وثن » أو « إله » خطير، يتعبد له الملايين وهم لا يشعرون ، وذلك هو « الهوى » . «أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ . . » (١) « أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا »(٢) .

وفى عصرنا هذا ظهرت أوثان ومعبودات شتى ، أصبحت تمتلك قلوب الناس ومشاعرهم وولاءهم ، بذكرها يهتفون ، وباسمها يقسمون ، وفى سبيلها يجاهدون ويستشهدون . تلك هى أوثان الوطنية والقومية وما شاكلها .

تدخل المدارس والجامعات ، وتشهد المؤتمرات والندوات ، وتقرأ الصحف والمجلات ، وتسمع برامج الإذاعات ، فلا تكاد تسمع لله ذكراً . أو تجد له مكاناً . وإنما تجد معبوداً آخر، تدور حوله كل الأفكار، وكل المشاعر، وكل الأعمال ، إلا القليل ، أو أقل من القليل . إنه «الوطن » أو القومية — العروبة مثلاً — أو المجتمع أو الدولة أو غير ذلك من أصنام هذا العصر.

ومن السائد المنتشر الآن البداءة باسم الوطن أو الشعب ، وإن تكرم فباسم الله واسم الشعب ، والحلف باسم الوطن أو الشعب «أقسمت باسمك يا بلادى » والجهاد فى سبيل الوطن أو العروبة ، فإن قتل فهو شهيد الوطن أو العروبة ونحوها .

---

(١) الجاثية : ٢٣ (٢) الفرقان : ٤٣

وهذا هو أخطر أنواع الشرك التى دخلت على المسلمين من حيث لا يشعرون. وسجلها الدارسون الأيقاظ، بوصفها ظاهرة جديدة فى حياة المسلمين.

يقول الأستاذ برنارد لويس :

« كل باحث فى التاريخ الإسلامى يعرف قصة الإسلام الرائعة فى محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف انتصر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التى حلّت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية، وفى أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد « اللات » و « العزى » وبقية آلهة الجاهلية، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها : الدولة، والعنصر والقومية. وفى هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف الأصنام ! ! ! فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة « الذات الجماعية » كان أرسخ المظالم التى أوقعها الغرب على الشرق الأوسط، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكراً وإعلاناً (١).

* * *

(١) من كتاب الغرب والشرق الأوسط.

٢ ــ تحرير العبادة من رق الكهنوت

لقد أفسد الناس الأديان.. أنزلها الله لتسمو بهم فهبطوا هم بها! والعجب أن فسادها كان من رجال الأديان أنفسهم. لقد جعلوا من أنفسهم حجّاباً على باب الله الفسيح. مهمتهم أن يمنعوا الناس الاتصال المباشر به أو التقرب المباشر إليه، إنهم احتكروا لأنفسهم الصلة بالله والقرب منه. ووجدوها بضاعة رائجة وسلعة تشتد الحاجة إليها، فبالغوا فى احتكارها وإغلاء أسعارها.

ومن ثم قيّدوا العبادات بمكان معين ــ يدخل فى سلطتهم ــ لا تجوز إلا فيه، وقيّدوها بوسيط معين، يقوم بعملية السمسرة بين الله وعباده، وقيّدوها بمراسم وطقوس كهنوتية خاصة لا تُقبل بدونها.

وكل هذا يحتاج إلى إتاوات تبذل، وجعالات تدفع للأحبار والكهنة، المحتكرين لهذا الصنف من العلاقات!

● **رجال الكهنوت فى العصور الوسطى:**

وقد بالغ رجال الدين المسيحى بالغرب فى العصور الوسطى فى فرض هذه المظاهر الكهنوتية فعلقوا فى معابدهم رسوماً وتماثيل للعذراء والمسيح، وأيقونات ونحوها، وعدّتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس.

وكان أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدراً للثروة يبيعون منها قراريط وأسهماً لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلى قدرالمدفوع يكون عدد الأسهم. ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد أثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمر وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البابوات ولم يشتر منه الجنة، كما كان يفعل المسيحيون. ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هى جهنم! فباعها له بثمن بخس؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد، ولكن

اليهودى الماكر أعلن للمسيحيين جميعاً : ألاّ يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم ، لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم ، ولن يدخل أحداً فيها ! ! قالوا : فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به !

وكل قارىء للتاريخ يعرف ثورة « لوثر » على ما أسموه « صكوك الغفران » (١) .

والرؤساء الروحانيون فى المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع ، والغفران والحرمان ، والإدخال فى رحمة الله ، والطرد منها ، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه : « سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ماربطته على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السموات » (متى ١٦ : ١٩) .

* * *

● **تحرير العبادة من قيود المكان :**

أما الإسلام فكان له شأن آخر فى تقرير الصلة بالله والعبادة له .

لقد حرَّر الإسلام العبادة من قيود الوساطة والمكان وكل مظاهر العبودية للكهنوت .

فالأرض كلها محراب كبير للمسلم ، فحيثما توجه يستطيع أن يتجه بعبادته إلى الله ؛ وفى هذا يقول القرآن العظيم « وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ » (٢) ويقول الرسول الكريم فى بيان الخصائص التى أعطيتها

---

(١) الذين يتعمقون فى دراسة التاريخ يعلمون حق العلم أن حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا إنما يرجع الفضل فى إيجادها إلى أثر الإسلام وعقيدة التوحيد ، التى مست أوروبا نفحة منها عن طريق الصلات المختلفة فى السلم والحرب وقد كتب المرحوم الأستاذ أمين الخولى بحثاً فى « صلة الإسلام بالإصلاح فى المسيحية » .

(٢) البقرة : ١١٥

أمته ولم تعطها أمة قبلها : « وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » (١)

وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين ، حتى من رجال الأديان أنفسهم ، حتى قال أحدهم — وهو أسقف « لوفروا » : لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة ، ألا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم ؛ فإنك حيثما كنت سواء أوجدت فى شارع مطروق أم فى محطة سكة حديدية أم فى حقل — كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلاً ليس عليه أدنى مسحة للرياء ، ولا أقل شائبة من حب الظهور ، يذر عمله الذى يشغله كائناً ما كان ، وينطلق فى سكون وتواضع لأداء صلاته فى وقتها المعين » .

ولقد كان هذا المشهد الفريد فى الأديان أحد العوامل التى أثرت فى وجدان المحامى الكبير الأستاذ زكى عريبى عميد الطائفة اليهودية فى مصر والذى اهتدى إلى الإسلام فى عام ١٩٦٠ . ومما جاء فى محاضرته « لماذا أسلمت ؟ » قوله :

« وما سمعت المؤذن يؤذن فى الفجر أو فى الظهر أو فى أى وقت آخر إلا شعرت بأن صوت المؤذن الذى ينبعث من الأفق من فوق المئذنة ، شعرت بأنه صوت الله ، الذى يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام ، ويهدى الإنسان إلى الطريق المستقيم . وأركب السيارة فى السفر وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عينى على رجل متواضع يقف بين يدى الله فى ثياب رثة مهلهلة ، يقف على مصلى صغير ، مفروش بالرقيق من الحصير على شاطىء ترعة متواضعة أيضاً .. يقف الرجل يصلى لله فى خشوع وابتهال ، فكانت نفسى تهفو إلى أن أصلى مثل صلاته . كنت أعتقد أن هذه نفحات الله فى الأرض يلقيها فى نفوس عباده الصالحين » .

---

(١) رواه الشيخان .

حرَّر الإسلام العبادة من القيود المكانية المتزمتة، ولم يشترط المكان الخاص في عبادة من عباداته إلا في الحج، لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان، من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس، وفي أرض الذكريات الإبراهيمية، والذكريات المحمدية .. إلى آخر ما سنذكر في أسرار الحج.

* * *

● **تحرير الضمير من قيود الوساطة في العبادة :**

ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت. وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، وشأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

يقول الأستاذ العقاد[1]: إن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها، فهي أرفعها وأرقاها بالنظر إلى حقيقتها، أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك مزيته البينة التي يرعى بها استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام حياة.

فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة.

يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله.
ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله.

ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمعوزين.

ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة محراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفاً عندهم قبل ذلك. إنه

(١) حقائق الإسلام ص ١١٢.

الدين الذى نتعلم فيه أن الإنسان مخلوق مكلف. لا جرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية».

إن عقيدة المسلم فى الله لا تتيح مكاناً لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون فى ضمائر عباد الله.

فاعتقاد المسلم فى الله يقوم على حقيقتين:

ـ الله فوق عباده:

أولاهما: أنه تعالى فوق عباده علواً وقهراً، وسلطاناً وتصرفاً، لا يشبهه شىء، ولا يحكم عليه شىء، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد. «وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ» (١) «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ» (٢) «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ» (٣) والخلق جميعاً عبيد فى قبضته، لا يملكون لأنفسهم ــ فضلا عن غيرهم ــ ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ويتمثل هذا العلو الإلهى على الخلق فى آية من القرآن عرفت عند المسلمين بآية الكرسى: «ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا

---

(١) الانعام: ١٨. (٢) الشورى: ١١.

(٣) سورة الإخلاص.

بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ » (١).

ــ الله مع عباده :

والحقيقة الثانية : أنه تعالى ــ مع عظمته وعلو شأنه ــ قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، فى جلوتهم وفى خلوتهم، يسمع ويرى، ويرعى ويهدى، يعطى من سأله، ويجيب من دعاه، فهو تعالى قريب فى علوه، علىّ فى دنوه. وقد جمع تعالى بين العظمة والعلو، وبين القرب والدنو، فى آية واحدة، فقال تعالى : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٢) .

وقد عبّر القرآن على لسان إبراهيم ــ أبى الأنبياء ــ عن العلاقة بين الإنسان والله فقال : « ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ » (٣)

وقال الله سبحانه مبيناً قربه من عبده : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ

---

(١) البقرة : ٢٥٥.

(٢) الحديد : ٤.

(٣) الشعراء : ٧٨ ــ ٨٢.

مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » (١) « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » (٢) .

وروى المفسرون أن رجلاً جاء يسأل النبى صلى الله عليه وسلم : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزل القرآن يجيب عن هذا السؤال بهذه الآية الكريمة : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » (٣) .

ومن اللطائف فى هذه الآية : أن سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعض الأمور قد وقع فى القرآن بضع عشرة مرة ، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترناً بكلمة « قل » مثل « يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ » (٤) « وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ » (٥) وكان مقتضى تلك الآيات أن يقال فى هذه : وإذا سألك عبادى عنى فقل : إنى قريب ، ولكن أسلوب الآية خالف المعتاد ولم يأمر الله رسوله أن يقول للناس ذلك ، وقال سبحانه مباشرة « **فإنى قريب** » ولهذا الأسلوب دلالته وإيحاؤه فى الأنفس والعقول ؛ إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عباده ؛ كأنه قال لرسوله : لا تبلغهم أنت عنى ، كما تبلغ فى أسئلة الأحكام ، ولكن دعنى أنا أقول لهم : إنى قريب !

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه يجهرون بالدعاء قال لهم : « اربعوا على أنفسكم . إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً قريباً » (٦) .

* * *

---

(١) سورة ق : ١٦ .
(٢) الواقعة : ٨٥ .
(٣) البقرة : ١٨٦ .
(٤) البقرة : ١٨٩ .
(٥) البقرة : ٢١٩ .
(٦) رواه البخارى .

• لا مكان للوسطاء فى الإسلام :

وبهاتين الحقيقتين : أنه تعالى فوق عباده قهراً وعلواً وسلطاناً ، وأنه قريب منهم ، بل معهم ، علماً وإحاطة ، ورعاية وإجابة — يتبين لنا أن لا مكان فى الإسلام للوسطاء والسماسرة الذين يدعون الشفاعة عند الله ، ويزعمون احتكار الوساطة لديه ، ويبيعون ويشترون فى خلق الله ، كما يصنع أنصار الملوك الجبارين ، والرؤساء المستبدين .

نعم .. لا مكان لهؤلاء ، لأن الله فى عقيدة الإسلام أجَلّ وأعلى من أن يكون له وسطاء أو شفعاء يعلمونه من أمر الناس بما لم يكن يعلم ، أو يوجهون إراداته إلى ما لم يكن يريد ، وهو سبحانه أكرم من أن يدع رحمته وجنته غنيمة لهؤلاء الدجاجلة المضللين ، يوزعونها بالأسهم والقراريط ، فله وحده الخلق والأمر ، وله وحده المِلك والمُلك ، وله وحده العقوبة والعفو ، وقد قال تعالى رداً على من زعم أن الملائكة أبناء الله : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » (١).

وردّ علىٰ من زعم من اليهود والنصارى : أن لهم منزلة خاصة من الله « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٢٦ — ٢٨ (٢) المائدة : ١٨ .

وحكى عن المسيح أنه يقول لربه يوم القيامة فى شأن من ادعوا الانتساب إلى دينه: « إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١).

وعرّف خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم حدود وظيفته فقال: « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » (٢) « قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٣).

فهل بعد هذا يمكن أن يعتقد المسلم فى وجود « وسيط » يملك « التأثير » فى إرادة الله رب العالمين ؟!

ثم لا مكان لهؤلاء الوسطاء أيضاً، لأن المسلم لا يشعر يوماً بحاجته إلى أحد منهم فى الصلة بينه وبين ربه. إنه يوقن أن الله أقرب إليه من نفسه، وأنه معه حيث كان، وأنه يدنو منه كل ليلة فينادى: هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من كذا ؟ هل من كذا ؟ وأنه تعالى يحب التوّابين ويحب المتطهرين، وأنه تعالى إذا تقرّب عبده إليه شبراً تقرّب هو إليه ذراعاً، وإذا تقرّب إليه ذراعاً، تقرّب سبحانه إليه باعاً.

إنه يستطيع أن يكلم ربه بلا ترجمان. وأن يناجيه بما شاء حيث شاء ومتى شاء، وأن يقف بين يديه بلا حجاب.

فما حاجته إذن إلى ذلك الوسيط المزعوم ؟

(١) المائدة : ١١٨.   (٢) الغاشية : ٢١ ، ٢٢

(٣) الأعراف : ١٨٨.

إن الوسيط الفذ الذى يعترف به الإسلام هو العمل الصالح مع الإيمان:

«لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا »(١).

* * *

(١) النساء : ١٢٣، ١٢٤.

٣ ــ إخلاص القلوب أساس القبول

إن المبدأ الثالث الذى وضعه الإسلام فى شأن العبادة : أن أساس القبول لأى عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى. فإن حقيقة العبادة ليست شكلا يتعلق بالمظهر، ولا رسماً يتصل بالجسد. ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح، فإذا لم يصدق قلب المسلم فى عبادته. ولم يخلص لله فى طاعته، وأدّاها رسوماً خالية من الروح. كما ينطق الأبله بالألفاظ الخالية من المعنى. فهناك يردها الله عليه، كما يرد الصيرفى النقاد الدراهم الزائفة. قال تعالى : « وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ »(١) « إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ » (٢) « قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ » (٣) « قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي » (٤) .

وقد افترى بعض المبشربن والمستشرقين على الإسلام، فزعموا أنه لا يعنى إلا بالمراسم والأشكال فى العبادات، ولا يعنى بالقلب والنية والضمير، ورد هذه الفرية عليهم مستشرقون آخرون لم يسلم الإسلام منهم أيضاً.. بيد أنهم لم يسيغوا هذا الكذب الوقاح والجهل الصراح.

وقال جولد زيهر فى كتابه عن « العقيدة والشريعة فى الإسلام » :

« مما لا شك فيه أن الإسلام شريعة، فهو يخضع المؤمنين به لأعمال شعائرية. ومع ذلك.. فإن معين التعاليم الإسلامية الأولى ــ وهو القرآن ــ يعتبر صراحة : أن الأعمال بالنيات، ويعد النية معياراً للقيمة الدينية : ويرى أنه إذا لم تقترن دقة احترام الشريعة بأعمال رحمة وخير كانت قليلة القيمة .

(١) البينة : ٥.
(٢) الزمر : ٢.
(٣) الزمر : ١١
(٤) الزمر : ١٤.

« لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » (١) .

« وفيما يتعلق بشعائر الحج التى نظمها ، من بين تقاليد الوثنية العربية (٢) ـ استناداً إلى كلمة الله : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم » (٣) ـ جعل محمد أهمية كبرى لنية التقوى التى يجب أن تصحب هذه الشعيرة حين يقول : « لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ » (٤) .

والجزاء الأكبر للإخلاص ـ كما فى سورة غافر « فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » (٥) ولتقوى القلوب ـ كما فى سورة الحج « ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ » (٦) ـ وللقلب السليم ـ كما فى سورة الشعراء « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (٧) .

---

(١) البقرة : ١١٧ .

(٢) كذب المستشرق هنا ، فقد نفى الاسلام شعائر الحج من تقاليد الوثنية العربية ، وأبقى منها ما لم يمسه الشرك من بقايا ملة إبراهيم عليه السلام أول من أذّن فى الناس بالحج .

(٣) الحج : ٣٤

(٤) الحج : ٣٧ .

(٥) غافر : ١٤ .

(٦) الحج : ٣٢ .

(٧) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

فهذه هى وجهة النظر التى تسود فى تقدير الفضل الدينى للمؤمنين.

« وهذا الإقناع قد نما فيما بعد بفضل التعاليم المستخلصة من السنة، والتى ما لبثت أن شملت جميع نواحى الحياة الدينية. وبفضل نظرية النية والقصد والروح التى تلهم الأعمال. والتى اتُخذت معياراً لقيمة العمل الدينى، فمجرد ظل لباعث من بواعث الأثرة أو الرياء يُجرِّد كل عمل طيب من قيمته » ([1]).

فالقلب هو الأساس فى الإسلام، وهو موضع نظر الله تعالى، ومحل عنايته، وهو مستند القبول والفلاح فى الآخرة. وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم.. ولكن ينظر إلى قلوبكم » ([2]) « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » ([3]). ويقول القرآن: « وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ » ([4]).

* * *

- **العبادة المقبولة عند الله:**

ولهذا يرى الإسلام أن العبادة المرضية عند الله ليست هى ذلك الشبح الخالى من الروح، وإنما هى تلك التى تصاحبها النية الصادقة، ويسرى فيها روح الإخلاص سريان العصارة فى أغصان الشجرة الناضرة، فتؤتى فى النفس أكلها، وتثمر فى الخلق والسلوك ثمرتها. وتذكر صاحب العبادة بحق

(١) العقيدة والشريعة ص ٣٠، ٣١ ط. ثانية بتصرف قليل.

(٢) رواه مسلم. (٣) متفق عليه.

(٤) سورة ق: ٣١- ٣٤.

الله، وتنبهه على حقوق الناس. فليست كل صلاة جديرة بالقبول عند الله، فإن من الصلوات ما يُضرب بها وجه صاحبها، ومن هنا قال تعالى فى شأن الصلاة المقبولة: «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ» (١) فإن الصلاة — كما قال ابن تيمية — فيها دفع لشر مكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل لخير محبوب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه؛ فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه، فهو مقصود لغيره على سبيل التبع. فإن القلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب، كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل، ولذا قال تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا» (٢) «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ» (٣).

فإذا لم تؤد الصلاة مهمتها فى إيقاظ الضمير، وغرس خشية الله ومراقبته فى النفس، تلك التى تؤدى إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، فإن صلاته تلك تكون صلاة بتراء ناقصة، تكون جثة هامدة تنقصها الحياة وقد جاء فى بعض الآثار: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له».

وما قلناه فى الصلاة نقوله فى الصيام، فليس كل صيام يحظى بدرجة الرضا عند الله، ما لم يؤد إلى التقوى التى جعلها القرآن مرجوة بحصوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٤) فإذا لم يؤد إلى هذه التقوى، وصام بطنه وفرجه، ولم يصم لسانه ولا جوارحه ولا قلبه، فحرى بصيامه أن يُرَد وأن

(١) العنكبوت: ٤٥
(٢) الشمس: ٩، ١٠
(٣) الأعلى: ١٤، ١٥
(٤) البقرة: ١٨٣

يكون عملة زائفة، وأن ينطبق عليه ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: «من لم يدَعْ قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يَدَعَ طعامه وشرابه» (١) وقال عليه السلام: «رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر» (٢).

ومن أجل ذلك كله كان السلف الصالحون من المسلمين يهتمون بالصوم عن اللغو والحرام، كما يصومون عن الشراب والطعام.

قال عمر: «ليس الصيام من الشراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو» وروى عن عليٍّ مثله..

وعن جابر قال: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك. ولا تجعل يوم فطرك ويوم صومك سواء».

وقال ميمون بن مِهران: أهون الصيام الصيام عن الطعام.

وكذلك الزكاة والصدقة، إذا داخلها رياء، أو لحقها منّ أو أذى للفقير، فإن ذلك يفسدها ويحبط ثوابها. فليس المهم هو المال الذى تعطيه اليد الغنية لليد المستحقة، وإنما المهم هو صدق النية، وصفاء السريرة، وإخلاص القلب. وقد قال ابن عطاء: الأعمال صور قائمة وروحها هو وجود سر الإخلاص فيها.

وإننا لنجد هذا المعنى واضحاً فى هذه الآيات الكريمة من كتاب الله:

«قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم.

صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۞ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (١) .

وليس بعد هذا التصوير القرآنى بيان فيا للإخلاص من أثر فى قبول الصدقة أو ردّها .

* * *

- بركة النية الصالحة :

وقد قص علينا النبى صلى الله عليه وسلم قصة رجل مخلص أراد أن يتستر بصدقته ، ويعطيها تحت ستار الليل ، حيث يكون فى مأمن من رياء الخلق ، وابتغاء المحمدة والشهرة عند الناس ، ولكنه أخطأ السبيل ، فوضعها فى غير موضعها وأعطاها من لا يستحقها ، ولكن صدق نيته وإخلاصه نفعه ، وبارك عمله ، فلم تذهب صدقته سدى ، ولم تضع هباء . فقد روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ! فقال : اللهم لك الحمد .. على سارق ؟ ! لأتصدقن بصدقة .. فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ! ! فقال : اللهم لك الحمد .. على زانية ؟ ! لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ! ! فقال : اللهم لك الحمد .. على سارق وزانية وغنى ؟ ! . فأُتى — أى

(١) البقرة : ٢٦٣ ـ ٢٦٥

فى المنام ــ فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله » .

وبهذا القصص كان يعلمهم النبى الكريم أن الإخلاص هو ينبوع الخير، وميزان القبول .

* * *

● إنما الأعمال بالنيات :

وما قلناه هنا عن الصلاة والصيام والصدقة يقال عن الحج وتلاوة القرآن ، والجهاد ، والهجرة من أجل الدين ، وكل عمل شرعه الله ليُتعبد به ويُتقرب إليه . وقد هاجر بعض المسلمين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها تعرف بأم قيس ، فسماه من يعرفونه « مهاجر أم قيس » (١) .

وفى هذا الشأن حدثهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الحديث الجامع الذى عدّه بعض المحدثين ربع الإسلام أو ثلثه أو نصفه (٢) ، والذى افتتح به الإمام البخارى جامعه الصحيح « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل

---

(١) روى سعيد بن منصور فى سننه عن ابن مسعود قال : « من هاجر يبتغى شيئاً فإنما له ذلك . هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس » ! رواه الطبرانى بإسناد صحيح قال : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها : أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه مهاجر أم قيس . فتح البارى جـ١ .

(٢) قال الحافظ فى الفتح : قد تواتر النقل عند الأئمة فى تعظيم قدر هذا الحديث ، قال أبوعبد الله : ليس فى أخبار النبى صلى الله عليه وسلم شىء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث . واتفق عبد الرحمن بن مهدى والشافعى ــ فيما نقله البوطى عنه ــ وأحمد بن حنبل وعلى بن المدينى ، وأبو داود والترمذى والدارقطنى وحمزة والكتانى على أنه ثلث الإسلام ، ومنهم من قال : ربعه . قال ابن مهدى : يدخل فى ثلاثين باباً من العلم . وقال : ينبغى أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب . وقال الشافعى : يدخل فى ستين باباً .

امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

والعجيب أن بعض المستشرقين يشكك في ثبوت هذا الحديث ــ الذى أجمع علماء الإسلام فى كل اختصاص علىّ تلقيه بالقبول ــ بدعوى أنه حديث آحاد(١).

ونسى المستشرق أن قيمة «النية» فى الإسلام لا تعتمد على هذا الحديث وحده(٢)، وإنما تعتمد على نصوص وأحاديث كثيرة مستفيضة، تعطى فى مجموعها يقيناً جازماً بأن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرىء ما نوى. ولو أخذنا كتاباً كالترغيب والترهيب للحافظ المنذرى مثلا لوجدناه يذكر فى فضل النية الصالحة أحد عشر حديثاً، وفى الترغيب فى الإخلاص ثلاثة عشر حديثاً، وفى الترهيب من الرياء أكثر من ثلاثين.

فهذا المجموع من الأحاديث وما شابهها، مع ما جاء فى القرآن من آيات هو السند اليقين لقيمة النية فى الإسلام.

* * *

---

(١) يبدو أن المستشرق استغل ما قاله علماء السنة من أن الحديث لم تصح روايته عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من طريق عمر، ولا عن عمر إلا من طريق علقمة بن وقاص الليثى، ولا عن طريق علقمة إلا عن طريق محمد بن إبراهيم التيمى، ولا عن محمد إلا عن طريق يحيى بن سعيد الأنصارى وعن يحيى رواه نحو مائتين أو أكثر حتى قيل سبعمائة كما فى الفتح.

(٢) قال ابن حجر فى الفتح: ورد فى معناه عدة أحاديث صحت فى مطلق النية، كحديث عائشة وأم سلمة عند مسلم «يبعثون على نياتهم» وحديث ابن عباس «ولكن جهاد ونية» وحديث أبى موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» متفق عليها. وحديث ابن مسعود «رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» أخرجه أحمد، وحديث عبادة «من غزا وهو لا ينوى إلا عقالا فله ما نوى» أخرجه النسائى.. إلى غير ذلك مما يتعسر حصره.

٤ ـ لا يُعبَدُ الله إلاّ بمَا شَرَع

المبدأ الرابع الذى دعا إليه الإسلام : أن يتبع المسلم فى عباداته الحدود المرسومة له ، فليس يكفى أن يقصد بالعبادة وجه الله وحده ، ولا يتوجه به إلى أحد أو شىء غيره ، بل لابد أن تكون عبادة الله بالصورة التى شرعها الله ، وبالكيفية التى ارتضاها ، ولا تكون عبادته بما يخترع الناس من أهواء وظنون. قال تعالى : « فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا » (١) « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢) « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ » (٣).

فالآية الأولى تأمر بالعمل الصالح مع النهى عن الإشراك بالله ، والآيتان الأخريان تشترطان الإحسان مع إسلام الوجه لله سبحانه. فمن أسلم وجهه لله ولم يشرك بعبادة ربه أحداً فقد أخلص الدين لله وحده ، ولكن ذلك لا يكفى ما لم يفعل ذلك « **وهو محسن** » وما لم يعمل « **عملا صالحاً** » والإحسان والعمل الصالح أن يتقرب لله بما شرعه الله لا بما وضعه الناس. وقد كان عمر بن الخطاب يقول : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » وقال الفضيل بن عياض فى

---

(١) الكهف : ١١٠ (٢) البقرة : ١١٢

(٣) النساء : ١٢٥

قوله تعالى: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (١) مفسراً معنى أحسن العمل قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: «يا أبا على.. ما أخلصه وما أصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، ولا يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة» يعنى الطريقة المشروعة المرضية عند الله ورسوله.

لقد عدّ الإسلام من الشرك أن يُشَرِّع الناس من الدين ما لم يأذن به الله. ومن البدع المردودة الزيادة فى العبادات المرسومة أو النقص منها أو التحريف فيها. وقد قال عليه الصلاة والسلام فى شأن الصلاة: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» (٢)

وقال فى الحج: «خذوا عنى مناسككم» (٣).

وحذّر من كل ابتداع فى شئون العبادة والدين: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» (٤) «من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد» (٥) «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» (٦)

فليس لإمام من أئمة المسلمين وإن علا كعبه فى العلم، ولا لمجمع من مجامع المعرفة وإن عظم شأنه، ولا لمعهد من معاهد الثقافة، ولا لطائفة من المسلمين صغرت أو كبرت، أن تبتدع فى دين الله عبادة جديدة، أو تزيد على عبادة قديمة، أو تغير فى كيفيتها عما كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الله وحده هو المشرِّع، والرسول هو المبلِّغ، ونحن المتبعون، وفى

(١) وردت فى سورة هود: ٧، والكهف: ٧، والملك: ٢.

(٢) رواه البخارى. (٣) رواه النسائى.

(٤ — ٥ — ٦) رواها مسلم وغيره.

الاتباع الخير كل الخير «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (١).

قال الإمام ابن تيمية :

« جماع الدين أصلان : أولا : ألا نعبد إلا الله ، ثانياً : ولا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بالبدع . كما قال تعالى « فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا » (٢) .

وذلك تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله .

ففي الأولى : أن لا نعبد إلا الله .

وفي الثانية : أن محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو رسوله المبلغ عنه ، فعلينا أن نصدق خبره ، ونطيع أمره .

وقد بيّن لنا ما نعبد الله به ، ونهانا عن محدثات الأمور ، وأخبر أنها ضلالة .

قال تعالى : « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٣) .

وكما أننا مأمورون ألا نخاف إلا الله ، ولا نتوكل إلا على الله ، ولا نرغب إلا إلى الله ، ولا نستعين إلا بالله ، وألا تكون عبادتنا إلا لله ــ فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ونطيعه ،

---

(١) آل عمران : ٣١ (٢) الكهف : ١١٠ .

(٣) البقرة : ١١٢ وقد تضمنت الآية : اسلام الوجه لله وهو معنى الأصل الأول هنا . والإحسان وهو معنى الأصل الثاني في كلام ابن تيمية .

ونتأسى به، فالحلال ما حللَّه، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه..» (١).

* * *

• حكمة تشديد الإسلام فى منع البدع :

ولقد كان الإسلام حكيماً غاية الحكمة حين حرَّم ــ أشد التحريم ــ على البشر أن يُشرِّعوا فى الدين ما لم يأذن به الله، وأن يبتدعوا صوراً للتقرب إلى الله لم يجىء بها وحيه المعصوم، حتى أعلن فى صراحة قاطعة: أن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

والذى يقرأ تاريخ الأديان يرى الحكمة فى هذا التشديد ماثلة للعيان، واضحة وضوح الصبح لذى عينين.

• كيف أفسد الابتداع الأديان كلها؟

إن الابتداع فى الدين هو الكوة التى تسلَّل منها الشيطان إلى عامة المتدينين من أتباع الملل، فأفسد عليهم دينهم وحياتهم، وخرَّب عليهم عقائدهم وعباداتهم، ولم يدع فى حياتهم الدينية دعامة إلا أتى عليها من القواعد.. وفتح عليهم أبواباً من الفساد لم يستطيعوا بعد إغلاقها.

عن طريق الابتداع زحف الشرك ودخلت الوثنية على الأمم، حتى الكتابية منها. فأشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطاناً، وعبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، قائلين: هؤلاء شفعاؤنا عند الله!

وعن طريق الابتداع جاء الغلو فى الدين والتنطع فيه، وإدخال الحرج والعنت والآصار والأغلال على أتباعه، واخترع الناس ألواناً شتى من الشعائر والتعبدات، كلها عنت وإرهاق، وتكليف ما لا يكاد يُطاق.

---

(١) العبودية ص ١٧٠، ١٧١

وعن طريق الابتداع حرَّم الغلاة ما أحل الله من الزينة والطيبات، فأهملوا الدنيا باسم الدين، وخرَّبوا العمران بدعوى الإيمان، وعذَّبوا الأجسام بزعم تصفية الأرواح!

وعن طريق الابتداع حدثت التحريفات الهائلة، والانحرافات الشنيعة فى كثير من الأديان، وقع فيها رجال ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ويكفى أن نتأمل ما ابتدعه النصارى من نظام «الرهبانية» وما فيه من غلو وعتو وقسوة على الطبيعة، وشرود عن الفطرة، لنعلم كيف ينحرف العقل البشرى إذا مشى وحده، ولم يعتصم بحبل الله، ولم يستضىء بنوره وهداه. وكيف يجور ويعتسف، ويرتكب أكبر الحماقات والجهالات، مع أن قصده ونيته — فيما يحسب — التقرب إلى الله تعالى[1]؟!

وكذلك نرى مشركى العرب كيف اتخذوا الأوثان وعبدوا الأحجار والأصنام، لتقربهم إلى الله زلفى، فأساس الشرك فى الحقيقة هو الابتداع.

وكيف سوّلت لهم شياطينهم تحريم ما أحَلَّ الله من طيبات الحرث والأنعام؟ بل كيف زينوا لهم ذبح أولادهم وفلذات أكبادهم، تقرباً إلى الآلهة فيما زعموا، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم!

وكيف طوّعت لهم أنفسهم أن يطوفوا بالبيت عراة، كما ولدتهم أمهاتهم، رجالاً ونساء، لا يستحيون ولا يتحرجون. وكيف هم بعملهم هذا — فى زعمهم — إلى الله يتقربون؟!

تقرأ فى سورة الأنعام نماذج من هذه المبتدعات والتحريمات.. فى قول الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ

(١) اقرأ نماذج من الغلو فيما سنذكره فى مبدأ « التوازن بين المادية والروحية »

عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ » (١) .

* * *

• مجال الابتداع ليس هو الدين :

إن مجال الابتداع والابتكار ليس هو الدين ؛ فالدين توقيف من الله يجب أن يبقى مصوناً منزهاً عن عبث العابثين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما مجال الابتداع الحقيقى ، فهو الدنيا وشئونها ، وما أوسعها وما أكثر ما تحتاج إليه من طاقات الافتنان والابتكار. ولهذا حين انتكس المسلمون وساءت حالهم ، وفسد أمرهم ، وانحل مجتمعهم ، أصبح الأمر الطبعى عندهم معكوساً والوضع مقلوباً . فوقفوا فى شئون الدنيا جامدين كالحجارة أو أشد جموداً ، لا يبتكرون ولا يخترعون ولا يكتشفون ، شعارهم : ما ترك الأول للآخر شيئاً ! !

وأما فى الدين فاخترعوا وابتدعوا من صور التعبد ما لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطاناً .

* * *

• أثر تحريم البدع فى الإسلام :

وتحريم الإسلام الابتداع فى العبادة ، وتشديده فى الأمر باتباع ما جاء به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد حفظ على المسلمين عباداتهم ، وصانها من التحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان . .

(١) الأنعام : ١٣٧ ــ ١٤٠

فالعبادات الإسلامية واحدة فى جوهرها فى كل مذهب من مذاهب الإسلام: الصلاة عند جميع المسلمين منذ عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى اليوم: عند السنيين والشيعة هى هذه الأقوال والأعمال المخصوصة، المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، خمس صلوات فى اليوم والليلة. فى كل صلاة عدد معين من الركعات، وفى كل ركعة تلاوة وأذكار وركوع وسجودان عند الجميع، ولكل صلاة شروط متفق عليها من الطهارة وأخذ الزينة، واستقبال القبلة.. وهكذا.

والصوم عند جميع المسلمين يتمثل فى هذا الشهر العربى ـ رمضان ـ ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين يوماً، يبدأ كل يوم من طلوع الفجر وينتهى عند غروب الشمس.

وهكذا الزكاة والحج كلها عبادات محددة معروفة بتفاصيلها، منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواتر القاطع جيلا عن جيل.

وهذه ميزة لعبادات الإسلام لم يظفر بها دين من الأديان، فكل العبادات فى شتى الديانات قد عدت عليها الأيام، وخضعت لتحريف السدنة، وألاعيب الكهنة، وغلو العامة، ولم تجد من يقول للمبتدعين: قفوا عند حدود الله، ولا تشرّعوا ما لم يأذن به الله.

وهل يستطيع أحد أن ينكر على الكاهن إذا ابتدع أو غيّر، وفى يديه مفاتيح الجنة وملكوت السماء؟ إنه يستطيع أن يطرد من رحمة الله من شاء، ويدخل فيها من شاء، ويبيع من قراريط الجنة ما يشاء!!

أما الإسلام فقد نفى من أول الأمر فكرة الكهنوت واحتكار أسرار الملكوت، وجعل أمر العبادة فى أيدى المسلمين جميعاً، وفرضهم حراساً عليها، وأوصاهم أن يتبعوا ولا يبتدعوا، وأن يأخذوا على يد كل مبتدع محرِّف كائناً من كان.

وإذا أخذنا الشريعة المسيحية مثلاً وجدناها قد تغيرت وتناسخت على يد المسيحيين أنفسهم، وخرجوا على الناموس الذى أعلن المسيح : أنه جاء ليتمه لا لينقضه.

فقد استحلّوا الخنزير وأحلُّوا السبت، وعوّضوا منه يوم الأحد، وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة، وكان المسيح يصلى إلى بيت المقدس، فصلُّوا هم إلى المشرق. ولم يعظِّم المسيح صليباً قط فعظموا هم الصليب وعبدوه. ولم يصم المسيح عليه السلام صومهم هذا أبداً ولا شرعه، ولا أمر به البتة، بل هم وضعوه على هذا العدد، ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضاً عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية. وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام فى غاية الطهارة والطيب والنظافة. وأبعد الخلق عن النجاسة، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم، فغيروا دين المسيح وتقربوا إلى الفلاسفة وعباد الأصنام، بأن وافقوهم فى بعض الأمر ليرضوهم، وليستنصروا بذلك على اليهود (١).

فهذه هى المسيحية، وذلك هو الإسلام.

نعم.. إن بعض المسلمين فى بعض الأزمنة قد ابتدعوا فى دينهم ما لم يجىء به كتاب ولا سنة، ولكنهم وجدوا فى كل عصر من يجهر فيهم بالحق، ويردهم إلى سواء الصراط، ويحيى فيهم السنة ويطارد البدعة، تصديقاً لوعد الله الذى وعد به هذه الأمة الخاتمة على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال : «إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة من يُجَدِّد لها دينها» (٢).

على أن الذى امتاز به الإسلام بلا ريب أن شعائره وعباداته الأصلية بقيت سليمة فى جوهرها، مصونة من التحريف والتبديل.

قال أبو بكر : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به. إنى أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ. وقد

---

(١) من «إغاثة اللهفان» لابن القيم جـ ٢ ص ٢٧٠.

(٢) رواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقى فى المعرفة عن ابى هريرة وقال العراقى وغيره : سنده صحيح، ورمز له السيوطى بعلامة الصحة. وانظر : فيض القدير للمناوى.

خطب عمر بن الخطاب الناس فقال: أيها الناس.. قد سُنّت لكم السنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُركتم على الواضحة، إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالا.

وقال ابن مسعود: أيها الناس.. لا تبتدعوا ولا تنطعوا ولا تعمقوا وعليكم بالعتيق -المأثور الموروث- خذوا ما تعرفون، ودعوا ما تنكرون.

وعن الحسن فى قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» (١) قال: كتب الله صيام رمضان على من كان قبلكم، فأما اليهود فرفضوه، وأما النصارى فشق عليهم الصوم، فزادوا فيه عشراً وأخروه إلى أخف ما يكون عليهم فيه الصوم من الأزمنة.. فكان الحسن إذا حدّث بهذا الحديث قال: عمل قليل فى سُنة -اتباع المأثور- خير من كثير فى بدعة.

ولما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس.. إنه ليس بعد نبيكم نبى، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنة، ولا بعد أمتكم أمة. ألا وإن الحلال ما أحلّ الله فى كتابه على لسان نبيه، حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرّم الله فى كتابه على لسان نبيه، حرام إلى يوم القيامة. ألا وإنى لست بمبتدع ولكنى متبع، ألا وإنى لست بقاض -يعنى لست بمشرع- ولكنى منفذ».

فهذا هو موقف الخلفاء والحكام فى الإسلام: متبعون فى الدين لا مبتدعون؛ ومنفذون للشرع لا مشرِّعون.

وقد وقف أئمة الإسلام فى وجه كل بدعة يراد لها أن تظهر فى عبادة الناس لله، حتى وإن بدت صغيرة فى عين الرائى، ولكن الصغير يجر إلى الكبير، ومعظم النار من مستصغر الشرر (٢).

---

(١) البقرة: ١٨٣

(٢) ألفت كتب عديدة قديماً وحديثاً فى الإنكار على البدع المحدثة فى الدين، منها: الحوادث والبدع للطرطوشى، والاعتصام للشاطبى، والإبداع للشيخ على محفوظ، وليس من الإسلام للشيخ محمد الغزالى.

جاء رجل إلى الإمام مالك وهو بالمدينة وقال له: يا أبا عبد الله.. من أين أُحْرِم؟ قال: من ذى الحليفة ـ مكان إحرام أهل المدينة ـ من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إنى أريد أن أحرم من المسجد! فقال: لا تفعل. قال: إنى أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر ـ قبر النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال: لا تفعل، فإنى أخشى عليك الفتنة! قال: وأى فتنة فى هذا، وإنما هى أميال أزيدها؟! قال: وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! إنى سمعت الله يقول: « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١).

فمع أن الرجل كان يريد الإحرام من أشرف البقاع فى المدينة، وهو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وموضع قبره، وأنه يزيد ولا ينقص، حيث يُحْرِم من موضع أبعد من الميقات المحدد ـ خشى عليه الإمام مالك الفتنة فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة، لما يحمل عمله فى ثناياه من تفضيل لنفسه ونسبة النقص إلى عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الإمام مالك أيضاً: من أحدث فى هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خان الدين، لأن الله يقول: « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » (٢) فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً »!!

فإذا كان الدين قد أكمله الله وأتم به النعمة، فلا مجال فيه لإحداث زيادة، لأن الكامل لا يقبل الزيادة، ومحاولة الزيادة عليه اتهام له بعدم الكمال.

* * *

---

(١) النور: ٦٣ . (٢) المائدة: ٣

٥ ـــ التوازنُ بينَ الروحيَّة والماديَّة

التوازن والاعتدال بين الروحية والمادية، أو بين الدين والدنيا، هو المبدأ الإصلاحى الخامس من المبادىء التى دعا إليها الإسلام ورعاها، ليصلح بها ما أفسده محرفو الأديان فى مجال العبادة.

● غلو اليهودية فى أمر الدنيا :

نقرأ أسفار التوراة الخمسة الحالية، فلا نكاد نجد للروحانية أثراً، ولا نكاد نرى للآخرة مكاناً، حتى الوعد والوعيد فى هذه التوراة للمطيعين والعصاة، إنما يتعلقان بأمور دنيوية، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة فالخصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الحسية العاجلة، هى المثوبات التى تبشر بها التوراة من نفذ أحكام الناموس. وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يعرضون عن الشريعة.

ويكفى أن نقرأ هذه النصوص من التوراة لندرك هذه الحقيقة :

«احترموا آباءكم وأمهاتكم لتعمروا طويلا على الأرض» ..

«اعبدوا ربكم الإله الأزلى، وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويبعد عنكم العلل والأدواء .. وسيطيل أعماركم» .. الخ.

«إذاأطعتم أمرى وحفظتم وصيتى فسأبعث عليكم الأمطار فى أوقاتها، فتخرج الأرض ثمرتها والأشجار فاكهتها» .. الخ.

فليس للأجزية الروحية ولا الأخروية مكان فى التوراة ..

* * *

● إهمال المسيحية لأمر الدنيا :

فإذا انتقلنا إلى الإنجيل وجدنا دعوة قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا ، واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى للإنسان ، وطلب النجاة والسعادة هناك ، فى العالم الآخر ، حيث تقوم مملكة السماء ، فمن أراد ملكوت السماء فليعرض عن هذه الأرض ، ومن أراد العالم الآخر ، فليرفض هذا العالم أو هذه الدنيا . وهكذا لا تحس فى الإنجيل أن لك فى الدنيا نصيباً ، وأن لك فى طيبات الحياة حظاً ، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقاً ، وأن لك فى عمارة الأرض دوراً .

يقول الإنجيل : « لا يدخل غنى ملكوت السموات ، حتى يدخل الجمل فى سم الخياط » . وقال المسيح لشاب آمن به ودخل فى دينه : « إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء ، ثم تعال واتبعنى » . وقال لتلاميذه : « وإنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتموا لذلك ؛ لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين » .

* * *

● عتو الرهبانية وقسوتها على الطبيعة البشرية :

ولم تقف الدعوة إلى التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية . عند الحد الذى جاء به الإنجيل ، بل ابتدع أتباع النصرانية نظام الرهبانية ، بما فيه من قسوة على النفس ، وتحريم للزواج ، وكبت للغرائز ، ومصادرة للنزوع إلى الزينة والطيبات من الرزق .

وانتشر هذا النظام العاتى ، وكثر أتباعه ، وأصبح مما يتعبدون به لله ويتقربون به إليه : البعد عن النظافة والتجمل . واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجساً من عمل الشيطان .

ينقل لنا السيد أبو الحسن الندوى عن « تاريخ أخلاق أوروبا » للأستاذ « ليكى » صوراً لجموح الرهبانية وغلوها ، تقشعر منها الجلود ، وتفزع القلوب ،

وتدهش العقول. وهذه الصور ــ كما يقول الأستاذ ــ قليل من كثير جداً. يقول المؤرخ :

« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة، ولكن مما يلقى الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية، ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب « سرابين » يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر.

ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا فى الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب « ماركايوس » أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرص جسمه العارى ذباب سام! وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد! وكان صاحبه الراهب « يوسيبيس » يحمل نحو قنطارين من حديد! وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح! وقد عبد الراهب « يوحنا » ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة! وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً! وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيدهم وأرجلهم كالأنعام! وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم فى النجاسات والدنس. يقول الراهب « اتهينس » : إن الراهب « أنتونى » لم يقترف اثم غسل الرجلين طول عمره! وكان الراهب « إبراهام » لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة! وقد قال الراهب الاسكندرى بعد زمن متلهفاً : واأسفاه! لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه

حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات ! ! وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ويختطفون الأطفال ويهبونهم إلى الصحراء والأديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية ، والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمها ، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصرانى بالمهارة فى التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن فى البيوت إذا رأين الراهب «أمبروز» ، وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً ، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس .

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد ، فيخلفون الأمهات ثكالى ، والأزواج أيامى ، والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم فى الآخرة ، لا يبالون ماتوا أو عاشوا .. وحكى « ليكى » من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب .

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن — ولو كن أمهات أو أزواجاً أو شقيقات — تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية .. وروى « ليكى » من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً » (١) .

* * *

- **التوازن سمة الإسلام :**

هكذا كانت اليهودية فى إغفالها للآخرة وللروح ، وهكذا كانت المسيحية فى تحقيرها للدنيا وللجسد .

---

(١) من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الطبعة الثالثة — من ص١٥٨ إلى ص١٦٠ .

فلما جاء الإسلام كانت سمته التوازن والاعتدال فى كل الآفاق والنواحى. الاعتدال الذى يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمن، وتشرع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد، فى مختلف شئون الحياة. الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد، بين بواعث الدين، ومطالب الدنيا. الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة.

فلم يطلب الإسلام من المسلم المثالى أن يكون راهباً فى دير، أو عابداً فى خلوة، ليله قائم، ونهاره صائم، كل صمته فكر، وكل كلامه ذكر، وكل نظره تأملات! لا حظ له فى الحياة، ولا حظ للحياة فيه.

* * *

● **حق الله وحق الحياة :**

وإنما طلب من المسلم أن يكون إنساناً عاملا فى الحياة، يعمرها ويرقيها ويدفع عجلتها إلى الأمام. طلب منه أن يسعى فى مناكب الأرض، ويلتمس الرزق فى خباياها، زارعاً أو صانعاً، أو تاجراً، أو عالماً أو عاملا، أو محترفاً بأى حرفة نافعة. بيد أن عليه ألا تذهله مطالب الحياة عن واهب الحياة. عليه ألا يشغله حق الجسد عن حق الروح. عليه ألا تشغله رغائب الدنيا العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية. عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه وماهية وجوده. وفى هذا يقول القرآن: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ»(١).

---

(١) الحشر: ١٨، ١٩

قال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً ، وهو أن من نسى ربه أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه ، فى معاشه ومعاده ، فصار معطلا مهملا ؛ بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاه إياها خالقها ؛ وأما هذا فخرج عن فطرته ، التى خُلق عليها . فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به ، وتزكو به ، وتسعد به ، فى معاشها ومعادها : قال تعالى :« وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا »[1] فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه ، مفرط الأمر، حيران لا يهتدى سبيلاً » .

ومهمة العبادات أن تأخذ بيد الإنسان حتى لا تغرقه أعمال الدنيا فى لجة النسيان ، حيث ينسى الله ، فينسيه الله نفسه .

مهمة العبادات أن تقوم بالتنبيه والتذكير لمن نسى مولاه ، أو غفل عن أخراه ، ثم تدع الإنسان يعود بعد أدائها إلى دنياه يلقاها ساعياً حثيث الخطا ، وثيق العرا .

وحسبنا أن نقرأ هاتين الآيتين من سورة الجمعة لنعرف منها كيف وضعتا المسلم فى وضعه الرشيد بين الدين والدنيا ،قال تعالى :« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ

---

(١) الكهف : ٢٨ .

فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١) .

وهذا هو شأن المسلم : عمل وبيع قبل الصلاة ، ثم صلاة وسعى إلى ذكر الله ، ثم – بعد انقضاء الصلاة – انتشار فى الأرض وابتغاء من فضل الله ، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب .

ورواد المساجد فى الإسلام ليسوا دراويش متعطلين ، ولا رهباناً متبطلين ، وإنما هم – كما وصفهم القرآن – « رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ » (٢) فهم أناس لهم دنياهم وأعمالهم من تجارة وبيع . وما أشد ما تشغل التجارة والبيع ، ولكن ذلك لم يلههم عن حق الله تعالى .

* * *

● حسنة الدنيا وحسنة الآخرة :

وفى سياق الحج يرسم القرآن الكريم لنا صورة واضحة – وإن لم تكن مفصلة ولا مطولة – لصنفين من الناس الذين يدعون الله ويسألونه فى تلك المواقف .

صنف ضيق الأفق مطموس البصيرة ، كل همه الدنيا . فلا يلتفت إلا إليها ، ولا يحرص إلا عليها .

وصنف رحب الأفق ، نير البصيرة ، وسع قلبه الدنيا والآخرة ، فسأل الله الحسنة فيها جميعاً .

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠ .   (٢) النور : ٣٧

نقرأ فى ذلك قول الله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » (١).

هكذا قسم القرآن الناس فى هذا الموقف الذى تسمو فيه الأرواح وتدنو القلوب من ربها، وتهب عليهم نسمات الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد.

قسمان فقط ذكرهما القرآن: طلاَّب دنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق. وهم ذلك الصنف الذى توعده الله فى آية أخرى « مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا » (٢).

وطلاَّب دنيا وآخرة يطلبون الحسنة فى الحياتين، والسعادة فى الدارين، دعاؤهم: « رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً » (٣) وفسّر الحسنة فى الدنيا بما شئت، من العافية أو المرأة الصالحة، أو الأولاد الأبرار، أو العلم النافع، أو الرزق الواسع، أو المحبة بين الناس، أو نحو ذلك، فكل هذا مما يحقق حسنة الدنيا.

ولم يذكر القرآن القسم الثالث من الناس ــ بحسب التقسيم العقلى ــ وهو من لا يطلب إلا حسنة الآخرة، وما له فى الدنيا من أرب. وكأنه

(١) البقرة : ٢٠٠ ــ ٢٠٢
(٢) الإسراء : ١٨
(٣) البقرة : ٢٠١

يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في الناس، فالحياة بمتاعها الجمة، وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعو ربه ليبسر له سبيل دنياه، ويعينه على أداء حقوقها، ويخفف عنه متاعبها.

ثم هو يشعرنا أن إهمال الدنيا، وإهدار شأنها في حساب طالب الآخرة، إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة، وصراط الدين معاً.

ولهذا لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرة الانقطاع عن الدنيا من أجل الرغبة في الآخرة، والاعتزال المطلق لعبادة الله؛ وكلما رمق في بعض أصحابه نزعة إلى هذا اللون من السلوك الذي عُرف في بعض الأديان الأخرى، قوَّم عوج أفكارهم، وهداهم إلى التي هي أقوم، وأعلنهم بهذه الحقيقة التي تميزت بها رسالته العالمية الأخيرة «إن الرهبانية لم تكتب علينا» ليعلموا أن دينهم ليس دين اعتكاف وعزلة. وإنما هو دين حياة وتقدم وعمران.

* * *

• لا تغلوا في دينكم:

صحيح أن الله فرض على الناس أن يعبدوه، ويتقربوا إليه، ولكن غلو المسلم في العبادة الشعائرية، وشغل الليل والنهار بها وحدها، وهضم حقوق الحياة من أجلها — أمر يرفضه الإسلام ورسول الإسلام.

تزوج عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان شاباً صالحاً نزَّاعاً إلى العبادة والصيام والقيام، فذهب أبوه عمرو يسأل زوجه عن حاله معها فقالت في أدب: نِعْمَ الرجل عبد الله.. لم يطأ لنا فراشاً منذ جئناه!

وشكا عمرو ابنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه، فجاء..

ولندع الإمام مسلماً يروي لنا القصة على لسان عبد الله نفسه قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة، فلما ذُكِرت للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال : ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقرأ القرآن كل ليلة ؟

قلت : بلى يا رسول الله ، ولم أرد بذلك إلا الخير..

قال : فإنه بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام — وفى بعض الروايات : صوم ثلاثة أيام من الشهر صوم الشهر كله — .

قلت : يا نبى الله..إنى أطيق أكثر من ذلك..

قال : فإن لزوجك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، ولجسدك عليك حقاً..قال :فصم صوم داوود نبى الله ، فإنه كان أعبد الناس .

قلت : يا نبى الله.. وما صوم داوود؟

قال : كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً — وفى رواية : وهو أحب الصيام إلى الله — قال : اقرأ القرآن فى كل شهر .

قلت : يا رسول الله.. إنى أطيق أفضل من ذلك .

قال : فاقرأه فى كل عشرين .

قلت : يا نبى الله.. إنى أطيق أفضل من ذلك .

قال : فاقرأه فى كل عشر .

قلت : يا نبى الله.. إنى أطيق أفضل من ذلك .

قال : فاقرأه فى كل سبع ، ولا تزد على ذلك ، فإن لزوجك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، ولجسدك عليك حقاً .

وهكذا لقَّنه النبى ـصلى الله عليه وسلمـ هذا الدرس ، وعلَّمه أن للحياة حقوقاً يجب أن تُؤدى ، كما أن للآخرة حقوقاً يجب أن تُرعى ، والعدل فى إعطاء كل ذى حق حقه .

وقد تكررت هذه النزعة أكثر من مرة لأكثر من فرد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقاومها بقوة ، حتى لا يستشرى خطرها ، ويتطاير شررها .

يروى أنس بن مالك : أن رهطاً جاءوا إلى بيوت أزواج النبى ـصلى الله عليه وسلمـ يسألون عن عبادته ، ويبدو أنهم كانوا يتصورونه عليه

الصلاة والسلام راكعاً ساجداً أبداً ، كل ليله قيام ، وكل أيامه صيام ، ليس لعينه حظ من نوم ، ولا لجسده حظ من راحة ، ولا لنسائه حظ من قربه ، فلما أخبرتهم زوجاته عليه الصلاة والسلام بعبادته ، كأنهم تقالوها ، ولم تشبع نهمهم للعبادة ، فقالوا : وأين نحن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ ! !

قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً .
وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً .
وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم وقال : « أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١) .

وهكذا عرّفهم النبى الكريم سنة الإسلام وهدى رسول الإسلام ، فليست تقوى الله وخشيته بترك الدنيا ، والانقطاع للعبادة ، فهو أخشى الناس لله ، وأتقاهم له ، ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يهدر حقه فى الحياة وحق الحياة فيه : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

* * *

• سقى النخيل أم تطويل الصلاة :

وعن أنس بن مالك قال : كان معاذ بن جبل يؤم قوماً ـ فدخل حرام « ابن ملحان » وهو يريد أن يسقى نخله . فدخل المسجد مع القوم فلما رأى معاذاً طوّل تجوّز فى صلاته ـ خففها وحده قبل أن يفرغ معاذ ـ ولحق بنخله يسقيه . فلما قضى معاذ الصلاة قيل له ذلك . فقال : إنه لمنافق . أيعجل عن الصلاة من أجل سقى نخله ؟ فقال : فجاء حرام إلى النبى صلى الله عليه

---

(١) رواه البخارى وغيره .

وسلم ومعاذ عنده ــ فقال : يا نبى الله .. إننى أردت أن أسقى نخلاً لى فدخلت المسجد لأصلى مع القوم . فلما طوّل ــ أى معاذ ــ تجوّزت فى صلاتى ولحقت بنخلى أسقيه ، فزعم أنى منافق ! ! فأقبل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على معاذ ، فقال : أفتّان أنت ؟ أفتّان أنت ؟ ! لا تطوّل بهم ، اقرأ « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » « وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا » ونحوها (١) ..

ولقد وضحت الروايات فى القصة أن الصلاة كانت العشاء ، فهى من صلوات الليل ، لا من صلوات النهار وقت العمل والكدح . وذكر بعضها أن معاذاً قرأ فيها بـ « اقتربت الساعة » لا بالبقرة ولا بآل عمران . ومع هذا فإن الرجل قام قبل أن يفرغ معاذ فصلّى وحده وذهب ــ كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم لم يوجه إليه كلمة لوم أو عتاب ، وإنما وجهها إلى إمام القوم الفقيه الجليل معاذ بن جبل « أفتّان أنت يامعاذ » ؟ .

وهذا هو الإسلام : دين لا ينعزل عن الدنيا ، ودنيا لا تحيف على الدين !

* * *

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح ، والقصة فى الصحيحين وغيرها بألفاظ مختلفة .

٦ ـ اليُسر ورَفع الحَرَج

المبدأ السادس الذى رعاه الإسلام فى أمر العبادة هو اليسر ورفع الحرج ، وإزالة العنت ، ووضع الآصار والأغلال عن أعناق المكلفين ، الآصار التى عُرفت فى بعض الديانات السالفة كاليهودية وغيرها . وقد عَلَّم الله المؤمنين أن يدعوه فيقولوا : «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا» [1] والإصر هو الحمل الثقيل ، وهو تصوير لما كان فى شرائع السابقين من التكاليف الشاقة ، فمنها عند اليهود نظام الأعياد التى يعيّدونها لله فى السنة ، وهى عيد الفطير ، وعيد الحصاد . وعيد المظال ، وكذلك عيد كل سبت لا يعمل فى أدنى عمل ، ومن يعمل يوم السبت فجزاؤه القتل ، وكذلك سبت المزارع . ففى كل سنة سابعة سبت للأرض لا يُزرع فيها ، ولا تُقطف الكروم . بل تُترك الأرض عطلا ، وغلات الكروم مأكلا لفقراء شعبهم ووحوش البرية ، وغير ذلك من التكاليف الغريبة ، مثل تحريم طبخ الجدى بلبن أمه ، ومثل ما إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات المنطوح ، يُرجم الثور ولا يُؤكل لحمه ، ومثلها كثير .

ولم يكن هذا التشديد والعنت فى اليهودية وحدها ، بل سادت هذه النزعة أكثر الديانات قبل الإسلام ، إن لم نقل كلها .

يقول العلامة سليمان الندوى [2] :

«ما من دين خلا من العبادة لله ، لكن الأديان القديمة حسب أتباعها أن الدين يطالبهم بإيذاء أجسامهم وتعذيبها ، وأن الغرض من العبادة إدخال

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) من كتابه « الرسالة المحمدية » المحاضرة الثامنة ص ٢٤١ وما بعدها . ط ثانية بدمشق . وهو الكتاب المعروف فى الأوردية باسم «خطبات مدراس»

الألم على الجوارح ، وأن الجسم إذا ازدادت آلامه ، كان فى ذلك طهارة للروح ، ونزاهة للنفس !

«وعن هذه العقيدة نشأ التبتل عند الهنادك ، والرهبانية عند النصارى . وابتدعوا من رياضات الجسم أنوعاً عجيبة ، أشدها على الجسم أفضلها عندهم ، وأقربها إلى الله فى زعمهم : فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته ، ومنهم من لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة ، وبعضهم آلى على نفسه أن يعيش عريان إلا من خرقة يستتر لها ، ماضياً على ذلك مهما أثرت فيه حمّارة القيظ ، أو زمهرير الشتاء ، ومنهم من لزم كهفاً فلا يبرحه أبداً ، وبعضهم اختار لنفسه أن يبقى واقفاً فى حر الشمس طول حياته ! ومنهم من يحلف ألا يقتات إلا بورق الشجر ! ومنهم من بقى صرورة حصوراً لا يتزوج ، ومنهم من يعد من العبادة والقربة إلى الله منع التناسل ! ومنهم من يرفع إحدى يديه فى الهواء ويبقى كذلك طول عمره ، حتى تيبس يده وتجف ! وكان بعضهم يحبس نفسه ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من العبادة ، ولا يزال فى الهند من يتعلق بشجرة منكساً رأسه إلى تحت ! وهذا كله وأمثاله مما كان عليه أتباع الأديان قبل مبعث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظانين أن أعمالهم هذه من أقرب الوسائل إلى الله ، ومن أفضل ما تزكى به النفوس ، وتطهر به الأرواح .

« وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الأقدمون إلى الآلهة ، فكانوا ينذرون لآلهتهم قرابين بشرية تذبح كالأضاحى ، استرضاء للآلهة ، فإذا سفكت دماء البشر لهذا الغرض نثرت دماؤهم على الأوثان ، وربما أحرقت لحوم الأضاحى ، وجُمِّرَت بها الأصنام ، وبخرت بدخانها . ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحى » .

* * *

● بعثت بالحنيفيه السمحة :

وقد جاءت الشريعة الإسلامية برفع هذه الآصار، وعُرِفَ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى كتب الأولين بهذه الأوصاف المميزة « يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ » (١)

وامتنّ الله برسوله على الناس فقال : « لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٢) .

وقد قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ معرفاً برسالته : « بعثت بالحنيفية السمحة » (٣) فهى حنيفية فى العقيدة، سمحة فى التكاليف والأحكام.

وإنما خصها الله بالسماحة والسهولة واليسر. لأنه أرادها رسالة الناس كافة، والأقطار جميعاً، والأزمان قاطبة، ورسالة هذا شأنها من العموم والخلود لا بد أن يجعل الله الحكيم فى ثناياها من التيسير والتخفيف والرحمة ما يلائم اختلاف الأجيال، وحاجات العصور، وشتى البقاع.

وهذا واضح فى شريعة الإسلام عامة. وفى العبادات خاصة. يقول الله تعالى فى بيان رسالة المسلم فى الحياة : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (٤).

---

(١) الأعراف : ١٥٧

(٢) التوبة : ١٢٨.

(٣) رواه أحمد.

(٤) الحج : ٧٧، ٧٨.

ويقول فى ختام آية الطهارة من سورة المائدة : « مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

ويقول فى ختام آية الصوم: « يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ » (٢) .

ويقول فى أعقاب ما ذكره من المحرمات فى النكاح ، وإباحة ما وراء ذلك بشرطه : « يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا» (٣) .

وبعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاذاً وأبا موسى الأشعرى أميرين إلى اليمن فكان من وصيته لهما :«يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » (٤) .

ومن أوصافه عليه الصلاة والسلام أنه «ما خُيّرَ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » (٥) .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم : « إن الدين يسر، ولن يشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » (٦) .

وإذا كانت وجهة الإسلام هى التيسير، فكل مسلم يبغى التشديد والتعنت إنما يعاند روح الإسلام . ولهذا وقف الرسول الكريم فى وجه المتعنتين والمتشددين ، وأخبر بهلكتهم ووبالهم . وقال : «ألا هلك المتنطعون . ألا هلك المتنطعون . ألا هلك المتنطعون » (٧) . ولم يكن يكرر الكلمة ثلاثاً إلا لعظم خطر مضمونها .

(١) المائدة : ٦
(٢) البقرة : ١٨٥
(٣) النساء : ٢٨
(٤) رواه البخارى .
(٥) (٦) رواهما البخارى أيضاً .
(٧) رواه أحمد ومسلم وأبو داوود عن ابن مسعود .

وكان بعض الصحابة قد رغبوا فى مواصلة الليل والنهار صائمين لا يفطرون، طلباً لزيادة المثوبة. فنهاهم عن هذا الوصال. فلما لم ينتهوا واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم يوماً، ثم رأوا الهلال — هلال شوال — فقال: «لو تأخر الشهر لزدتكم» كالمنكل لهم حين أبوا أن ينتهوا! وقال: «لو مُدَّ لنا فى الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم»! وهذا كله كراهية منه للتشديد، وعقوبة للمشددين.

وروى عنه ابن عباس مرفوعاً: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» (١). وهو الغلو الذى نعاه القرآن على أهل الكتاب ونهاهم عنه «قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ» (٢).

روى أبوداوود عن سهل بن أبى أمامة أنه دخل هو وأبوه على أنس ابن مالك زمان عمر بن عبد العزيز، وهو أمير، وهو يصلى صلاة خفيفة، دقيقة كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها، فلما سلّم قال لى: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المتكوبة أم شىء تنفلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أخطأت، إلا شيئاً سهوت عنه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:

« لا تشدّدوا على أنفسكم فيُشدّد عليكم؛ فإن قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار «وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ» (٣).

والنبى — صلى الله عليه وسلم — يشير فى هذا الحديث إلى ما ذكره القرآن الكريم فى سورة الحديد عن الرهبانية التى ابتدعها النصارى ولم يقوموا بحقها. قال تعالى: «وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ

(١) رواه مسلم. (٢) المائدة: ٧٧
(٣) الحديد: ٢٧، والحديث ذكره ابن كثير فى تفسير الآية الكريمة عن مسند أبى يعلى وهو فى كتاب الأدب من سنن أبى داوود: باب فى الحسد.

«وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» (١).

بينت الآية الكريمة أن الرهبانية من ابتداع النصارى، ما كتبها الله عليهم، ولا شرعها لهم. وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، قاصدين رضوان الله بزعمهم (٢)، فما رعوها حق رعايتها.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله، والثانى: فى عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عز وجل».

وفى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تشّددوا يُشدّد عليكم» إخبار بأن تشديد الإنسان على نفسه سبب لتشديد الله عليه.

وتشديد الله إما تشريعى تكليفى، وإما تشديد كونى قَدرى. وفقاً لنظام الله فى الأسباب والمسببات.

فالتشديد بالشرع، كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل. فيلزمه الشرع الوفاء به.

والتشديد بالقدَر، كفعل أهل التزمت والوسوسة: شدّدوا على أنفسهم، فشدّد القدَر عليهم، حتى استحكم ذلك فيهم؛ وصار صفة لازمة لهم. وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

* * *

● **الحكمة فى تيسير العبادة ورفع الحرج عن الأمة:**

وإنما رفع الإسلام الحرج عن أمته، وصد النبى صلى الله عليه وسلم تيار التزمت والتشديد، والغلو فى الدين لأمرين ذكرهما الإمام

---

(١) الحديد: ٢٧

(٢) هذا على أحد القولين فى تفسير «**إلا ابتغاء رضوان الله**» (الحديد: ٢٧) والقول الآخر معناه: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. كما فى تفسير ابن كثير. ولكن الراجح هو التفسير الأول.

الشاطبي في موافقاته [1]:

أحدهما: الخوف من الانقطاع في الطريق، وبغض العبادة، وكراهة التكليف، ويتنظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني: خوف التقصير في الواجبات الأخرى، عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالمكلف المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده، إلى تكاليف أخرى. فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلا عنها. وقاطعاً بالمكلف دونها: وربما أراد أن يقوم بهذه وتلك على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما معاً.

فأما الأول: فإن الله وضع هذه الشريعة المباركة حنيفية سمحة سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحببها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة، لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: «وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ» [2] فقد أخبرت الآية أن الله حبب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله، وزينه في قلوبنا بذلك، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه. وفي الحديث: «عليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» [3].

---

(١) الجزء الثاني ص ١٣٦ وما بعدها. والمنقول بتصرف.

(٢) الحجرات: ٧، ٨.

(٣) رواه البخاري.

وفي حديث قيام رمضان وانقطاعه عن الصلاة بهم في المسجد «أما بعد.. فإنه لم يخف عليّ شأنكم، ولكن خشيت أن تُفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها» (١).

وفي حديث الحولاء بنت تُوَيْت حين قالت له عائشة: هذه الحولاء بنت تويت، زعموا أنها لا تنام الليل! فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تنام الليل؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا» (٢).

وحديث أنس: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد، وحبل ممدود بين ساريتين ــ عمودين ــ فقال: ما هذا؟ قالوا: حبل لزينب، تصلي فإذا كسلت أو فترت أمسكت به. فقال: «حلوه.. لِيُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد» (٣).

وحديث معاذ حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أفتّان أنت يامعاذ»؟؟ حين أطال الصلاة بالناس وقال: «إن منكم منفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوّز ــ أي ليخفف ــ فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة» (٤).

ونهى عن الوصال رحمة بهم، ونهى عن النذر وقال: «إن الله يستخرج به من البخيل، وإنه لا يُغني من قدر الله شيئاً» (٥) ــ أو كما قال.

ففي هذا كله نرى المعنى معقولاً، والعلة واضحة، من خوف السآمة والملل والعجز، وبغض الطاعة وكراهيتها. وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى» (٦).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري وأبو داوود والنسائي
(٤) رواه البخاري
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه أحمد والبيهقي بلفظ قريب منه.

وأما الثاني : فإن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية ، لا بد له منها ، ولا محيص له عنها ، يقوم بحق ربه تعالى . فإذا أوغل في عمل شاق ، فربما قطعه عن غيره ، ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به ، فتكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعاً عما كلّفه الله به ، فيقصر فيه . فيكون بذلك ملوماً غير معذور . إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخل بواحدة منها ، ولا بحال من أحواله فيها .

ذكر البخارى عن أبى جحيفة قال : آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء ــ وهى زوجه ــ متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ! ! فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاماً فقال له : كُلْ فإنى صائم فقال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل .. فلما كان الليل ؛ فذهب أبو الدرداء يقوم فقال : نم ، فنام ، ثم ذهب ليقوم فقال له : نم .. فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا . فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه » فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدق سلمان » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أزيد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوّز فى صلاتى ، لما أعلم من وجد أمه من بكائه » (١)

وأيضاً ، فقد يعجز الموغل فى بعض الأعمال عن الجهاد أو غيره ، وهو من أهل الغناء فيه . ولهذا قال فى الحديث فى داوود عليه السلام : « كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولا يفر إذا لاقى » .

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داوود .

وقيل لابن مسعود رضى الله عنه : إنك لتقل الصوم؟ فقال : إنه يشغلنى عن قراءة القرآن؛ وقراءة القرآن أحب إلى منه..

وكره مالك إحياء الليل كله وقال : لعله يصبح مغلوباً ، وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة..

وبهذا يتبين لنا أن هذا المبدأ تتمة للمبدأ السابق ، فإن الاعتدال المطلوب بين الدين والدنيا لا يمكن أن يتم إلا بتيسير العبادة وتسهيلها .

* * *

• رخص وتخفيفات :

وإذا كان الإسلام قد بُنى على اليسر ورفع الحرج فى عباداته وتكاليفه فى عامة الأحوال ، فإنه بصفة خاصة شرع ألواناً من الاستثناءات والإعفاءات والتسهيلات فى أحوال خاصة ، وهى تلك التى توجد للإنسان نوعاً من المشقة يؤوده ويثقل ظهره ، ويقعد به عن مواصلة السير.

وقد بينت فى كتابى « الحلال والحرام » أن الإسلام قد اعترف بالضعف الإنسانى ، وقدّر لظروف الحياة القاسية قدرها فقرر مبدأً إنسانياً هاماً لا غنى للإنسان ولا للحياة عنه ، هو « الضرورات تبيح المحظورات » وهو المبدأ الذى نص عليه القرآن فى غير آية كقوله تعالى :

« فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١)

هذا فى شأن الحلال والحرام.

أما فى العبادات فقد قرر الإسلام فيها مبدأً هاماً كذلك من أجل الحياة والإنسان. ذلك هو مبدأ « الرخص » والتخفيف أو الإعفاء فى عباداته إذا اقتضت ذلك مطالب الحياة أو ضروراتها ، أو هما معاً .

---

(١) البقرة : ١٧٣ .

فالسفر مثلا تقتضيه مطالب الحياة التى جاء الدين بإقرارها، بل بتمجيدها والدعوة إليها.

كالسفر لطلب الرزق «فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ» (١) «سافروا تصحوا وترزقوا» (٢).

والسفر لطلب العلم «اطلبوا العلم ولو بالصين» (٣)

والسفر للحج إلى بيت الله «وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (٤).

والسفر لغير ذلك من الأغراض الدينية والدنيوية.

والمرض مثلا من ضرورات الحياة وبلائها الذى لا يكاد يسلم منه إنسان، بمقتضى النشأة الإنسانية و«التركيب» البشرى «لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ» (٥).

والجهاد من مطالب الحياة وضروراتها معاً، إذ الإسلام لم يشرعه إلا دفاعاً عن النفس، وتأميناً للدعوة، ودرءاً للفتنة، وإنقاذاً للمستضعفين، وتأديباً للناكثين.

وفى هذه الأمور الثلاثة ــ السفر والمرض والجهاد ــ قرر الإسلام تيسيرات شتى:

---

(١) الملك: ١٥

(٢) مرسل حسن رواه عبد الرزاق فى جامعه.

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان وابن عبد البر فى جامع بيان العلم.

(٤) الحج: ٢٧.

(٥) البلد: ٤.

• **من رخص الصلاة :**

فجعل للمسافر فى الصلاة القصر : يصلى الرباعية — كالظهر والعصر والعشاء — ركعتين فقط ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » (١) .

ورخَّص له فى الجمع بين الصلاتين — الظهر مع العصر ، والمغرب مع العشاء — فأجاز جمعهما فى وقت إحداهما تقديماً أو تأخيراً .

كما رخَّص للمريض أنْ يُصلى قاعداً أو مضطجعاً على جنبه ، أو مستلقياً على ظهره ، حسب استطاعته ، وليس على المريض حرج .

وفى « الطهارة » — التى هى شرط لصحة الصلاة — رخَّص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مريض أو مسافر أو نحوهما أن يترك الوضوء إلى التيمم بالصعيد الطيب من رمل أو تراب أو حجر أو نحوه ، تيسيراً من الله ، ورحمة بعباده ، قال تعالى : « وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢) .

وقد ذكر القرآن هذا الحكم أيضاً فى سورة النساء قائلاً : « فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا » (٣) .

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن (٢) المائدة : ٦

(٣) النساء : ٤٣ .

وفي هذه الآيات يتبين للمسلم أن هذه الرخص في العبادات مظهر يتجلى الله فيه بأسمائه: العفو الغفور، الكريم الرحيم، الذي يريد أن يطهر عباده ويتم عليهم النعمة.

ولله ما كان أفقه عمرو بن العاص حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات السلاسل، فاحتلم في ليلة شديدة البرودة، وأشفق إن اغتسل أن يهلك، فتيمم ثم صلى بمن معه صلاة الصبح، وكأن أصحابه لم يقنعهم هذا العمل من عمرو، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له فقال له الرسول: يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فقال عمرو: ذكرت قول الله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا»(١) فتيممت ثم صليت. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً»(٢)

فضحك الرسول – صلى الله عليه وسلم – وسكوته دليل على إقراره لعمرو، بل على إعجابه بفقهه في هذه القضية رضي الله عنه.

* . * *

• من رخص الجهاد:

وفي الجهاد شرع الله صلاة الحرب، فجعلها في الرباعية ركعة واحدة، تيسيراً عليهم، وإعانة لهم على عدوهم. قال ابن عباس: «إن الله فرض الصلاة على لسان نبيكم على المسافر ركعتين، وعلى المقيم أربعاً، والخوف ركعة»(٣).

---

(١) النساء: ٢٩.

(٢) رواه أحمد وأبو داوود والحاكم والدارقطني وابن حبان.

(٣) رواه مسلم.

وعند التحام الصفوف قَبل من المقاتلين الصلاة كيف استطاعوا «فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا» (١) فلا يشترط فيها ركوع ولا سجود ولا استقبال قبلة .

ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يفرّقون بين الصلاة والجهاد، فتلك عمود الإسلام، وهذا ذروة سنامه، والمصلى يعتبر نفسه فى ميدان جهاد، والمجاهد يعتبر نفسه فى محراب صلاة !

وقد فرض الله على المجاهدين أن يحملوا أسلحتهم ويأخذوا حذرهم وهم بين يديه خاشعون، ولربهم مبتهلون مناجون« وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً » (٢) .

وأرسل عليه الصلاة السلام من فرسانه طليعة له، ليستكشف ويستطلع خبر العدو، وظل عليه الصلاة والسلام يصلى الصبح، وهو يلتفت إلى الشِّعب الذى يجىء منه الفارس، رغم نهيه عن الالتفات فى الصلاة، وأنها كانت قرة عينه ونعيم روحه .

وروى عن عمر أنه قال : إنى لأجهز جيشى وأنا فى الصلاة .

* * *

- **رخص الصيام :**

وفى صيام رمضان رخَّص الإسلام للمسافر فى الإفطار، بل أوجبه عليه إذا كان فى صومه مشقة ظاهرة عليه، ففى الصحيح عن جابر : كان النبى

---

(١) البقرة : ٢٣٩ (٢) النساء : ١٠٢ .

صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه ، وقد ظُلِّلَ عليه فقال : ما له ؟ قالوا : رجل صائم. فقال صلى الله عليه وسلم : «ليس البر أن تصوموا فى السفر» .

وعن عمار بن ياسر قال : أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة ، فسرنا فى يوم شديد الحر ، فنزلنا فى بعض الطريق ، فانطلق رجل منا ، فدخل تحت شجرة ، فإذا أصحابه يلوذون به وهو مضطجع كهيئة الوجع ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بال صاحبكم ؟ قالوا : صائم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليس من البر أن تصوموا فى السفر ، وعليكم بالرخصة التى رَخَّصَ الله لكم فاقبلوها» (١) .

وبذلك أثبت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكل صراحة : أن الصيام إذا شق على صاحبه فى السفر إلى الحد الذى ذكرته الروايات كان إثماً لا براً .

وعن أنس قال : كنا مع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى السفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال : فنزلنا منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء .. فسقط الصوَّام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية . وسقوا الركاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ذهب المفطرون اليوم بالأجر» (٢)

وهكذا لا يكسب الصائم فى مثل هذه الأحوال إلا الجوع والعطش ويكسب المفطر الشبع والرى ، ومثوبة العمل الاجتماعى لخدمة إخوانه .

وكذلك رخَّص للمريض بالفطر فى رمضان ؛ ويقضى هو والمسافر عدة من أيام أخر . ولنستمع إلى قول الله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن. (٢) رواه مسلم.

مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ » (١).

ورخَّص رسول الله صلى الله عليه وسلم للمجاهدين بالفطر في الصيام. فعن أبي سعيد قال: سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ونحن صيام قال: فنزلنا منزلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنكم دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم » فكانت رخصة، فمنا من صام ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر، فقال: « إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فافطروا ». فكانت عزمة فأفطرنا (٢).

وقد استدل الإمامان ابن تيمية وابن القيم بهذه الجملة « إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم » على أن لقاء الأعداء — ولو كان ذلك في غير سفر — يقتضي الإفطار، لأن المسلمين مطالبون بإعداد ما استطاعوا من قوة، والفطر من أسباب القوة.

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة من أجل هذه الأمور الثلاثة — المرض والسفر والجهاد — مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الإسلام في مكة. ففي سورة المزمل يقول تعالى: « عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ » (٣).

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داوود

(٣) المزمل: ٢٠.

وكان أكثر الناس انشراحاً لهذه الرخص، وانتفاعاً بها، هم الصحابة الذين فقهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونهلوا من نبع النبوة، ولم يحجروا ما وسّع الله. وكيف لا وقد علموا «أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته» (١) ؟!

* * *

---

(١) رواه أحمد.

عبادات الإسلام وشعائره الكبرى
أسرارها وأثرها في الحياة

- الصلاة .
- الزكاة .
- الصيام .
- الحج .

عبادات الإسلام وشعائره الكبرى

● المراد بعبادات الإسلام:

حين نتحدث عن «عبادات الإسلام» نعني بها تلك الصور المحددة التي رسمها الإسلام للتقرب بها إلى الله تعالى. واتخذها شعائر مميزة له. وعين لها مواقيت ومقادير وكيفيات لا مجال فيها لتبديل أو تعديل. وهذا ما يجعلنا نقصر الحديث على العبادات الأربع المعروفة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

ولو شئنا أن نفسح المجال لكان علينا أن ندخل في حديثنا ـــ على الأقل ـــ عبادتين من أهم العبادات الإسلامية التي لم تدخل في نطاق التعبد بتحديد المواقيت والكيفيات، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

فالفريضة الأولى من السمات التي تميزت بها هذه الأمة «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ» (١) وهي من شعب الإيمان وخصال المؤمنين «وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ» (٢) «ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ» (٣) ومن فرّط فيها لُعِنَ كما «لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) التوبة: ٧١.
(٣) التوبة: ١١٢.

إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ * كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ » (١).

والفريضة الثانية قد أُمر بها المسلم كما أمر بالركوع والسجود وسائر العبادات : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ » (٢) « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٣) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة » (٤).

ويبين القرآن عظم مثوبة المجاهدين فيقول : « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » (٥) .

(١) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ . (٢) الحج : ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) المائدة : ٣٥ .

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى : حديث غريب .

(٥) التوبة : ١٢٠ ، ١٢١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير في الدنيا وما فيها » (١) .

وسأله بعضهم : يا رسول الله .. ما يعدل الجهاد في الله ؟ قال : لا تستطيعونه . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً وكل ذلك يقول : لا تستطيعونه . ثم قال : « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة وصيام ، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله » (٢) .

ومع ما لهاتين الفريضتين أو العبادتين ـ الجهاد والأمر والنهي ـ من شأن ومنزلة في الإسلام ، فإننا ندع الحديث عنهما هنا ، حيث نتجه إلى العبادات الشعائرية الكبرى . التي وضح فيها معنى التعبد ، وهي التي تُلتمس في العادة آثارها . وتُطلب أسرارها .

* * *

● **عبادات قديمة جديدة :**

العبادات الإسلامية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج عبادات قديمة . عرفتها الأديان قبل الإسلام على صورة من الصور ، فالله تعالى يقول عن بعض الأنبياء : « وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ » (٣) .

وفي الصيام يقول القرآن : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٤) .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) متفق عليه .
(٣) الأنبياء : ٧٣ .
(٤) البقرة : ١٨٣ .

وفى الحج يقول: « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » (1).

ولكن هذه العبادات الأربع كانت فى تلك الديانات مناسبة لعصرها وبيئتها، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة. الملائمة للبشرية فى طور نضوجها، فرض الله عليه هذه العبادات فى أكمل صورة لها. ورقى كل نوع منها إلى غايته ومنتهاه. ونقاها من كل ما شابها خلال العصور وكر الدهور.

فالصلاة لم تعد مجرد ابتهال ودعاء. ولكنها ذكر ودعاء وتلاوة. هى أقوال وأعمال يشترك فيها الفكر والقلب واللسان والبدن. اشترط الإسلام لها النظافة والطهارة، وأخذ الزينة، والاتجاه إلى قبلة واحدة، ووزعها على أوقات النهار والليل بمواقيت معينة، وحدد لكل صلاة منها ركعات معدودة، ورتب كيفيتها على نسق فريد، وكملها بما شرع فيها من جماعة وجمعة، وزان ذلك كله بما شرع لها من أذان وإقامة.

والصلاة الإسلامية بهذه الصورة، وتلك الشروط، عبادة فذة لم تُعرف هكذا فى دين من الأديان.

والزكاة فى الإسلام عبادة فذة. إنها ليست مجرد إحسان يتبرع به متبرع، أو صدقة يتطوع بها متطوع. إنها حق معلوم، وضريبة مقدرة على كل من يملك نصاباً محدداً تامياً من المال حال عليه الحول، فاضلاً عن الحاجات

---

(1) الحج: ٢٦، ٢٧.

الأصلية لمالكه. إنها حق الله فيما أنعم به من مال أو تجارة أو زرع. حق يدفع الإيمان إلى أدائه، وتقوم الدولة على جبايته «خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا» (١) فمن أداها طيبة بها نفسه، فقد كسب رضا الله والناس، وفاز بخيرى الآخرة والأولى، ومن أبى قُسر على أدائها قسراً، فإن كانت له شوكة قوتل وجُندت له الجنود حتى يؤديها: وهذا ما صنعه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه مع مانعى الزكاة.

فالزكاة بهذا الوضع وبمصارفها التى بينها القرآن عبادة جديدة لم تُعرف بهذا الكمال فى دين من الأديان.

وكذلك الصيام والحج والذكر والدعاء عبادات قديمة مشتركة فى أديان كثيرة، ولكن الإسلام نقى هذه العبادات جميعاً من كل شائبة، ورقى كل نوع منها إلى غايته، وركز فيها من الأسرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير فى الحياة ما يليق بدين عام خالد، مهمته إصلاح الفرد، وإسعاد البيت، واستقرار الجماعة، وتوجيه الدولة، وهداية العالمين.

* * *

• أسرار العبادات وآثارها:

والأصل فى العبادات أنها تؤدى امتثالا لأمر الله. وأداء لحقه على عباده، وشكراً لنعمائه التى لا تُنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع فى حياة الإنسان المادية، وليس من الضرورى أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود. الأصل فيها أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه، فلا معنى لأن يدرك السر فى كل تفصيلاتها. فالعبد عبد. والرب رب. وما أسعد الإنسان إذا عرف قدر نفسه!

---

(١) التوبة: ١٠٣.

ولو كان الإنسان لا يتعبد لله إلا بما وافق عليه عقله المحدود وعرف الحكمة فيه تفصيلا، فإذا عجز عن إدراك السر في جزئية أو أكثر من جزئياته. أعرض ونأى بجانبه ـ لكان في هذه الحال عبد عقله وهواه، لا عبد ربه ومولاه.

إن العبودية لله شعارها الإيمان بالغيب ولو لم تره، والطاعة للأمر ولو لم تحط بسره.

وحسب المؤمن أن يعلم بالإجمال أن الله غنى عن العالمين، غنى عن عباداتهم وطاعاتهم، فلا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى «وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ» (١) «وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ» (٢).
فالله غنى عن عباده كل الغنى، وإذا تعبدهم بشيء فإنما يتعبدهم بما يصلح أنفسهم، ويعود عليهم بالخير في حياتهم الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، والدنيوية والأخروية. غير أن الإنسان المحدود قد تخفى عليه حكمة الله جل علاه.

وكم لله من سر خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي

وكما أخفى كثيراً من أسرار هذا الكون عن الإنسان. أخفى عنه بعض أسرار ما شرع ليظل الإنسان في هذا وذاك متطلعاً بأشواقه وراء المجهول آملاً في الوصول. معترفاً بالقصور.. وليظل دائماً في دائرة العبودية المؤمنة التي شعارها دائماً: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ»(٣).

---

(١) لقمان: ١٢. (٢) آل عمران: ٩٧.
(٣) البقرة: ٢٨٥

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال »: « أن العبادات لصحة قلب الإنسان. كالأدوية لصحة بدنه، وليس كل إنسان يعرف خواص الدواء وسر تركيبه إلا الطبيب أو العالم الذى اختص بمعرفته. وكل مريض يقلد الطبيب فيما يصف له من دواء ولا يناقشه فيه. قال: فكذلك بان لى على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يُدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل. وكما أن اختلاف الأدوية فى المقدار والوزن والنوع لا يخلو من سر هو من قبيل الخواص. فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى إن السجود ضعف الركوع. وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار، فلا يخلو عن سر من الأسرار، وهو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة. فقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط لها حكمة، أو ظن أنه ذكرت على الاتفاق لا من سر إلهى فيها » (١).

وبهذا علم أنه من الخطأ البين أن نطلب لكل تفصيل من تفصيلات العبادة حكمة تقنع العقل، وتشبع نهمه، ولا سيما ذلك العقل المادى الحديث الذى لا يشبعه إلا الحسية والنفعية.

فالعبادات ــ كما قال الأستاذ العقاد ــ شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها. ولا يتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها. إلا أمكن أن يتجه إلى الوضع الآخر. لو استبدل منه ما اقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها.

« لماذا يكون الصوم شهراً ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة؟

لماذا تكون حصة الزكاة جزءاً من عشرة أجزاء، ولا تكون جزءاً من تسعة أو من خمسة عشرة؟

---

(١) « المنقذ من الضلال » للامام الغزالى بتصرف.

لماذا نركع ونسجد ولا نصلى قياماً أو قياماً وركوعاً بغير سجود ؟

من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس ما يمنعه أن يعود إلى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع . أو فرضت الزكاة فوق مقدارها أو دون هذا المقدار ، أو فرضت الصلاة على وضع غيْر وضعها الذى اتفق عليه أتباع الدين .

وليس معنى أن هذه الأوضاع لا تُعرف لها أسباب تدعو إليها ، وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، ولكنها فى نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل ، لأن المقترح المعدّل لن يستند إلى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها ، ويميل إلى سواها .

ويسرى هذا على كل تنظيم فى أمور الدنيا ، ولا يسرى على أمور الدين وحده .

فلماذا يكون عدد الكتيبة فى جيش هذه الأمة خمسين مثلاً ويكون فى أمة غيرها أربعين أو مائة ؟

ولماذا يُجعل اللون الأخضر رمزاً لهذا المعنى فى ألوان العلم القومى عند قوم من الأقوام ، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين ؟

لا مناص فى النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم بها أقرب إلى العقل من المجادلة فيها » (١) .

وقد ضل قوم حاولوا أن يفهموا الحكمة فى كل جزئية من جزئيات العبادة ، فلما خفيت عليهم أسرار بعض التفصيلات فى عبادة كالحج شكوا وشككوا ، وهم فى شكهم وتشكيكهم ضالون عن سواء السبيل .

* * *

---

(١) حقائق الاسلام للعقاد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

الصـــــلاة

الصلاة عبادة عريقة فى القدم. وشعيرة مشتركة بين الديانات عامة، ولا أحسب تاريخ الأديان عرف ديناً بغير صلاة.

بيد أن الصلاة الإسلامية لها مزاياها الخاصة. التى برز فيها بوضوح ماذكرناه من خصائص الإسلام وهديه وما جاء به من إصلاح فى العبادات. فلا عجب أن تشتمل على أسرار بليغة لاتشاركها فيها صلاة فى أى دين آخر.

● منزلة الصلاة فى الإسلام:

وقد عنى الإسلام فى كتابه وسنته بأمرها، وشدّد كل التشديد فى طلبها، وحذّر أعظم التحذير من تركها، فهى عمود الدين، ومفتاح الجنة. وخير الأعمال، وأول مايُحاسب عليه المؤمن يوم القيامة. يذكرها القرآن فى دعاء الخليل إبراهيم: «رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ»([1]) ويمدح بها الذبيح إسماعيل «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا» ([2]) ويأمر الله كليمه موسى بإقامتها أول مايأمر به فى ساعات الوحى الأولى: « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ❊ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ » ([3]) ويوحى إليه وإلى أخيه هارون: « أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا

---

(١) ابراهيم: ٤٠.
(٢) مريم: ٥٥.
(٣) طه: ١٤

وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » (١) وفى وصية لقمان لابنه : « يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » (٢) وينطق المسيح عيسى فى مهده : « وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » (٣) ويأمر الله بها خاتم أنبيائه : « ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ » (٤) ويجعلها صفة جوهرية من صفات المتقين تتلو الإيمان بالغيب « هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ » (٥)

ويبدأ بها ويختم أوصاف المؤمنين المفلحين . « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ » (٦) .

ويؤكد المحافظة عليها فى الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب: « حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ *

---

(١) يونس : ٨٧ .
(٢) لقمان : ١٧ .
(٣) مريم : ٣١ .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .
(٥) البقرة : ٢ ، ٣ .
(٦) المؤمنون : ١ — ٩ .

«فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا» (١) أى فصلّوا فى حال الخوف والحرب مشاة أو راكبين كيف استطعتم، بغير ركوع ولا سجود، بل بالإشارة والإيماء. و بدون اشتراط استقبال القبلة للضرورة هنا: «وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ» (٢) وينذر بالويل والهلاك من يسهو عنها حتى يضيع وقتها:

«فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» (٣).

ويدمغ بالإثم واستحقاق الغى خلف سوء «أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» (٤).

ويجعلها الرسول الكريم الدليل الأول على التزام عقد الإيمان، والشعار الفاصل بين المسلم والكافر «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» (٥) «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» (٦) وذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبَىّ بن خلف» (٧) قال العلماء في توجيه هذا الحديث: فمن شغله عن الصلاة ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أُبَىّ بن خلف.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله» (٨) أى أصيب فى أهله وماله وأصبح بعدهم وتراً فرداً، فإذا كانت هذه كارثة من فاتته صلاة، فكيف بمن فاتته الصلوات كلها؟!

---

(١) البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩. (٢) البقرة: ١١٥ (٣) الماعون: ٤، ٥

(٤) مريم: ٥٩. (٥) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن.

(٦) رواه الخمسة وقال الترمذى: حسن صحيح، كما رواه ابن حبان والحاكم وصححاه.

(٧) رواه أحمد وأبن حبان فى صحيحه. (٨) رواه ابن حبان فى صحيحه.

فلا عجب بعد هذه التأكيدات والتشديدات من نصوص القرآن والسنة أن ذهب جماعة من أئمة الإسلام إلى أن تارك الصلاة كافر خارج عن ملة الإسلام، وتساهل آخرون فقالوا: إنه عاص فاسق يخشى عليه فقدان الإيمان.

تلك هي مكانة الصلاة في الإسلام، ولهذه المكانة كانت أول عبادة فرضت على المسلمين، فقد فرضت في مكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات. وكانت طريقة فرضيتها دليلاً آخر على عناية الله بها، إذ فرضت العبادات كلها في الأرض، وفرضت الصلاة وحدها في السماء، ليلة الإسراء والمعراج، بخطاب مباشر من رب العالمين إلى خاتم المرسلين.

إن الحكومات تستدعي سفراءها في الأمور الهامة الحاسمة، التي لا تغنى فيها المراسلة عن المشافهة. ومحمد صلى الله عليه وسلم سفير الله إلى خلقه. فإذا استدعاه الله سبحانه وعرج به إلى السموات العلا، ليخاطبه بفرض الصلوات، كان ذلك برهاناً ناطقاً على سمو منزلة الصلاة وأهميتها عند الله.

* * *

- **الصلاة المطلوبة:**

والصلاة التي يريدها الإسلام، ليست مجرد أقوال يلوكها اللسان، وحركات تؤديها الجوارح، بلا تدبر من عقل، ولا خشوع من قلب، ليست تلك التي ينقرها صاحبها نقر الديكة، ويخطفها خطف الغراب، ويلتفت فيها التفات الثعلب: كلا. فالصلاة المقبولة هي التي تأخذ حقها من التأمل والخشية واستحضار عظمة المعبود جل جلاله.

ذلك أن القصد الأول من الصلاة — بل من العبادات كافة — هو تذكير الإنسان بربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدّر فهدى.

قال تعالى: « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ » (١) وقال رسوله عليه الصلاة والسلام: «إنما فُرِضَت الصلاة، وأُمر بالحج، وأُشعِرَت المناسك، لإقامة ذكر الله تعالى» (٢) وأشار إلى روح الصلاة فقال: «إنما الصلاة تمسكن

(١) طه: ١٤.

(٢) رواه أبو داوود.

ودعاء وتضرع، وتضع يديك فتقول: اللهم.. اللهم. فمن لم يفعل فهى خداج»(1) أى ناقصة.

فهذا تنبيه على أهمية حضور القلب فى الصلاة. وأما حضور العقل فحسبنا قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ»(2) فنبه بهذا التعليل على وجوب حضور العقل فى الصلاة، فكم من مصل لا يعلم ما يقول فى صلاته، وهو لم يشرب خمراً، وإنما أسكره الجهل والغفلة وحب الدنيا واتباع الهوى!

ويقول ابن عباس: ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

هذه هى الصلاة التى كانت قُرَّة عينه عليه الصلاة والسلام، والتى كان يحن إليها، ويتلهف عليها ويقول لبلال: أرحنا بها! هذه هى صلاة الأنس والحب، لا صلاة النقر والخطف، التى يؤديها كثير من المسلمين. وما أعظم الفرق بين من يقوم إلى صلاته وهو يقول: أرحنا «بها»، وبين من يقوم إليها وهو يقول: أرحنا «منها»!

* * *

- **سر تكرار الصلاة فى اليوم:**

جعل الله الصلاة على المؤمنين كتاباً موقوتاً، أمرهم بإقامتها حين يمسون وحين يصبحون، وعشياً وحين يظهرون. كررها خمس مرات فى اليوم لتكون «حماماً» روحياً للمسلم يتطهر بها من غفلات قلبه، وأدران خطاياه. وقد مثَّل النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فى حديثه الشريف فقال: «أرأيتم لو أن نهراً على باب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فهل يبقى على بدنه من درنه شىء».. قالوا: لا.. قال «كذلك مثل

(2) رواه الترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه بألفاظ مختلفة.

(2) النساء: 43.

الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » (١) وأى إنسان يمر عليه يوم من غير خطايا وهفوات ؟!.

لقد خُلق هذا الإنسان خلقاً عجيباً، فيه من الملاك روحانيته، ومن البهيمة شهوتها، ومن السباع حميتها. وكثيراً ما تغلبه الشهوة، و يستفزه الغضب، ويجذبه تراب الأرض الذى خُلق منه، فيقع فى الأخطاء، و يتردى فى الخطايا، وليس العيب أن يخطىء الإنسان، فكل بنى آدم خطّاء، ولكن العيب أن يتمادى فى الخطأ، و يستمر فى الانحدار، حتى يصير كالأنعام أو أضل سبيلا.

وفى الصلوات اليومية الخمس فرصة يثوب فيها المخطىء إلى رشده. و يفيق المغرور من سباته، و يرجع الإنسان إلى ربه، و يطفىء هذا السعار المادى الذى أججته المطامع والشهوات، ونسيان الله والدار الآخرة.

وفى هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله عليه: « إن لله ملكاً ينادى عند كل صلاة: يا بنى آدم.. قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فأطفئوها » (٢)

إنها نار موقدة، تطلع على الأفئدة وتلفح القلوب والعقول. والصلاة هى مضخة الإطفاء التى تخمد هذه النار، وتمسح دخانها، وسوادها، وتغسل أثرها من بين جوانح الإنسان. و يوضح هذا ابن مسعود فى حديثه الذى يقول: « تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها. ثم تنامون فلا تكتب عليكم حتى تستيقظوا » (٣)!.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير ورجال إسناده محتج بهم فى الصحيح كما فى « الترغيب ».

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير مرفوعاً وإسناده حسن ورواه فى الكبير موقوفاً، وهو أشبه كما فى الترغيب للمنذرى.

و يصوِّر الرسول لأصحابه ـ بكل وسائل التوضيح ـ عمل الصلاة فى محو الخطايا التى تبدر من الإنسان فى صباحه ومسائه، فيروى لنا عنه سلمان الفارسى: أنه كان معه تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابساً. فهزه حتى تحاتَّ ورقه، ثم قال: «يا سلمان.. ألا تسألنى لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء. ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذه الأوراق» ثم تلا الآية الكريمة:

« وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ »(١).

وليس أثر الصلوات مقصوراً على هذا الجانب من غسل الأدران، وتكفير الخطايا، ومطاردة السيئات، ولكنها تقوم بمهمة إيجابية أخرى، فإنها للحظات خصبة مباركة، تلك المرات الخمس التى ينتزع الإنسان فيها نفسه كل يوم من دنياه، دنيا الطين والحمأ المسنون، دنيا الأحقاد والصراع، وتنازع البقاء أو تنازع الفناء، ليقف بين يدى مولاه لحظات خاشعة يخفف بها من غلواء الحياة، وضغط الطين والمادة الكثيفة على القلوب والأرواح.

إنها تقوم بتغذية ذلك الجزء العلوى الإلٰهى فى كيان الإنسان، وهو المشار إليه بقوله تعالى « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى »(٢) ذلك الكائن الروحى الذى يعيش بين جوانح الإنسان، لا يكفى لتغذيته علم العلماء، ولا أدب الأدباء، ولا فلسفة المتفلسفين، ولا يغذيه إلا معرفة الله وحسن الصلة به. وهذه الصلوات الخمس هى وجبات الغذاء اليومى للروح، كما أن للمعدة وجباتها اليومية، ففى مناجاة العبد لربه فى صلاته شحنة روحية تنير قلبه، وتشرح صدره، وتأخذ بيده من الأرض إلى السماء، وتدخله إلى الله بلا باب، وتقفه بين يديه بلا حجاب، فيكلمه بلا ترجمان، و يناجيه فيناجى

---

(١) هود: ١١٤، والحديث رواه أحمد والنسائى والطبرانى، ورواة أحمد محتج بهم فى الصحيح إلا على بن زيد. كما فى الترغيب. (٢) الحجر: ٢٩.

قريباً غير بعيد، ويستعين به فيستعين بعزيز غير ذليل، ويسأله فيسأل غنياً غير بخيل، تكاد تشف روحه وتصفو نفسه، فتسمع كلام الله الذى يقول: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى قسمين ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» قال: الله عز وجل: حمدنى عبدى، فإذا قال: «ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» قال الله: أثنى علىّ عبدى، فإذا قال: «مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ» قال الله: مجدنى عبدى، فإذا قال: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» قال الله: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: «ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ» قال الله: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل» (١) ويُعَبِّر النبى صلى الله عليه وسلم عن قوة الصلة بين العبد وربه فى الصلاة فيقول: «إن الرجل إذا دخل فى صلاته أقبل الله عليه بوجهه، فلا ينصرف عنه، حتى ينقلب ــ أى يرجع ــ أو يحدث حدث سوء» (٢).

* * *

● **الصلاة نظافة وتجمل:**

ولكن الصلاة فى الإسلام ليست عبادة روحية فحسب. إنها نظافة وتطهر، وتزين وتجمل، اشترط الله لها تطهير الثوب والبدن والمكان من كل خبث مستقذر، وأوجب التطهر بالغسل والوضوء، فمفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطهور: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟» (٣).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه وقال البوصيرى فى الزوائد: رجال إسناده ثقات.

(٣) المائدة: ٦.

لقد اعتبر الإسلام النظافة من الإيمان. روى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته : « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » (١) « إن الله طيب يحب الطيب. نظيف يحب النظافة » (٢) وأثنى القرآن على أهل مسجد قُباء — أو المسجد النبوى — لحرصهم على التنظف والتطهر : « لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ » (٣)

وقد أمر المسلم أن يأخذ زينته للصلاة. ويذهب إلى المسجد طيب الرائحة، حسن الملبس، مجتنباً لكل ما يؤذى إخوانه من الروائح الكريهة أو الثياب المستقذرة. كما استحب له أن يتسوك عند كل صلاة : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » (٤).

وسن له يوم الجمعة أن يغتسل ويتطيب ويلبس أحسن ما عنده ولا يمضى إلى المسجد فى ثياب مهنته.

وهكذا كان المسلمون الأولون يعملون. كان الحسن إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه. فسئل عن ذلك فقال : إن الله جميل يحب الجمال، فأحب أن أتجمل لربى. وهو تعالى يقول : « يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » (٥).

هذا على حين كان القسيسون والرهبان فى العصور الوسطى بأوروبا يعدون الإهمال والقذارة من وسائل القربة إلى الله. والنظافة والتجمل من

---

(١) رواه ابن حبان فى الضعفاء. (٢) رواه الترمذى.

(٣) التوبة : ١٠٨.

(٤) رواه أحمد عن أبى بكر والشافعى وأحمد والنسائى وابن حبان والحاكم والبيهقى عن عائشة، وابن ماجة عن أبى أمامة. وعلقه البخارى بصيغة الجزم وصححه المنذرى والنووى وغيرهما. كما فى الفيض ٤ / ١٤٧.

(٥) الأعراف : ٣١.

عمل الشيطان، حتى إن راهباً أثنى على آخر فقال: يرحمه الله.. لقد عاش طول عمره ولم يقترف إثم غسل الرجلين! (١).

* * *

● **الصلاة رياضة بدنية:**

والصلاة تغمس فى مقيمها الروح الرياضية، وتقوى عضلات بدنه، فهى تتطلب اليقظة المبكرة، والنشاط الذى يستقبل اليوم من قبل طلوع الشمس، وهى بكيفيتها المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بالتمرينات الرياضية الفنية التى يقوم بها الرياضيون المحدثون، لتقوية الجسم ورياضة أعضائه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يقف فى الصلاة وقفة معتدلة، لا يطأطىء ولا يتماوت. وقد رأى عمر رجلا يتماوت فى صلاته فقال له: لا تُمت علينا ديننا أماتك الله.. ورأى آخر يطأطىء رقبته مظهراً الخشوع فقال له: ارفع رأسك فإن الخشوع فى القلوب، ليس الخشوع فى الرقاب.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام فى ركوعه مستوى الظهر، منتصب الساقين، وإذا سجد جافى عضديه عن فخذيه، وإذا خَرَّ من القيام للسجود أو نهض من السجود للقيام لم يعتمد على يديه.

وهكذا تكون الصلاة حركة وعملا، يشمل جوانب الشخصية كلها: فالجسم فى الصلاة يعمل قائماً قاعداً. راكعاً ساجداً، واللسان يعمل قارئاً مكبراً. مسبحاً مهللاً، والعقل يعمل متدبراً متفكراً فيما يتلو أو يُتلى عليه من قرآن. والقلب يعمل مستحضراً رقابة الله وخشيته وحبه والشوق إليه.

* * *

● **الصلاة قوة روحية ونفسية:**

والصلاة الحقيقية التي يريدها الإسلام تمد المؤمن بقوة روحية ونفسية تعينه على مواجهة متاعب الحياة ومصائب الدنيا. ولذا قال تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) راجع ما كتبناه عن تطرف الرهبانية وعتوها فى الباب السابق، تحت عنوان «التوازن بين المادية والروحية».

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ» (١)

«وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ» (٢).

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٣).

فى الصلاة يفضى المؤمن إلى ربه بذات نفسه، ويشكو إليه من بثه وحزنه. ويستفتح باب رحمته، ويستنزل الغيث من عنده «وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ» (٤).

فى الصلاة يشعر المؤمن بالسكينة والرضا والطمأنينة. إنه يبدأ صلاته بالتكبير فيحس بأن الله أكبر من كل ما يروعه ومن يروعه فى هذه الدنيا، ويقرأ فاتحة الكتاب فيجد فيها تغذية للشعور بنعمة الله «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ» وتغذية للشعور بعظمة الله وعدله «مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ» .وتغذية للشعور بالحاجة إلى الصلة بالله وإلى عونه سبحانه «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وتغذية للشعور بالحاجة إلى هداية الله «ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ» (٥).

فلا عجب أن تمد الصلاة المؤمن بحيوية هائلة. وقوة نفسية فياضة. وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ الأثر النفسى للصلاة وما يسبقها من

---

(١) البقرة: ١٥٣. (٢) البقرة: ٤٥، ٤٦.

(٣) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة: «كان إذا حزبه أمر صلى» وإسناده صالح. ومنه أخذ بعضهم ندب صلاة النازلة، وهى ركعتان عقبها، وكان ابن عباس يفعل ذلك، ويقول: نفعل ما أمرنا الله به بقوله: «**واستعينوا بالصبر والصلاة**» كذلك فى التيسير للمناوى جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٤) الشورى: ٢٨. (٥) سورة الفاتحة.

وضوء وذكر لله تعالى ، وكيف يستقبل المؤمن المصلى يومه و يبدأ حياته الجديدة كل صباح . قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإذا هو قام فذكر الله انحلت عقدة ، فإذا توضأ انحلت عقدة ثانية ، فإذا قام إلى الصلاة انحلت عقده الثلاث ، فأصبح طيب النفس نشيطاً ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » [1] .

وفى عصرنا الحديث نرى من علماء الكون والحياة طبيباً شهيراً مثل الدكتور « الكسيس كاريل » يبين لنا فى بحث له مدى هذه القوة التى يكتسبها المؤمن من الصلاة فيقول :

« لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا ، وقد رأيت بوصفى طبيباً كثيراً من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً . تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم . إن الصلاة كمعدن « الراديوم » مصدر للإشعاع ، ومولد ذاتى للنشاط ، و بالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون القوة التى لا يفنى نشاطها .

إننا نربط أنفسنا حين نصلي ، بالقوة العظمى التى تهيمن على الكون ، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة ، بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج » [2] .

هذا فى الصلاة عموماً . فكيف بصلاة الإسلام ؟ .

* * *

---

(١) رواه البخارى .

(٢) من كتاب « دع القلق » لديل كارنيجى ص ٢٩٩ ط ثانية .

• الصلاة قوة خلقية:

وفى هذه القوة مدد أى مدد لضمير المؤمن يقويه على فعل الخير، وترك الشر، ومجانبة الفحشاء والمنكر. ومقاومة الجزع عند الشر، والمنع عند الخير، فهى تغرس فى القلب مراقبة الله تعالى، ورعاية حدوده، والحرص على المواقيت، والدقة فى المواعيد، والتغلب على نوازع الكسل والهوى. وجوانب الضعف الإنسانى. وفى هذا يقول القرآن الكريم: «إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ»(١) «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ»(٢).

وما نرى من مصلين قد ضعفت أخلاقهم. أو انحرف سلوكهم فلا بد أن صلاتهم جثة بلا روح، وحركات جسم بلا حضور عقل، ولا خشوع قلب، وإنما الفلاح للمؤمنين «ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ»(٣).

أما المتظاهرون بالصلاة دون أن ترق قلوبهم، أو تفتح للخير صدورهم. فما أحقهم بوعيد الله: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ»(٤).

* * *

• صلاة الجماعة ومزاياها:

والصلاة الإسلامية ــ بعد ذلك ــ تربية اجتماعية رشيدة، ومدرسة إنسانية عالية، على نسق فريد فى تاريخ الأديان والعبادات.

---

(١) المعارج: ١٩ ــ ٢٣.
(٢) العنكبوت: ٤٥.
(٣) المؤمنون: ٢
(٤) الماعون: ٤ ــ ٧.

فالإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدى الصلاة وحده فى عزلة عن المجتمع الذى يحيا فيه، ولكنه دعاه دعوة قوية إلى أدائها فى جماعة وبخاصة فى المسجد، وهمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحرق على قوم بيوتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات (١). فإن لم تكن هذه الجماعة واجباً فهى أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة (٢) فى نظر الإسلام.

روى مسلم عن ابن مسعود قال: «من سَرَّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، وإنكم لو صليتم فى بيوتكم، كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها — أى صلاة الجماعة — إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتى به يتهادى بين الرجلين يسندانه لمرضه حتى يُقام فى الصف».

ولم يجعل الإعلام بدخول وقت الصلاة عن طريق ناقوس يدق، أو بوق ينفخ، أو نار تشتعل، كما فى ديانات سابقة. وإنما اختار لها طريقاً آخر فيه معنى الشعار والهتاف والنشيد القومى المؤثر بقوة عباراته، وطريقة إلقائه، ونصاعة معانيه: ذلك هو الأذان: «الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حىّ على الصلاة، حىّ على الصلاة. حىّ على الفلاح، حىّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله».

تنطلق بهذا النشيد الإلهى فى وقت واحد حناجر المؤذنين من فوق مآذنهم. فيستجيب المؤمنون للنداء ويجتمعون خمس مرات فى كل يوم فى مسجد حيهم.

---

(١) الحديث فى هذا متفق عليه.

(٢) جاء هذا فى حديث متفق عليه.

ثم يجتمعون على نطاق واسع فى صلاة الجمعة ، تلك الفريضة الأسبوعية التى أوجب الله فيها الجماعة إيجاباً وقال : «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (١) .

ولم يبح التخلف عنها لغير عذر « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه » (٢) « لينتهين قوم عن ودعهم ـ أى تركهم ـ الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » (٣) .

وفى هذا الاجتماع الأسبوعى تعليم وتوجيه ، وموعظة وتذكير ، وتجديد للبيعة ، وإحياء لعاطفة الأخوة ، وتركيز للوحدة ، وإظهار للقوة .

ثم يتسع النطاق أكثر فى صلاة العيدين ، فقد أراد الإسلام من هذه الصلاة أن تكون مؤتمراً جامعاً ، ومهرجاناً كبيراً يجمع أهل البلد قاطبة فى مكان واحد فى الخلاء . يذهب إليها الرجال والنساء حتى ذوات العذر منهن .

عن أم عطية قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجهن فى الفطر والأضحى : العواتق والحيّض وذوات الخدور ، فأما الحيّض فيعتزلن الصلاة و يشهدن الخير ودعوة المسلمين . قلت : يا رسول الله .. إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ . قال : « لتلبسها أختها من جلبابها » (٤) .

* * *

(١) الجمعة : ٩ .

(٢) رواه الخمسة : وحسنه الترمذى ، كما رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٣) رواه مسلم وابن ماجة وغيرهما .

(٤) متفق عليه .

• الصلاة تربية عسكرية :

وفى الجماعة نوع من التربية العسكرية التى قوامها الطاعة والنظام . وما أحوج الأمم الناشئة ــ كالعرب فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ــ أن يتعلموا عملياً طاعة الأمر، والانقياد للنظام، والخضوع للقانون، واحترام الرؤساء، وهذا ما تصنعه صلاة الجماعة .

وهل رأيت نظاماً أكمل وأجمل من صفوف الجماعة وقد وقفت مستقيمة فلا عوج، متلاصقة فلا فرجة : المنكب إلى المنكب، والقدم إلى القدم، ينذرهم إمامهم بأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، و يعلمهم أن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة وتمامها، ويحدثهم عن نبيهم : أن سدوا الفرج وسووا الصفوف، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم .

فإذا كبَّر الإمام كبَّروا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا سلَّم سلموا .

من خرج على هذا النظام فكأنما خرج على الإنسانية . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ألا يخشى إذا ركع أحدكم أو سجد قبل الإمام أن يمسخ الله رأسه رأس حمار » (١) .

لا يفسد هذا الحال إلا جندى من جنود إبليس . فهو الذى يسره الفوضى و يسوءه النظام : « الذى يركع و يسجد قبل الإمام إنما ناصيته بيد شيطان » (٢) .

* * *

• المسجد ورسالته فى الحياة :

و بأداء صلاة الجماعة فى المسجد خمس مرات فى اليوم أصبح للمسجد مكانه هامة فى الإسلام وفى حياة المسلمين فليس هو ديراً لزهبنة، ولا

---

(١) رواه الشيخان وأصحاب السنن . (٢) رواه البزار والطبرانى وإسناده حسن .

زاوية للمتعطلين، ولا تكية للدراويش. فليس فى الإسلام رهبنة ولا دروشة. ورسوله يقول لأبى ذر: «عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى» (١).

ورضى الله عن عمر حين وجد جماعة فى المسجد تلبثوا بعد صلاة الجمعة بدعوى التوكل على الله فعلاّهم بدرته، وقال كلمته الشهيرة: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة» إن الله يقول: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ» (٢).

وقد روى البخارى: أن الحبشة كانوا يلعبون بحرابهم فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم، والنبى ينظر إليهم، ويُرى عائشة أم المؤمنين لعبهم. وكأن ذلك لم يعجب عمر لشدته وصلابته، فأهوى إلى الحصباء يحصبهم بها فقال: «دعهم يا عمر»!

وبهذا الحديث استدل العلماء على جواز اللعب بالحراب فى المسجد، وقالوا: إن المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين ــ فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه (٣).

قالوا: «واللعب بالحراب ليس لعباً مجرداً، بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو..» (٤).

وما كان المسجد فى فجر الإسلام إلا جامعة شعبية للتثقيف والتهذيب، وبرلماناً محلياً للتشاور والتفاهم، ومجمعاً للتعارف والتحاب، ومعهداً للتربية العملية الأساسية.

* * *

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم (٢) الجمعة: ١٠.

(٣) إن المسجد فى الإسلام موضع للصلاة، ولكل أمر يهم جماعة المسلمين.

(٤) انظر: نيل الأوطار للشوكانى.

● **المسجد جامعة شعبية:**

وأى جامعة شعبية كالمسجد تسع الجميع فى رحابها، فى الليل والنهار والصيف والشتاء، ولا ترد طالباً شيخاً كان أم صبياً، ولا تشترط رسوماً ولا تأميناً، ولا تضع قيوداً ولا عراقيل؟.

أى جامعة كهذه تُعَلِّم قواعد العقائد، وفرائض العبادات، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وطرائق المعاملات، وتُعقد فيها للعلم حلقات تغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، وتحفها الملائكة؟.

ولم تكن حلقات المساجد مقصورة على العلم الدينى المحض، بل شملت كل ما وصل إليه العقل الإسلامى من معارف أدبية وإنسانية. فمنذ صدر الإسلام نرى حلقة كحلقة حَبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس تتسع لعلوم ومعارف مختلفة يُفرد لكل منها يوماً. ولا غرو أن نشأ العلم فى الإسلام موصولاً بالعبادة، وأن ترعرعت «الجامعات» العريقة، تحت سقوف «الجوامع». ومن منا يجهل المكانة العلمية لجامع الأزهر فى مصر، وجامع القرويين فى المغرب، وجامع الزيتونة فى تونس؟ وما قدَّمته هذه الجوامع أو الجامعات من خدمة للعلم والثقافة قروناً طويلة؟!.

* * *

● **المسجد برلمان دائم:**

وأى برلمان كهذا المسجد. ونوَّابه هم «ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ» (١).

---

(١) التوبة: ١١٢.

برلمان يعرض فيه الحاكم سياسته، ويحدد منهجه ويناقشه الشعب ويستجوبه بلا حجر ولا خوف. وهل سمعنا خطبة سياسية جامعة موجزة لرئيس دولة كالخطبة التى ألقاها أبو بكر يوم ولى الخلافة فقال :أيها الناس.. إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فسددونى، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

بيان ألقاه خليفة، يقول فلا يكذب، ويعد فلا يخلف، وسمعته أمة تسمع ولا تنسى، وتُحاسِب فلا تخشى، وكيف يخلف الخليفة أو تنسى الأمة، وبرلمانها يعقد فى كل يوم خمس جلسات، ولا يغلق بابه فى عطلة أو إجازة؟

* * *

● المسجد مؤتمر:

وأى مجمع أو مؤتمر كالمسجد يجمع خلاصة الحى فى كل صلاة، وصفوة البلد فى كل جمعة، فإن الإسلام ــ كما ذكرنا ــ قد ندب إلى صلاة الجماعة، وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وهمّ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحرق على قوم بيوتهم، لأنهم يتخلفون عن الجماعات.

دعا الإسلام أبناءه إلى الجماعة ليتعارفوا فلا يتناكروا، ويتقاربوا فلا يتباعدوا، ويتحابوا فلا يتباغضوا، ويتصافوا فلا يتشاحنوا.

لقد عرف أسلافنا قيمة المسجد ــ بوصفه مؤتمراً حافلا ــ فكانوا يعقدون فيه عقود زواجهم امتثالا للحديث الشريف: «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد، واضربوا عليه بالدف» (١).

---

(١) قال فى كشف الخفاء: رواه الترمذى عن عائشة وضعفه، لكن له شواهد، فيكون حسنا لغيره، بل صحيحاً. جـ ١ ص ١٤٥.

ولو أن مسلمي اليوم اتخذوا سلفهم أسوة في ذلك، لوفرُّوا على أنفسهم نفقات طائلة تضيع في أحفال براقة، تُبعثر فيها الأموال ابتغاء السمعة والتظاهر والتنافس الأجوف.

* * *

• المسجد معهد للتربية العلمية:

وإن سئلت فقل هو حقل تجرب في ساحته تعاليم الدين النظرية، وتوضع مبادئه الإنسانية موضع التنفيذ.

فقد كان من مزايا هذا الدين الخالد أنه لم يجعل مبادئه فكرة مجردة في الرأس، أو كلمة تجرى على اللسان، ولكنه ربطها بحياة المسلم ونظامه اليومي ربطاً لا ينفك عنه.

فالحرية والإخاء والمساواة التي جاء بها الإسلام — قبل ثورة فرنسا بإثني عشر قرناً — تراها في المسجد حقائق عملية، وأعمالا حقيقية، تعلن عن نفسها بلا صوت ولا حرف ولا ضجيج.

* * *

• الحريــة:

أما الحرية فأي حرية أعز من حرية المصلي في المسجد وهو طليق من كل عبودية إلا لله، له وحده يركع ويسجد، ولوجهه وحده يذل ويخشع، أما البشر مهما تعاظموا فهم عبيد مثله لا سلطان لهم عليه «وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا» (١).

تلك هي حرية الضمير الإنساني أولى الحريات وأعمقها.

وأما حرية الرأي والنقد فحسبك أن الإمام إذا أخطأ في قول أو فعل من أقوال الصلاة وأفعالها، كان على من وراءه من المصلين أن يصلحوا له

(١) الجن: ١٨.

أخطأ، وأن يردوه إلى الصواب، يستوى فى ذلك الشيخ والشاب والغلام، والرجل والمرأة، فإذا هذا يصحح قراءته، وذاك يقول له: سبحان الله، وتلك تصفق بيدها.. حتى يعود إلى الحق والسداد.

فإذا اعتلى الخطيب منبر المسجد فليس «ديكتاتوراً» يفرض على الناس ما يرى من آراء. ولكنهم شركاؤه فى المسئولية، عليهم أن ينبهوه إذا غفل، وأن يذكروه إذا نسى، ويسددوه إذا انحرف عن الصراط المستقيم. ولو كان هو خليفة المسلمين.

أراد أمير المؤمنين عمر أن يضع حداً أعلى للمهور، فأعلن ذلك فى المسجد فعارضته امرأة.. وقالت: كيف هذا وقد قال الله: «وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» (١) فما كان من الخليفة إلا أن رجع عن رأيه وقال فى صراحة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»!

* * *

● الإخـــــاء:

وأما الإخاء فحسبك أن المسجد يضم أهل الحى فى كل يوم خمس مرات، تتلاصق فيها الأبدان، وتتعارف فيها الوجوه، وتتصافح فيها الأيدى، وتتناجى فيها الألسن، وتتآلف فيها القلوب. ويلتقون على وحدة الغاية والوسيلة. وأى وحدة أبلغ وأعمق من وحدة المصلين فى الجماعة يصلون خلف رجل واحد هو (الإمام) ويناجون رباً واحداً هو (الله) ويتلون كتاباً واحداً هو (القرآن) ويتجهون إلى قبلة واحدة هى (الكعبة) البيت الحرام، ويؤدون أعمالا واحدة من قيام وقعود، وركوع وسجود.

---

(١) النساء: ٢٠.

وحدة نفذت إلى اللباب ولم تكتف بالقشور، وحدة فى النظرة والفكرة، وحدة فى الغاية والوجهة، وحدة فى القول والعمل، وحدة فى المخبر والمظهر. وحدة يشعرون فيها بروح الآية الكريمة «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (١)

وأى صورة أروع من المسجد النبوى فى المدينة، وقد ضم فى حناياه أجناساً شتى من غير العرب، من رومى كصهيب، وفارسى كسلمان، وحبشى كبلال، كما ضم قبائل متباينة من العرب، من قحطانيين كالأنصار، وعدنانيين كالمهاجرين. وفى هذه القبائل بطون طالما فرقت بينها العداوة والبغضاء فى الجاهلية كالأوس والخزرج.

ضم المسجد هؤلاء إلى صدره الحنون، وجمعهم فى رحابه الفيحاء، فكانوا بنعمة الله إخواناً، ينام أحدهم على الطوى ليشبع أخوه «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (٢).

ويبيت على صفاء من الغل والشحناء والسخط والكراهية، حتى لا ترتد عليه صلاته، ولا يقبلها الله منه. ففى الحديث: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أمّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان» (٣) — أى متشاحنان. ومعنى هذا أن الصلاة المقبولة لا تلائم جو الكراهية والسخط والشحناء. بحال من الأحوال.

* * *

● **المســــاواة:**

وأما المساواة فأى مساواة أوضح من تلك التى نراها فى الصفوف المتراصة فى المسجد؟ الأمير إلى جانب الخفير، والغنى بجوار المسكين، والسيد ملاصق للخادم، والعالم الفيلسوف وعن يمينه عامل، وعن شماله فلاح؟!

---

(١) الحجرات: ١٠. (٢) الحشر: ٩.

(٣) رواه ابن ماجه، وإسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال البوصيرى فى الزوائد.

فليس للمسجد لائحة تخصص الصف الأول للوزراء، والصف الثانى للنواب، والثالث للمديرين أو موظفى الدرجة الأولى أو كبار الملاّك.

وإنما الجميع سواسية كأسنان المشط الواحد. فمن بكّر فى الذهاب إلى المسجد احتل مكانته فى مقدمة الصفوف أياً كانت منزلته وعمله فى الناس.

ويقول الدكتور محمد إقبال: إن اختيار قبلة واحدة للمسلمين أُريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة، وهيئتها على العموم تحقق الإحساس بالمساواة الاجتماعية وتقوّى أواصره، بقدر ما تتجه إلى القضاء على الشعور بالطبقات أو تفوّق جنس من المتعبدين على جنس آخر.

إن ثورة روحية هائلة تحدث لو حمل البرهمى الأرستقراطى المختال فى جنوب الهند على الوقوف مع المنبوذ كتفاً إلى كتف فى كل يوم!! إن وحدة الذات المحيطة بكل شىء، التى تخلق جميع الذوات وتكتب لها البقاء، هى التى تصدر عنها الوحدة الضرورية لجميع البشر، وانقسام البشر إلى أجناس وأمم وقبائل قُصد به ــ كما جاء فى القرآن ــ سهولة التعارف لا غير.

وعلى هذا فإن صلاة الجماعة فى الإسلام إلى جانب ما لها من قيمة فكرية تشير إلى الأمل فى تحقيق الوحدة الضرورية للبشر. كحقيقة من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التى ميزت بين إنسان وآخر» (١).

ولم يملك كثير من المستشرقين أنفسهم من الإعجاب بالصلاة الإسلامية، وتأثيرها العميق فى النفس البشرية وبخاصة صلاة الجماعة التى تميز بها الإسلام والتى توحى بأسمى المبادىء الإنسانية والاجتماعية التى لم يعرفها غير المسلمين إلا فى عصر قريب.

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام لإقبال ترجمة عباس محمود ص ١٠٨.

من ذلك ما قاله الفيلسوف الفرنسى «رينان» ـ على الرغم مما له من شطحات عن الإسلام والعرب ـ : « إننى لم أدخل مسجداً من مساجد المسلمين من غير أن أهتز خاشعاً وأن أشعر بشىء من الحسرة على أنى لست مسلماً » ! ومن ذلك ما قله السير «توماس أرنولد» عن الصلاة : « هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم فى حياتهم الدينية . فكثيراً ما لاحظ السائحون وغيرهم فى بلاد الشرق ما لكيفية أدائه من التأثير فى النفوس » ثم نقل عن بعض الأساقفة كلاماً عن روعة الصلاة فى الإسلام ، ثم قال «أرنولد»: « ولننتقل من صلاة الفرد إلى صلاة الجماعة فنقول : إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى مرة فى حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصل فى وسط المسجد الجامع بمدينة « دلهى » بالهند يوم الجمعة الأخيرة من الصيام « رمضان » وكلهم مستغرقون فى صلاتهم ، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية فى كل حركة من حركاتهم ، نقول : إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى ذلك المشهد ألا يبلغ تأثره به أعماق قلبه وألا يلحظ ببصره القوة التى تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها .

على أن توقيت الأذان اليومى للصلاة بأوقات معينة حينما يرن به صوت المؤذن ، فى أبكر البكور قبل الإسفار، وعند الظهيرة والناس مضطربون ومصطخبون فى أعمالهم ، وعند الإمساء .. هذا الأذان الذى خصل فى هذه الأوقات على تلك الصورة مشحون بذلك الجلال عينه » (١) .

* * *

● مسجد الرسول فى المدينة :

عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم خطر المسجد فى الحياة الإسلامية فكان أول مشروع فكر فيه فى مدة إقامته القليلة فى بنى سالم بن عوف وهو

---

(١) من كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزميله .

في طريقه إلى المدينة ــ أن بنى مسجد قُباء، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى:
« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ..» (١).

وكان أول مؤسسة أنشأها بعد استقراره بالمدينة أن بنى مسجده العظيم. وكان يعمل فيه بيده، ويحمل أحجاره بنفسه، وهو يقول:

« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. فاغفر للأنصار والمهاجرة ».

وكان أصحابه يعملون وهم ينشدون:

لا يستوى من يعمر المساجدا يعمل فيها قائماً وقاعداً
ومن يرى من الغبار حائدا

فكان هذا المسجد النبوى مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى، ودار الدولة الإسلامية الكبرى.

تلك المدرسة التى فتحت أبوابها لمختلفى الأجناس من عرب وعجم، ومختلف الألوان من بيض وسود، ومختلفى الطبقات من أغنياء وفقراء، ومختلفى الأسنان من شيوخ وشباب وغلمان.

وفسحت صدرها للمرأة تحضر الجماعة، وتشهد دروس العلم، فى عصر كانت المرأة مخلوقاً لا حق له فى العلم، ولا فى مشاركة الرجل الحياة.

مدرسة تلقن العلم والعمل، وتطهر الروح والبدن، وتبصر بالغاية والوسيلة، وتعرف الحق والواجب، وتعنى بالتربية قبل التعليم، و بالتطبيق قبل النظريات، و بتهذيب النفوس قبل حشو الرؤوس.

فلا غرو أن تُخرِّج من الخلفاء أمثال أبى بكر وعمر وعلى، ومن القواد أمثال أبى عبيدة وخالد وعمرو، ومن القرّاء أمثال ابن مسعود

---

(١) التوبة: ١٠٨.

وأُبيّ بن كعب ، ومن العلماء أمثال زيد بن ثابت وابن عباس ، ومن فضليات النساء أمثال فاطمة وعائشة وحفصة وأم عمارة وأم سليم .

كان المسجد المحمدى مدرسة الدعوة ، وكان كذلك دار الدولة . فيه يهيئ النبى العمل للعاطل ، والعلم للجاهل ، والمعونة للفقير ، و يرشد إلى الأمور الصحية والاجتماعية . و يذيع الأنباء التى تهم الأمة ، و يلتقى بسفراء الدول ، و يرتب جنود المعارك فى الحرب ، و يبعث الدعاة والمندوبين فى السلم .

هكذا كان المسجد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظل كذلك فى عهد أصحابه ومن تبعهم بإحسان .

أيستطيع بعد ذلك منصف أن يدّعى أن الصلاة ابتهال روحى مجرد بعيد عن الحياة ، أوعمل سلبى لا تأثير له فى توجيهها وترقيتها ؟ كلا . .

ونختتم حديثنا عن الصلاة والمسجد بكلمة قيمة لباحث مسلم ، قال :

«فى المسجد تختفي فوارق المكانة والثروة والجنس واللون ، و يعم أرجاءه جو قشيب من الإخاء والمساواة والمحبة ، وإنه لأيم الحق لنعمة كبرى أن يكون فى مكنة الإنسان التمتع خمس مرات يومياً بجو من السلام التام وسط عالم يسوده الصراع والنضال . . وبجو من المساواة على حين يكون التباين هو النظام السائد . . وبجو من المحبة فى معمعة الأحقاد الوضعية والتنابذات والخصومات المفعمة بها الحياة اليومية .

إنها حقاً لأجزل النعم ، لأنها العبرة الجليّ من الحياة ، فليس للإنسان بد من أن يعمل وسط التباين والنضال والصراع ، ووسط مشاهد البغضاء والتشاحن ، ومع ذلك ينتزع المرء نفسه من كل هذا خمس مرات ليكتنه حقيقة المساواة والإخاء والمحبة ، من حيث أنها هى المصادر الحقيقية للسعادة الإنسانية .

ومن أجل ذلك كان الوقت الذى تستغرقه الصلاة غير مضيع عبثاً من ناحية الخيرية الفاعلية ، والنفع العملى للبشرية ، إذ أنه على العكس من ذلك قد استغل أحسن استغلال بتعلم تلك الدروس الجليلة التى تجعل الحياة حقاً جديرة بالعيش فيها .

وتلك الدروس فى الإخاء والمساواة والمحبة تصبح بممارستها عملياً فى الحياة اليومية دعامات لتوحيد الجنس البشرى وتخليد الحضارة الأبدية لبنى الإنسان » .

* * *

الزكــــاة

الزكاة هى العبادة المالية الاجتماعية الهامة .

وهى الفريضة الثانية فى الإسلام ، قرنها القرآن بالصلاة فى عشرات المواضع ، وذكرها تارة بلفظ الزكاة ، وطوراً بلفظ الصدقة ، وأحياناً بلفظ الإنفاق .

وفى مفتتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدى كتابه «ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » (١) وفى آيات أخر من السورة «وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ » (٢) «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٣) .

● **الزكاة فى الديانات السابقة :**

وهى فى معناها البسيط ــ معونة الفقير بجزء من المال ــ عبادة قديمة عُرفت فى الرسالات السماوية السابقة ، وذكرها الله فى وصاياه إلى رسله وفى وصايا رسله إلى أممهم . فيقول عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب : « وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ

(١) البقرة : ٣ .
(٢) البقرة : ١١٠ .
(٣) البقرة : ٢٧٧ .

فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ » (١) .

ويمتدح إسماعيل بقوله : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا » (٢) .

ويذكر الله فى مواثيقه لبنى إسرائيل « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ » (٣) « وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ » (٤) .

ويقول على لسان المسيح وهو فى مهده « وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » (٥) .

---

(١) الأنبياء : ٧٣ .
(٢) مريم : ٥٥ .
(٣) البقرة : ٨٣ .
(٤) المائدة : ١٢ .
(٥) مريم : ٣١ .

ويقول في شأن أهل الكتاب عامة « وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ »(١) .

هذه هي الزكاة في ديانات السماء، وما كان لهذه الديانات أن تنسى هذا الجانب الخلقي من رسالتها : جانب البر بالفقراء والإحسان بالمساكين .

* * *

• في العهد المكي:

ومنذ فجر الإسلام في مكة والمسلمون أفراد معدودون مُسْتخفُونَ بدينهم . مضطهدون في ديارهم ، كان هذا الجانب الإنساني الاجتماعي موضع عناية بالغة من القرآن العزيز، فالعقبة التي على كل إنسان أن يجتازها حتى يصل إلى رضاء الله تتمثل في البر بالناس من تحرير للرقيق ، وإطعام للمسكين واليتيم « فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ »(٢) .

وفي سورة الضحى وهي من أوائل ما نزل من القرآن : « فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ »(٣) وفي سورة المدثر يسجل القرآن

(١) البينة : ٤ ، ٥ .   (٢) البلد : ١١ — ١٨ .

(٣) الضحى : ٩ ، ١٠ .

اعتراف المجرمين في النار. « قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ » [1] وفي سورة الذاريات في وصف المتقين « وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » [2] وفي سورة المعارج « وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » [3] وفي سورة القلم يقص الله على المسلمين قصة أصحاب الجنة الذين اعتزموا أن يقطفوا ثمارها بليل، ليحرموا منها المساكين: « فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ » [4] وفي سورة الماعون: « أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » [5] وفي سورة الحاقة يعلل جزاء من يُسجر في الجحيم ويُسحب في السلاسل والأغلال: « إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » [6] وفي سورة فصلت ينذر الله المشركين بالويل ويجعل من أخص أوصافهم عدم إيتاء الزكاة: « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ » [7] وفي سورة الشورى يمدح الله المجتمع المؤمن: « وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » [8]

(١) المدثر: ٤٣، ٤٤.
(٢) الذاريات: ١٩.
(٣) القلم: ٢٤.
(٤) القلم: ١٩، ٢٠.
(٥) الماعون: ١ — ٣.
(٦) الحاقة: ٣٣، ٣٤.
(٧) فصلت: ٦، ٧.
(٨) الشورى: ٣٨.

وفى سورة الأنعام : « كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ » (١)
وفى سورة المزمل : « وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » (٢) هذه بعض عناية القرآن الملحة بالبر ورعاية المسكين. وأداء حق السائل والمحروم.

* * *

• الزكاة الإسلامية نظام مبتكر:

ولكن الزكاة الإسلامية المعروفة شيء يزيد على البر والإنفاق العام. والزكاة المطلقة التى شُرعت فى العهد المكى، بل شرعت فى الديانات السابقة كما ذكر القرآن. الزكاة التى شرعت فى العهد المدنى تشريع جديد، لم يسبق إليه دين سماوى، ولا تنظيم أرضى.

إنها ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان، وإيتاؤها — مع إقامة الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة — عنوان على الدخول فى الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين: « فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ » (٣). « فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ » (٤).

إنها فريضة لازمة يكفر من جحدها، ويفسق من منعها، ويُقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها. وحسبنا أن الخليفة الأول أبا بكر جَهَّزَ أحد عشر لواء لمقاتلة قوم امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته الشهيرة: « والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة. والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ».

(١) الأنعام: ١٤١
(٢) المزمل: ٢٠.
(٣) التوبة: ٥
(٤) التوبة: ١١.

والزكاة فى الإسلام ليست « تبرعاً » يتفضل به غنى على فقير أو يحسن به واجد إلى معدوم . إنها أبعد من ذلك غوراً ، وأوسع أفقاً .

إنها جزء هام من نظام الإسلام الاقتصادي ، ذلك النظام الفريد الذى عالج مشكلة الفقر أو مشكلة المال على وجه عام ، قبل أن تعرف الدنيا نظاماً عنى بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان .

حدَّد الإسلام الأموال التى تجب فيها الزكاة والحد الأدنى لما يجب فيه الزكاة ، ومتى تجب الزكاة على المال ، والمقدار الذى يجب إخراجه على كل منها .

فهناك مال يجب فيه العشر كالزروع التى يخرجها الله من الأرض بغير جهد يُذكر من الإنسان .. فإن كانت تُسقى بالآلات كان فيها نصف العشر ، وهذه الزكاة تجب فى كل زرعة .

وهناك مال يجب فيه ربع العشر (٢,٥ بالمئة) كالنقدين ــ الذهب والفضة ــ وعروض التجارة مقوّمة بأحد النقدين . وهذه الزكاة تجب فى المال كلما حال عليه الحول ــ اثنا عشر شهراً قمرياً .

وهناك مال يتمثل فى الحيوانات مثل الإبل والبقر والغنم وقد وضع الإسلام لها نظاماً خاصاً .

والحكمة فى تفاوت المقادير المطلوبة من الزكاة : أنه كلما كان جهد الإنسان فى المال أقل . وعمل القدرة الإلهية أظهر ، كانت النسبة الواجبة أكثر .. والعكس بالعكس .

ولقد التفت إلى ذلك الإمام ابن القيم ونبّه عليه فى « زاد المعاد » فقال : « إنه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعى أرباب الأموال فى تحصيلها ،

وسهولة ذلك ومشقته، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلاً من الأموال، وهو الركاز — وهو الكنوز المدفونة من عهود بعيدة (ومثله المعدن كالحديد والذهب والنحاس وغيرها) — ولم يعتبر له حولاً، بل أوجب فيه الخمس متى ظُفِرَ به.

وأوجب نصفه — وهو العشر — فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك في الثمار والزروع، التي باشر حرث أرضها وبذرها، ويتولى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد ولا شراء ماء، ولا إثارة بئر ودولاب.

وأوجب نصف العشر فيما تولى العبد سقيه بالكلفة والدوالي والنواضح — المواشي — وغيرها وأوجب نصف ذلك — وهو ربع العشر — فيما كان النماء فيه موقوفاً على عمل متصل من رب المال بالضرب في الأرض تارة وبالإدارة تارة، وبالتربص تارة. ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار. وأيضاً فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة فكان واجبها أكثر من واجب التجارة (١). وظهور النمو فيما يُسقى بالماء أكثر مما يُسقى بالدوالي والنواضح..».

وقد أعفى الإسلام من ضريبة الزكاة المال القليل، وجعل لكل نوع من المال نصاباً معيناً أو حداً أدنى لا تجب الزكاة إلا فيما زاد عنه وفضل عن حاجة صاحبه.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة: «وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ» (٢).

---

(١) هذا غير مسلم دائماً فقد يدور رأس المال في التجارة أكثر من مرة ويحقق ربحاً كثيراً، لهذا كانت الزكاة في التجارة على رأس المال والربح وفي الزرع على الغلة وحدها.

(٢) البقرة: ٢١٩.

غير أن الإسلام لم يرفع هذا الحد الأدنى بحيث لا تجب الزكاة إلا على أرباب الثروات والقناطير. وإنما جعله بحيث يتيح الفرصة لمعظم المسلمين أن يُسهموا فى تأمين المجتمع، ومواساة الضعفاء، وحماية المصالح العامة للمسلمين.

* * *

● **الزكاة تجبيها الدولة:**

فلا يذهبن الظن بأحد أن الزكاة من الغنى تفضل وامتنان، ومن الفقير «شحاذة» وهوان، فليس بين الغنى والفقير تعامل مباشر فى الزكاة كما شرعها الإسلام: وإنما الحكومة هى نائبة عن الفقير فى أخذ الزكاة من الأغنياء.

ولهذا قال تعالى لرسوله: «خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا» (1) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه والياً ومعلماً إلى اليمن: «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد إلى فقرائهم» (2).

وأول ما يدل عليه هذا التعليم النبوى «أن الزكاة فى نظر الإسلام ليست إلا صرف بعض أموال الأمة، ممثلة فى أغنيائها، إلى الأمة نفسها ممثلة فى فقرائها. وبعبارة أخرى: ليست إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهى اليد المشرفة التى استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرف فيه — وهى يد الأغنياء — إلى اليد الأخرى، وهى اليد العاملة الكادحة التى لا يفى عملها بحاجتها، أو التى عجزت عن العمل وجُعل رزقها فيه ومنه، وهى يد الفقراء» (3).

---

(1) التوبة: ١٠٣. (2) رواه الشيخان.
(3) من كتاب «الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ شلتوت.

الحكومة هى التى تجبى الزكاة [١] وقد أكد الإسلام ذلك فجعل ضمن مصارفها سهماً لجباتها « العاملين عليها » . وإنما وَكَلَ الإسلام جباية الزكاة إلى الدولة لا إلى ضمائر الأفراد وحدها لعدة أسباب :

أولا : أن كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم أو يصيبها السقم والهزال ، فلا ضمان للفقير إذا تُرِكَ حقه لمثل هؤلاء .

ثانياً : فى أخذ الفقير حقه من الدولة لا من الغنى حفظ لكرامته وصيانة لماء وجهه أن يُراق بالسؤال إلى ذى مال .

ثالثاً : إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى ، فقد ينتبه أكثر من غنى لإعطاء فقير ، على حين يغفل عن آخر ، فلا يفطن له أحد ، وربما كان أشد فقراً .

رابعاً : إن صرف الزكاة ليس مقصوراً على الفقراء أو الأفراد فمن الجهات التى تُصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يُقدِّرها الأفراد ، وإنما يُقدِّرها أولوا الأمر فى الجماعة المسلمة ، كإعطاء المؤلفة قلوبهم ، وإعداد العدة والعدد للجهاد فى سبيل الله [٢] .

* * *

• بيت المال ملك الأمة :

وإلى أين تذهب أموال الزكاة بعد جمعها وجبايتها ؟

إنها تذهب « إلى بيت المال » وهو الخزانة العامة التى تُجمع فيها موارد الدولة الإسلامية من زكاة وفىء وغنائم وخراج وغيرها ، وإن كانت الزكاة

---

(١) نص العلماء على أن الإمام أو السلطان إذا كان جائراً لا يضع الصدقات فى مصارفها الشرعية فالأفضل لمن وجبت عليه أن يؤديها لمستحقيها بنفسه .

(٢) لزيادة الاستيضاح انظر كتابنا « فقه الزكاة » جـ ٢ باب « طريقة أداء الزكاة » فصل « علاقة الدولة بالزكاة » ص ٧٤٧ — ٧٩١ .

تختص ببيت مال مستقل، ولا تخلط ببيوت المال الأخرى، حتى يبقى حق الفقراء مضموناً، ونصيبهم مصوناً، فلا تطغى عليه حاجات المصارف الأخرى العامة ومطالبها. وهذا ما جرى عليه العمل ونص عليه جمهور الفقهاء.

وقد زعم بعض خصوم الإسلام أن للخلفاء المسلمين أن ينفقوا من بيت المال ما يشاءون فيما يشاءون وكأنه خزانة خاصة لهم. وهو زعم لا أساس له من تعاليم الإسلام. فبيت المال لجماعة المسلمين، والخليفة أو السلطان إنما هو خازن أمين، وليس له منه إلا ما يستحقه من راتب بالمعروف، هذا هو مسلك الراشدين المهديين الذين أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نتبع سنتهم وأن نعض عليها بالنواجذ.

فهذا أبو بكر الصديق حين بويع بالخلافة ذهب إلى السوق كعادته ليتاجر ويقوت نفسه وأهله، فلقيه عمر فقال له: إلى أين؟ قال: إلى السوق. قال عمر: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: من أين أطعم عيالى؟ فقال عمر: انطلق يفرض لك أبو عبيدة أمين بيت المال.. فانطلق إلى أبى عبيدة فقال للخليفة: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف: إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره!!

وهذا عمر يقول: «ألا أخبركم بما أستحل من مال الله؟ حلتين: حلة الشتاء والقيظ ـ الصيف ـ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ـ الركوبة ـ وقوت أهلى كرجل من قريش، ليس بأغناهم ولا أفقرهم. ثم أنا رجل من المسلمين يصيبنى ما يصيبهم».

ويروى عنه أنه قال: إنما أنا وهذا المال كولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

ويرسل عمر إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم، فقال عبد الرحمن: أتستسلفنى وعندك بيت المال؟ ألا تأخذ منه ثم ترده؟ فقال

عمر: إنى أتخوف أن يصيبنى قدرى فتقول أنت وأصحابك: اتركوا هذا لأمير المؤمنين، حتى يؤخذ من ميزانى يوم القيامة، ولكنى أتسلفها منك لما أعلم من شحك، فإذا مت جئت فاستوفيتها من ميراثى »!.

وهذا علىٌّ يدخل عليه بعض الناس فلا يجد عليه إلا قطيفة خَلقة، وهو يرعد فيها من البرد، فيقول: يا أمير المؤمنين.. إن الله تبارك وتعالى قد جعل لك ولأهل بيتك فى هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك! فقال: إنى والله ما أرزؤكم شيئاً »! (١)

فمن ذا الذى يزعم بعد ذلك أن الزكاة تجمع فى بيت المال لينفقها الخلفاء والحكام فيما يشتهون؟!

على أن هدى الإسلام فى الزكاة أن توزع أولا فى الأقاليم التى جمعت منها، كما نبهت على ذلك السنة: «تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم» (٢) وعن عمران بن حصين أنه استعمل على الصدقة فلما رجع قيل له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتنى؟ أخذناه من حيث كنا نأخذه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناه حيث كنا نضعه» (٣).

فإذا فضل شىء من الزكاة عن حاجة أهل البلد جاز نقله إلى من يستحقه فى مكان آخر أو إلى بيت المال المركزى. وقد روى أبو عبيد: أن معاذاً بعث إلى عمر من اليمن بثلث الزكاة، فأنكر ذلك عمر وقال: لم أبعثك جابياً، ولا آخذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فترد على فقرائهم، فقال معاذ: ما بعثت إليك بشىء وأنا أجد أحداً يأخذه منى (٤).

فليس من سياسة الإسلام أخذ الأموال من القرى لتنفق على العواصم الكبرى، وإنما تنفق الزكاة حيث جمعت، وهذا ما يقضى به العدل، وحسن

(١) هذه الآثار عن موقف الخلفاء من بيت المال ذكرها أبو عبيد في الأموال ص ٢٦٦ وما بعدها.
(٢) رواه الشيخان وقد تقدم.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) الأموال.

التنظيم والتوزيع، وإشعار الفقير فى كل بلد بأن له نصيباً فى هذا المال الذى يراه، فيحرص عليه.. وهذا ما جعل الناس فى عصرنا ينتبهون إلى نظام «الإدارة المحلية» وينتفعون بمزاياه.

* * *

• فيم تصرف الزكاة ؟.. وإلى من؟

هذا إلى أن الإسلام قد حدد الجهات التى تصرف إليها وفيها الزكاة، فلم يدعها لأهواء الحاكمين ينفقون منها على مظاهر الترف لهم، أو على الأتباع والأنصار من حولهم، ولم يدعها كذلك لرغبات الطامعين فيها وهم لا يستحقونها.

وفى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلعت أعين جماعة من المنافقين إلى أموال الصدقات وسال لعابهم لأخذها. وفيهم قال تعالى:

«وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ..» [1].

ثم بين الله تعالى مصارف الزكاة بقوله: «إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [2].

وهكذا تولى الله بنفسه فى كتابه توزيع الزكاة، فليس لبشر بعد ذلك أن يحولها عن مصارفها الثمانية إلى مصارف تخدم هواه ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(١) التوبة: ٥٨.

(٢) التوبة: ٦٠.

أول هذه المصارف ــ أو الأصناف ــ هم «الفقراء» وثانيهما «المساكين» وهم صنفان لنوع واحد من المستحقين من أهل الفاقة والاحتياج. وإذا ذكر أحدهما منفرداً فى نص أريد به ما يشمل الآخر، فإذا اجتمعا ــ كما فى هذه الآية ــ فالأرجح أن يراد بالفقير المحتاج الذى لا يملك شيئاً أو يملك ما دون النصاب. والمسكين محتاج أحسن حالاً وأكثر تجملاً وسكوناً من الصنف الآخر.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفف. إقرأوا إن شئتم «لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا» (١) ــ وفى رواية: «ليس المسكين الذى يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان. ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس» (٢).

وهذا الحديث يكشف لنا النقاب عن مسألة هامة، فكثيراً ما يحصر الناس صورة المسكين أو الفقير أو ذلك الشخص المشهور بالفقر، المتظاهر بالمسكنة، الماد يده بالسؤال. ولكن المسكين الذى نبه رسول الله الناس عليه يشمل كثيراً من أصحاب البيوت، وأرباب الأسر المتعففين، الذين أخنى عليهم الزمن، أو ضاقت موارد رزقهم عن سد حاجاتهم، أو كان دخلهم من عملهم لا يكفى مطالبهم المعقولة. فلا بأس أن يُعطى هؤلاء من مال الزكاة. ولقد سأل رجل الحسن البصرى عن الرجل تكون له الدار والخادم، أفيأخذ الصدقة؟ قال: يأخذ الصدقة إن احتاج ولا حرج!!

وليس المقصود أن يعطى درهماً أو درهمين، فيظل دائماً محتاجاً خاوى الكفين، وإنما المقصود أن يعطى ما يسد عوزه، ويقضى حاجته. قال عمر:

---

(١) البقرة: ٢٧٣.　　(٢) متفق عليه.

إذا أعطيتم فأغنوا ... وأعطى رجلاً ثلاثاً من الإبل ليغنيه من العيلة، حين ذكر له هلكة عياله. وقال: كرروا عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل. وقال القاضي عبد الوهاب: لم يحد مالك لذلك حداً! فإنه قال: يُعطى من له المسكن والخادم والدابة ــ الذى لا غنى له عنه.

فالأولى أن يعطى التاجر ما يستأنف به تجارته. ويعطى الصانع ما يشترى به أدوات صنعته.. وهكذا. قال الفقيه التابعى الجليل عطاء: إذا أعطى الرجل زكاة ماله أهل بيت من المسلمين فجبرهم فهو أحب إلى.

وقد قال أبو عبيد ــ فى كتابه القيم «الأموال» ــ بعد أن ذكر هذه الآثار وغيرها عن الصحابة والتابعين: فكل هذه الآثار دالة على أن مبلغ ما يعطاه أهل الحاجة من الزكاة ليس له وقت ــ أى حد ــ محظور على المسلمين ألا يعدوه إلى غيره. وإن لم يكن المعطى غارماً. بل فيه المحبة والفضل، إذا كان ذلك على جهة النظر من المعطى بلا محاباة ولا إيثار هوى، كرجل رأى أهل بيت من صالحى المسلمين أهل فقر ومسكنة، وهو ذو مال كثير، ولا منزل لهؤلاء يأويهم ويستر خلتهم فاشترى من زكاة ماله مسكناً يكنهم من كلَب الشتاء وحر الشمس. أو كانوا عراة لا كسوة لهم ــ فكساهم ما يستر عوراتهم فى صلاتهم ويقيهم من الحر والبرد. أو رأى مملوكاً عند مليك سوء قد اضطهده وأساء ملكته، فاستنقذه من رقه، بأن يشتريه فيعتقه، أو مر به ابن سبيل بعيد الشقة، نائى الدار، قد انقطع به، فحمله إلى وطنه وأهله بكراء أو شراء.

«هذه الخلال وما أشبهها، التى لا تُنال إلا بالأموال الكثيرة، ولم تسمح نفس الفاعل أن يجعلها نافلة، فجعلها من زكاة ماله، أما يكون هذا مؤدياً للفرض؟ بلى.. ثم يكون محسناً إن شاء الله. وإنى لخائف على من صدّ مثله عن فعله، لأنه لا يجود بالتطوع، وهذا يمنعه بفتياه من الفريضة، فتضيع الحقوق ويعطب أهلها».

وليست الزكاة تشجيعاً للبطالة ، ومعاونة لطائفة مرتزقة ــ كما يظن من لا يعرفون ــ كلا .. فقد قال رسول الإسلام : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سوى » (١) ــ المرة : القوة والشدة ــ والسوى : السليم الأعضاء .

وجاء رجلان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، وهو يقسم الصدقة ، فسألاه منها ، فرفع فيهما البصر وخفضه ، فرآهما جلدين ــ قويين ــ فقال : « إن شئتما أعطيتكما ، ولاحظ فيها لغنى ، ولا لقوى مكتسب » (٢) .

وإنما خيرهما الرسول ، لأنهما قد يكونان قويين فى ظاهر أمرهما ، ولكنهما غير مكتسبين أو يكتسبان ما لا يكفيهما .

فالواجب على كل مسلم أن يعمل ، والواجب على الدولة أن تهىء له ما يناسبه من عمل ، فإن عجز عن عمل يقوم بكفايته ، فلن يهلك فى مجتمع مسلم . بل تقوم الزكاة له بإيفائه حاجاته المعقولة .

• **والصنف الثالث** من مستحقى الزكاة هم : العاملون عليها . سواء أكانوا عاملين على جمعها من مالكى النصاب . وهم الجباة ، أم عاملين على حفظها وهم الخزنة ، أو عاملين على حراستها أو كتابتها فى دواوين وما إلى ذلك ، أو عاملين على توزيعها على مستحقيها ، وصرفها فى مصارفها الشرعية .

• **والصنف الرابع** هم « المؤلفة قلوبهم » وهم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم بالإستمالة إلى الإسلام ، ليسلموا ، أو لتثبت أقدامهم فيه ، أو رجاء نفعهم فى الدفاع عن المسلمين ، أو كفاً لشرهم عنهم . وقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم بعض من كان يرجو إيمانه من الكفار كصفوان ابن أمية أحد أشراف الجاهلية وأجوادها وفصحائها . وقد أسلم وحسن

---

(١) رواه أبو داوود والترمذى وصححه .
(٢) رواه أبو داوود والنسائى .

إسلامه، كما أعطى بعض زعماء القبائل كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وقد رجا بإعطائهم تثبيتهم وتقوية إيمانهم، والانتفاع بهم فى حرب المشركين.

ووجود هذا الصنف يرجع إلى إمام المسلمين وأهل شوراه، فإن رأى أن يتألف قوماً لمعنى من المعانى التى ذكرناها كان له أن يعطيهم سهماً من مال الزكاة. وإن لم يجد ضرورة لذلك ــ كما فعل عمر ــ فليس بمفروض عليه أن يخلق هذا الصنف، فيسقط سهمهم لعدم وجودهم، كما إذا لم يوجد الفقراء أو الغارمون، أو الرقاب.

وبهذا نتبين خطأ من يزعمون أن عمر عطَّل نصاً من كتاب الله ــ وحاشاً له ــ وإنما عطل التأليف ــ وهذا من حقه ــ لقوم طامعين قد أغنى الله عنهم.

ويمكن أن يُنفق السهم فى عصرنا للتبشير بالإسلام كما يصنع مخالفو المسلمين، ويمكن أن يعطى منه «قوم من المسلمين يتألفهم الكفار ليدخلوهم تحت حمايتهم أو فى دينهم، فإنا نجد دول الاستعمار الطامعة فى استعباد جميع المسلمين وفى ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم سهماً للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من الإسلام، ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول فى حمايتهم، أو مشاقة الدول الإسلامية، أو الوحدة الإسلامية... أفليس المسلمون أولى بهذا منهم» ؟!!.

● **والمصرف الخامس:** «فى الرقاب» أى فى تحرير رقاب الأرقاء وتخليصهم من الرق. وقد جاء الإسلام والرق ضارب أطنابه فى العالم كله، فلم يكن من السهل أن يلغيه بجرة قلم. بل وضع من التعاليم والتوجيهات ما يلغيه من الحياة بهدوء وتدرج حكيم. وكان من الوسائل التى اتخذها الإسلام لإلغائه أو تضييق نطاقه جعله تحرير الرقبة من أفضل القربات إلى الله،

وجعله كذلك كفارة لكثير من الأخطاء التى يتورط فيها المسلم كالحنث فى اليمين، ثم أمر المسلمين أمراً عاماً أن يكاتبوا أرقاءهم على مبالغ من المال يؤدونها على أقساط ــ ما داموا قد علموا فيهم الخير ــ كما أمر المسلمين جميعاً أن يعاونوا هؤلاء المكاتبين على أداء ما التزموا به وفى هذا يقول القرآن:

«وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ» (١).

ولم يدع الإسلام هذا الأمر الهام ــ أمر تحرير الرقيق ــ للأفراد وحدهم، بل ألقى على عاتق الدولة نصيباً منه. وذلك حين جعل من أموال الزكاة سهماً ينفق منه على تحرير الرقيق بإعانة المكاتبين على وفاء أقساطهم، أو بشراء بعض الرقاب لعتقها: وهذا أول تشريع عملى تعرفه الإنسانية لتحرير أولئك المستعبدين. وليس بالهين أن يرصد الإسلام لهذا الغرض ثمن مال الزكاة ــ أو أكثر ــ وهو مقدار قد يبلغ الملايين فى كل عام، وقد ترصد الزكاة كلها لهذا الغرض فى بعض الأحيان. كما حدث فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فى صدقات افريقية.

● **والصنف السادس:** «الغارمون» وهم الذين ركبتهم ديون مرهقة تعذر عليهم أداؤها. على أن تكون هذه الديون فى غير معصية الله، وفى غير سفاهة وإسراف. فإن العاصى لا يُعان بمال الله على معصية الله، والسفيه لا يعان أيضاً على سفهه، إلا إذا تابا إلى الله واستقاما وعرفت توبتهما واستقامتهما. والإسلام يكره للمسلم أن يستدين. فإذا استدان ــ بسبب مشروع ــ عاونه على التخلص من ربقة الدين. فالدين هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار. والإسلام لا يحب للمسلم هماً ولا ذلاً. إنه يقيله من عثرته، وينتشله من وهدته، ولا يتركه يسقط فريسة الديون ويعلن إفلاسه.

---

(١) النور: ٣٣.

وهكذا يأخذ الإسلام بيد الغارم المجهود، ولا يكلفه بيع حوائجه الأصلية ليسدد ما عليه، ويعيش فارغاً من المقومات الأساسية للحياة، محروماً من كل أثاث ومتاع يليق بمثله. كلا.. فقد كتب عمر بن عبد العزيز فى خلافته إلى ولاته: أن اقضوا عن الغارمين. فكتب إليه من يقول: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث ــ أى وهو مع ذلك غارم فكتب عمر: إنه لا بد للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه. ومن أن يكون له الأثاث فى بيته.. نعم فاقضوا عنه فإنه غارم»!

ومن الغارمين فئة من أصحاب القلوب الكبيرة عرفها المجتمع العربى والإسلامى، كان الواحد من هؤلاء يتقدم لإصلاح ما بين أسرتين أو قبيلتين، ويلتزم دفع ما يقتضيه الصلح من ديات وغرامات، لتخمد نار الفتنة، وتسود السكينة والسلام. فكان من فضل الإسلام أن يُعان هؤلاء من الزكاة على ذلك الهدف النبيل.

ويروى لنا الإمامان أحمد ومسلم عن قبيصة بن مخارق الهلالى قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها»، ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك ــ أى يكف عن السؤال ــ ورجل أصابته جائحة ــ أى كارثة ــ اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ــ أو قال: سداداً من عيش ــ ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة. فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ــ أو قال سداداً من عيش ــ فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتاً».

وإنها لروعة من الإسلام أن يمد بالمال كل غارم لإصلاح ذات البين وإقرار السلام والوئام، وروعة منه أن يمد بالمال والمعونة أصحاب الكوارث

والجوائح ويأخذ بيدهم لينهضوا، قبل أن تعرف الدنيا بقرون نظام التأمين على الأشياء والممتلكات ضد الحوادث والأخطار.

وروعة منه أن يفتح ذراعيه، بالمعونة للفقير الذى يشهد ثلاثة من ذوى الحجا من قومه أنه قد أصابته فاقة، لا لكل من يظهر الفاقة ويدعى المسكنة.

وروعة ثم روعة أن يجعل الغاية من إعطاء هذا وذاك أن يصيب قواماً من عيش أو سداداً من عيش – أى ما يقوم بمعيشته ويسد خلته لا مجرد لقيمات يقيم بها صلبه.

● **والمصرف السابع**: «فى سبيل الله» وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته، وأول ما يتبادر إلى الذهن منه هو الجهاد والقتال لكثرة اقترانه فى القرآن والسنة بكلمة «فى سبيل الله» ويدخل فيه إعداد العدة وتجهيز المجاهدين، وإعطاؤهم منها وإن كانوا أغنياء، ما لم يكن لهم راتب من الدولة. والمراد بالجهاد هنا: الجهاد الإسلامى، الذى حدده النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (١).

ويرى بعض العلماء أن هذا المصرف يشمل كل مصلحة عامة يتحقق بها للمسلمين خير عام لملتهم أو جماعتهم. كعمارة المساجد، وبناء المدارس الإسلامية ونحو ذلك.

وأرى أن يقتصر هذا المصرف على الجهاد الإسلامى وما فى معناه من كل عمل يُقصد به رفع راية الإسلام ونصرة دعوته، وتحكيم شريعته فى الأرض وإعلاء نظامه على كل نظام (٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا المصرف فى كتابنا «فقه الزكاة» جـ ٢ ص ٦٣٥ – ٦٦٩.

• **والصنف الثامن** : « ابن السبيل » وهو المنقطع عن ماله وإن كان من أهل الغنى واليسار في بلده، فقد قدّر الإسلام حاجته، وأكرم غربته، بفرضه له هذا السهم من الزكاة. ويدخل فى ذلك اللاجئون المضطهدون من المسلمين الذين فروا من ظلم الحكام الكفرة أو أشباه الكفرة.

هذه هى المصارف الثمانية التى حددها القرآن للزكاة [1]. وهى مصارف إسلامية محضة، فلا تصرف الزكاة إلا للمسلمين المستحقين وفى المصالح العامة لملة الإسلام، وجماعة المسلمين.

كما أنها لا تؤخذ إلا من المسلمين، إذ هى عبادة وشعيرة، قبل أن تكون ضريبة. ومن أجل ذلك لم يفرضها الإسلام على غير المسلمين ممن يعيشون فى كنفه ويستظلون بحكمه، فإن العبادات والشعائر لا يُكلف بها إلا المسلمون.

وبذلك نعلم أن أموال الزكاة لا تُضاف إلى « الميزانية العامة » للدولة فتذوب فى غمارها، وتتسرب فى مسارب نفقاتها المتشعبة الكثيرة، بل تبقى لها ميزانيتها الخاصة لتنفق فى مصارفها الخاصة. كما أوضحها القرآن.

* * *

• **الزكاة حق لا تفضل :**

ومن هذا كله نعلم أن الزكاة ليست تفضلا وإحساناً من إنسان إلى آخر وإنما هى « حق معلوم » كما قال الله تعالى.

(١) فصلنا القول في أحكام هذه المصارف وأسرارها فى الباب الرابع من كتابنا « فقه الزكاة » فمن أراد التوسع فليرجع اليه.

● **حق الفقيــر :**

هى حق الفقير بوصفه أخاً للغنى فى الدين والإنسانية ، فقد جعل الإسلام المجتمع كالأسرة الواحدة يكفل بعضهم بعضاً ، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله . فمن حق الفقير الذى لا يستطيع أن يعمل ، أو يستطيع ولا يجد عملاً ، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله ، أو يجد ولكن حَلَّ به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة .. من حقه أن يُعان ويشد أزره ويؤخذ بيده . وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكو التخمة ، وإلى جواره من طال حرمانه حتى أنّ من الجوع .

ولا يجوز للمؤمن أن يعيش فى دائرة نفسه مغفلا واجبه نحو الآخرين من ضعفاء ومساكين ، فهذا نقص فى إيمانه ، موجب لسخط الله فى الدنيا والآخرة . وفى هذا يقص علينا القرآن مشهداً من مشاهد الآخرة بين أهل اليمين فى الجنة وأهل الشمال فى النار ، فأصحاب اليمين « فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ » (١) فهنا كان ترك إطعام المسكين من موجبات الخلود فى سقر . وأروع من ذلك وأعجب أن القرآن لا يكتفى بإيجاب إطعام المسكين — ومثل إطعامه كسوته ورعاية ضروراته وحاجاته — بل يزيد على ذلك فيجعل فى عنق كل مؤمن حقاً للمسكين أن يحض غيره على إطعامه ورعايته ، ويجعل ترك هذا الحض من لوازم الكفر بالله ، والتكذيب بيوم الدين . نقرأ فى هذا قول الله تعالى :

---

(١) المدثر : ٤٠ — ٤٤ .

«أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ» (١) فقهر اليتيم وإهمال الحث على رعاية المسكين جُعلا دليلاً على أن القلب خلو من الإيمان بالآخرة والتصديق بالجزاء، وما كان لمثل هذا الشخص من صلاة فهى صلاة الساهين المرائين.

ويقول تعالى في شأن أصحاب الشمال: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ» (٢) ثم يصدر الله عليه الحكم الذى يستحقه: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ» (٣) ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد: «إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ» (٤).

ولم تر الدنيا كتاباً كالقرآن يجعل إهمال الحث على العناية بالمسكين من موجبات الجحيم. والعذاب الأليم.

* * *

● حق الجماعة:

والزكاة — مع أنها حق الفقير — حق الجماعة أيضاً، فالإنسان لم يكسب المال بجهده وحده، بل شاركت فيه جهود وأفكار وأيد كثيرة،

(١) الماعون: ١ — ٧.
(٢) الحاقة: ٢٥ — ٢٩.
(٣) الحاقة: ٣٠ — ٣٢
(٤) الحاقة: ٣٣، ٣٤

بعضها عن قصد، وبعضها عن غير قصد، بعضها ساهم من قريب، وبعضها ساهم من بعيد، وكلها أسباب عاونت فى وصول المال إلى ذى المال. فإذا نظرنا إلى التاجر مثلا كيف جمع ماله وحقق كسبه؟ رأينا للمجتمع عليه فضلاً كبيراً. فمن يشترى؟ ولمن يبيع؟ ومع من يعمل؟ وبمن يسير إذا لم يكن المجتمع؟ وهكذا الزارع والصانع وكل ذى مال. فمن حق المجتمع ممثلا فى الدولة التى تشرف عليه وترعى مصالحه، وتسد خلات أفراده أن يكون لها نصيب من مال ذى المال. فلو لم يكن فى المجتمع المسلم أفراد فقراء أو مساكين لوجب على المسلم أن يؤدى زكاته ولابد؛ لتكون رصيداً للجماعة، تنفق منه عند المقتضيات، ولتبذل منه «فى سبيل الله» وهو مصرف عام دائم مادام فى الأرض إسلام.

* * *

● حق الله :

والزكاة بعد ذلك ــ وقبل ذلك ــ حق الله تعالى؛ فالله هو المالك الحقيقى لكل ما فى الكون أرضه وسمائه، والمال فى الحقيقة ماله، لأنه خالقه وواهبه وميسر سبله، ومانح الإنسان القدرة على اكتسابه.

إذا زرع الإنسان زرعاً فأنبت حباً، أو غرس غرساً فآتى ثمراً فكم يوازى عمل يده فى الحرث والسقى والتعهد بجانب عمل يد الله الذى جعل الأرض ذلولا، وأنزل الماء من السماء مطراً؟، وأجراه فى الأرض نهراً، وهيأ للحبة فى باطن التراب غذاءها حتى صارت شجرة مورقة مثمرة؟ ألا ما أقل عمل الإنسان وجهده بجانب رعاية الله!.

ثم ما عمل الإنسان إذا لم يهبه الله الأدوات التى بها يعمل، والعقل الذى يفكر ويدبر؟.

ولهذا يبين القرآن فضل الله على عباده، ويرد الحق إلى نصابه، فيقول:
«أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ

جَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » ؟! (١) .

ويقول فى سورة أخرى : « فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا » (٢) .

وفي سورة ثالثة يقول : « وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟! » (٣) .

نعم .. « أفلا يشكرون » وهم يأكلون من ثمار لم تعملها أيديهم وإنما عملتها يد الله ، الله الذى أحيا الأرض الميتة وأخرج منها الحب ، وأنشأ الجنات وفجّر العيون .

وليس عمل يد الله فى الزراعة فحسب ، بل فى كل ناحية من الحياة : زراعة أو تجارة أو صناعة أو غيرها . ففى الصناعة مثلا نجد المادة الخام من خلق الله لا من إنتاج الإنسان ، ومن هنا امتن الله على الناس بمادة الحديد

---

(١) الواقعة : ٦٣ ــ ٧٠ .
(٢) عبس : ٢٤ ــ ٢٨ .
(٣) يس : ٣٣ ــ ٣٥ .

فقال: « وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ » (١) والتعبير بـ «أنزلنا» يعنى أن الله خلقه بتدبير سماوى علوى لا دخل للإنسان فيه.

ونجد الاهتداء إلى الصناعات من إلهام الله وتعليمه للإنسان ما لم يكن يعلم كما قال تعالى عن نبى الله داوود « وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ » ؟ (٢).

والنتيجة من هذا أن المال رزق يسوقه الله للإنسان فضلا منه ونعمة، ومهما ذكر الإنسان عمله وجهده فليذكر عمل القدرة الإلٰهية فى الإيجاد والإمداد. فلا غرابة بعد هذا أن ينفق الإنسان ــ عبد الله ــ بعض ما رزقه الله، على إخوانه عباد الله، قياماً للواجب المنعم بحق الشكر على نعمائه.

ومن أجل هذا يقول الله فى كتابه « أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم » (٣) « وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » (٤) ويقرر أن المال مال الله والإنسان ما هو إلا مستخلف فيه أو موظف مؤتمن على تنميته وإنفاقه والانتفاع والنفع به، يقول تعالى: « وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ » (٥) « وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » (٦).

وهذا المعنى فى الزكاة ــ أنها حق الله ــ هو الذى يميزها عن الضريبة فى النظم المادية الأخرى. إنها ضريبة وعبادة معاً.. ضريبة: لأنها حق محدد مقرر لا تهاون فيه، تتولى الدولة المسلمة جبايته وتوزيعه. وعبادة: لأن المسلم يؤديها طاعة لأمر الله، وشكراً له، واعترافاً بفضله. ولهذا لا يكتفى

---

(١) الحديد: ٢٥. (٢) الأنبياء: ٨٠.
(٣) البقرة: ٢٥٤. (٤) البقرة: ٣.
(٥) النور: ٣٣. (٦) الحديد: ٧.

الإسلام بالأداء الآلى لهذه الضريبة ما لم تصحبه نية القربة إلى الله، بل لا يرضى من المسلم أن يؤديها كارهاً متبرماً كأنما يدفع مغرماً. ولهذا أيضاً أوصى النبى صلى الله عليه وسلم دافع الزكاة أن يقول عند أدائها: «اللهم اجعلها مغنماً ولا تجعلها مغرماً» (١).

وقال: «ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه...» (٢).

وجعل من أسباب البلاء للأمة: «أن تصير الأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً» (٣).

* * *

• أهداف الزكاة:

لكلمة الزكاة فى لغة العرب معنيان: معنى الطهارة والنظافة ومعنى النماء والزيادة.

وإنما اختار الإسلام هذه الكلمة ليعبر بها عن الفريضة المالية المعلومة، لأن هذه اللفظة تكشف عما يقصد إليه الإسلام من وراء هذه الفريضة.

فالزكاة فيها معنى الطهارة ومعنى النماء كلاهما.

هى طهارة لنفس الغنى من الشح البغيض. تلك الآفة النفسية الخطرة التى قد تدفع من اتصف بها إلى الدم فيسفكه، أو العرض فيبذله، أو الوطن فيبيعه، ولن يفلح فرد أو مجتمع سيطر الشح عليه وملك ناصيته «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (٤).

---

(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه أبو داوود.
(٣) رواه الترمذى من حديث على، وأوله: «إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء..» الحديث، وهو ضعيف.
(٤) الحشر: ٩، والتغابن: ١٦.

وهى فى الجانب الآخر طهارة لنفس الفقير من الحسد والضغن على ذلك الغني الكانز لمال الله عن عباد الله «ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ» (١). ومن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان، كما أن من شأن الحرمان فى جانب، والتنعم فى جانب، أن يملأ قلوب المحرومين بالبغضاء والأضغان.

وهي طهارة للمجتمع كله ـــ أغنيائه وفقرائه ـــ من عوامل الهدم والتفرقة والصراع والفتن الهوج.

ولعل هذا كله ما تهدي إليه الآيةالكريمة :« خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا » (٢).

ثم هى طهارة للمال، فإن تعلق حق الغير بالمال يجعله ملوثاً لا يطهر إلا بإخراجه منه. وفى مثل هذا المعنى يقول بعض السلف: «الحجر المغصوب فى الدار رهن بخرابها» وكذلك الدرهم الذى استحقه الفقير فى المال رهن بتلويثه كله. ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره» (٣).

وأكثر من ذلك ما روى أنه قال: «حصنوا أموالكم بالزكاة» (٤).

وما أحوج الأغنياء إلى هذا التحصين، وخاصة فى عصرنا الذى عرف المبادىء الهدامة، والثورات الحمراء!!

ثم هى ـــ بعد معنى الطهارة ـــ نماء وزيادة. نماء لشخصية الغنى وكيانه المعنوى، فالإنسان الذى يسدى الخير، ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه ويده، لينهض بإخوانه فى الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله

---

(١) الهمزة: ٢، ٣.
(٢) التوبة: ١٠٣.
(٣) رواه الحاكم.
(٤) رواه أبو داوود فى المراسيل.

عليه، يشعر بامتداد فى نفسه، وانشراح واتساع فى صدره، ويحس بما يحس به من انتصر فى معركة، وهو فعلا قد انتصر على ضعفه وأثرته وشيطان شحه وهواه. فهذا هو النمو النفسى، والزكاة المعنوية.

ولعل هذا ما نفهمه من عبارة الآية «تطهرهم وتزكيهم بها» فعطف التزكية على التطهير قد يفيد هذا المعنى الذى ذكرناه، إذ كل كلمة فى القرآن لها معناها ودلالتها.

والزكاة أيضاً نماء لشخصية الفقير، حيث يحس أنه ليس ضائعاً فى المجتمع، ولا متروكاً لضعفه وفقره، ينخران فيه حتى يوديا به، ويعجلا بهلاكه. كلا.. إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرته، ويحمل عنه أثقاله. ويمد له يد المعونة بكل ما يستطيع. وبعد ذلك هو لا يتناول الزكاة من فرد يشعر بالاستعلاء عليه، ويشعر هو بالهوان أمامه، بل يأخذ حقه من يد الدولة حرصاً على كرامته أن تخدش. ولو قدر للأفراد أن يكونوا هم المعطين بأنفسهم، فالقرآن يحذرهم المن والأذى: «قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ»[1].

والزكاة بعد ذلك نماء للمال وبركة فيه، وربما استغرب ذلك بعض الناس فالزكاة فى الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه، فكيف تكون نماء وزيادة؟!

ولكن العارفين يعلمون أن هذا النقص الظاهرى وراءه زيادة حقيقية: زيادة فى مال المجموع، وزيادة فى مال الغنى نفسه، فإن هذا الجزء القليل الذى يدفعه يعود عليه أضعافه من حيث يدرى أو لا يدرى.

وقريب من هذا ما نراه فى بعض الدول الغنية المتخمة تتبرع بأموال من عندها لبعض الدول الفقيرة، لا لله، ولكن لتخلق قوة شرائية لمنتجاتها.

---

(١) البقرة: ٢٦٣.

وإذا نظرنا نظرة نفسية نرى أن الدينار فى يد رجل تخفق له القلوب بالحب، وتهتف له الألسنة بالدعاء، وتحوطه الأيدى بالحماية والرعاية ــ الدينار مع هذا الإنسان أشد قدرة وأكثر حركة من بضعة دنانير مع غيره، ممن يعيش لنفسه، غريقاً فى أنانيته، يتمنى الناس له الفشل والإخفاق.

ولعل هذا التفسير الاقتصادى للنماء هو بعض ما تشير إليه آيات القرآن «وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ» (١) «ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ» (٢) «وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ» (٣) «يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ» (٤).

ولا ننس هنا عمل العناية الإلٰهية فى هذا الإخلاف والإرباء، بغير ما نعرف من الأسباب، والله يؤتى من فضله ما يشاء لمن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والزكاة بعد ذلك وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعى الذى جاء به الإسلام، فإن الإسلام يأبى أن يوجد فى مجتمعه من لا يجد القوت الذى يكفيه، والثوب الذى يزينه ويواريه، والمسكن الذى يؤويه، فهذه ضروريات يجب أن تتوافر لكل من يعيش فى ظل الإسلام. والمسلم مطالب بأن يحقق هذه الضرورات وما فوقها من جهده وكسبه، فإن لم يستطع فالمجتمع يكفله ويضمنه، ولا يدعه فريسة الجوع والعرى والمسكنة.

فهكذا علّم الإسلام المسلمين أن يكونوا كالجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

---

(١) سبأ: ٣٩.
(٢) البقرة: ٢٦٨.
(٣) الروم: ٣٩.
(٤) البقرة: ٢٧٦.

والزكاة مورد أساسى لهذه الكفالة الاجتماعية المعيشية التى فرضها الإسلام للعاجزين والمحرومين.

ثم هى وسيلة من وسائل الإسلام التى اتخذها لتقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء. فالإسلام ــ باعتباره ديناً، يعترف بالفطرة ويهذبها و يسمو بها ولا يعلن الحرب لاستئصالها أو مقاومتها ــ قد أقرَّ الملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع؛ استجابة للدوافع الفطرية الأصيلة فى الإنسان التى تتطلب التملك والمنافسة والادخار.

و بالتالى يكون الإسلام قد اعترف بالتفاوت الفطرى فى الأرزاق بين الناس، إذ هو بلا شك ناشىء عن تفاوت فطرى آخر فى المواهب والملكات، والقدر والطاقات. ولكن هذا الاعتراف بالتفاوت الفطرى فى الرزق، ليس معناه أن يدع الغنى يزداد غنى، والفقير يزداد فقراً، فتتسع الشقة بين الفريقين، ويصبح الأغنياء «طبقة» كتب لها أن تعيش فى أبراج من العاج، ويصبح الفقراء «طبقة» كتب عليها أن تموت فى أكواخ من البؤس والحرمان، بل تدَّخل الإسلام بتشريعاته القانونية. ووصاياه الروحية والخلقية، لتقريب المسافة بين هؤلاء وأولئك، فعمل على الحد من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء.

ولست هنا فى مقام الحديث عن وسائل الإسلام فى هذا التقريب من تحريم للربا والاحتكار والسرف والترف... الخ، وإنما أتحدث عن الزكاة، فهى وسيلة بارزة من هذه الوسائل: هى أخذ من الأغنياء، وإعطاء للفقراء.

وهى أمضى سلاح فى محاربة الكنز وإخراج النقود من مخابئها فى الصناديق أو الشقوق، لتشارك فى ميدان العمل والتثمير، بدل أن تبقى قوة معطلة شلاء. ولقد شُبِّه من يحبس المال ويكنزه عن التداول بمن يحبس جندياً فى جيش الإسلام عن مزاولة عمله فى ميدان الجهاد. وهذا حق. فالدينار المتداول المستثمر جندى يعمل لخدمة الأمة ورخائها وسيادتها، والدينار المخزون المكنوز جندى قاعد أو محبوس.

ولهذا حرّم الإسلام الكنز، وأعلن القرآن سخط الله على الكانزين الأشحاء « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ »(1).

ولم يكتف الإسلام بهذا الوعيد للكانزين، لقد زاد على ذلك بوضع خطة عملية لمقاومة الكنز، تلك هي الزكاة. فأي إنسان يرضى أن ينتقص كل عام من دراهمه ودنانيره ٢,٥ بالمئة وهي بحالها لا تنمو؟ إن الزكاة لتوشك أن تلتهمها بعد سنوات قلائل ما لم يتدارك ماله فيُثمّره وينميه.. وهذا ما جعل الرسول الكريم يأمر الأوصياءِ على أموال اليتامى أن يتجروا فيها حتى لا تأكلها الزكاة(2).

* * *

● **من شهادات الكتّاب الأجانب:**

تلك هي الزكاة في الإسلام، وذلك بعض أهدافها وأسرارها. فلا غرو إن رأينا كثيراً من الكتاب والباحثين الغربيين ينوهون بها، ويشيدون بفضل الإسلام في شرعيتها.

يقول «ليودوروش»: لقد وجدت في الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم.

الأولى: قول القرآن: « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (3) فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية.

والثانية: «فرض الزكاة على كل ذي مال»(4).

---

(1) التوبة: ٣٤، ٣٥.

(2) معنى حديث رواه الترمذي.

(3) الحجرات: ١٠.

(4) من كتاب «الإسلام والحضارة العربية» لكرد علي.

وينقل لنا صاحب «الإسلام والنظام العالمى الجديد» عن «ماركس» ــ غير كارل ماركس اليهودى الشيوعى ــ قوله عن الزكاة: «وكانت هذه الضريبة فرضاً دينياً يتحتم على الجميع أداؤه، وفضلاً عن هذه الصفة الدينية، فالزكاة نظام اجتماعى عام، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء وتعينهم. وذلك على طريقة نظامية قويمة، لا استبدادية تحكمية، ولا عرضية طارئة.

«وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه فى تاريخ البشرية عامة، فضريبة الزكاة التى كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والأغنياء على دفعها، لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها هدمت السياج الذى كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة، ووحدت الأمة فى دائرة اجتماعية عادلة. وبذلك برهن هذا النظام الإسلامى على أنه لا يقوم على أساس الأثرة البغيضة».

وينقل عن «ماسينيون» المستشرق الشهير:

«إن لدين الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال، وهو يناهض الديون الربوية، والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية. ويقف فى نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى، وبذلك يحل الإسلام مرة أخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية البرجوازية، ونظريات البلشفية الشيوعية».

* * *

● التزام أداء الزكاة كاف لإعادة مجد الإسلام:

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله فى تفسيره:

«إن الإسلام يمتاز على جميع الأديان والشرائع بفرض الزكاة فيه ــ كما يعترف بهذا حكماء جميع الأمم وعقلاؤها ــ ولو أقام المسلمون هذا الركن من

دينهم لما وجد فيهم — بعد أن كثرهم الله ووسع عليهم فى الرزق — فقير مدقع، ولا ذو غرم مفجع. ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة، فجنوا على دينهم وأمتهم، فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالاً فى مصالحهم المالية والسياسية، حتى فقدوا ملكهم وعزهم وشرفهم، وصاروا عالة على أهل الملل الأخرى. حتى فى تربية أبنائهم وبناتهم؛ فهم يلقونهم فى مدارس دعاة النصرانية، أو دعاة الإلحاد، فيفسدون عليهم دينهم ودنياهم، ويقطعون روابطهم الملية والجنسية، ويعدونهم ليكونوا عبيداً أذلة للأجانب عنهم. وإذا قيل لهم: لماذا لا تؤسسون لأنفسكم مدارس كمدارس هؤلاء الرهبان والمبشرين أو الملاحدة الإباحيين؟ قالوا: إننا لا نجد من المال ما يقوم بذلك. وإنما الحق أنهم لا يجدون من الدين والعقل وعلو الهمة والغيرة ما يمكنهم من ذلك، فهم يرون أبناء الملل الأخرى يبذلون للمدارس وللجمعيات الخيرية والسياسية ما لا يوجبه عليهم دينهم، وإنما أوجبته عليهم عقولهم وغيرتهم الملية والقومية، ولا يغارون منهم. وإنما يرضون أن يكونوا عالة عليهم. تركوا دينهم فضاعت بإضاعتهم له دنياهم «نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ» (١).

«فالواجب على دعاة الإصلاح فيهم أن يبدأوا بإصلاح من بقى فيه بقية من الدين والشرف بتأليف جمعية لتنظيم جمع الزكاة منهم، وصرفها قبل كل شىء فى مصالح المرتبطين بهذه الجمعية دون غيرهم. ويجب أن يراعى فى تنظيم هذه الجمعية أن لسهم «المؤلفة قلوبهم» مصرفاً فى مقاومة الردة والإلحاد. وأن لسهم «فى الرقاب» مصرفاً فى تحرير الشعوب المستعمرة من الاستعباد، إذا لم يكن له مصرف تحرير الأفراد، وأن لسهم «سبيل الله» مصرفاً فى السعى لإعادة حكم الإسلام، وهو أهم من الجهاد لحفظه فى حال وجوده من عدوان الكفار، ومصرفاً آخر فى الدعوة إليه والدفاع عنه بالألسنة والأقلام، إذا تعذر الدفاع عنه بالسيوف والأسنة.

(١) الحشر: ١٩.

« ألا إن إيتاء جميع المسلمين أو أكثرهم للزكاة وصرفها بانتظام كاف لإعادة مجد الإسلام، بل لإعادة ما سلبه الأجانب من دار الإسلام، وإنقاذ المسلمين من رق الكفار. وما هى إلا بذل العشر أو ربع العشر مما فضل عن حاجة الأغنياء. وإننا نرى الشعوب التى سادت المسلمين ــ بعد أن كانوا سادتهم ــ يبذلون أكثر من ذلك فى سبيل أمتهم وملتهم، وهو غير مفروض عليهم من ربهم » !! (١).

* * *

● زكاة الفطر:

وهناك نوع فريد من الزكاة شرعه الإسلام لا يتبع رأس المال كزكاة النقدين، ولا الدخل والغلة كزكاة الزروع والثمار، ولا يشترط فيه اليسار وملك النصاب كبقية أنواع الزكاة.. إنها « زكاة الفطر » وسميت بهذا، لأنها تجب بالفطر من رمضان كل عام، فهى دورية سنوية. وهى معونة أو منحة عاجلة من غالب قوت أهل البلد، شرعت بمناسبة الانتهاء من الصيام والدخول فى العيد شكراً لله على نعمة التوفيق فى الصيام، ونعمة الفرحة بالعيد، ومواساة من المسلم لإخوانه المحتاجين وإغناءً لهم عن السؤال فى يوم العيد. ولأنها مشروعة بهذه المناسبة حدّد الإسلام وقت أدائها بما قبل صلاة العيد. وفى هذا قال ابن عباس « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ــ الكلام الفاحش ــ وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهى مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات » (٢).

وكان ابن عمر يؤديها قبل العيد بيوم أو يومين.. وقال الشافعى: يجوز تقديمها من أول الشهر.

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٩٧ ، ٥٩٨ ط. ثانية.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطنى.

فرض الإسلام هذه الزكاة على كل مسلم يملك مقدارها ــ وهو صاع من قمح أو شعير أو تمر أو نحوه (١) ــ زائداً عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته ، وتجب على المسلم عن نفسه وعمن تلزمه نفقته من كل من يلي أمورهم وينفق عليهم كزوجته وأبنائه وخدمه . روى الشيخان عن ابن عمر قال : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين » .

وإنها لحكمة بالغة من الإسلام ألا يوجب هذه الزكاة على الموسر المالك للنصاب وحده ، بل يوجبها على كل مسلم تقريباً ، فقلما يوجد فى المجتمع المسلم من لا يملك مقدار قدح وثلث من الحبوب فاضلا عن قوت يومه وليلته . وأن هذه الحكمة لتتجلى فى تعويد المسلم البذل وتدريبه على الإنفاق ولو كان فقيراً معسراً ، وإشعاره بكرامته وشخصيته حين يمد يده معطياً لا آخذاً . ولهذا كان من صفات المتقين الذين أعد الله لهم جنة عرضها السموات والأرض أنهم « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ » (٢) .

وإذا تبينا هذه الحكمة الجليلة لم نجد غرابة فى أن يعطى هذه الزكاة من هو مستحق للزكاة ، وهو لن يخسر ، لأنه يعطى من ناحية ، ويُعطَى من نواح .

وفى هذا يقول النبى الكريم : « صاع من بر أو قمح على كل امرىء : صغير أو كبير ، حر أو عبد ، ذكر أو أنثى ، غنى أو فقير . أما غنيكم فيزكيه الله ، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى » (٣) .

* * *

(١) يرى أبو حنيفة وبعض الأئمة أن الواجب نصف صاع من القمح فقط ، وهو يوازى سدس كيلة مصرية وجوز إخراج القيمة نقداً . وإنما كان الواجب طعاماً ، لقلة النقود عندهم ، ولعدم ثبات القدرة الشرائية للنقود .

(٢) آل عمران : ١٣٤ .

(٣) رواه أحمد وأبو داوود .

• فى المال حق سوى الزكاة:

والزكاة ليست هى الحق الوحيد فى مال المسلم. وإنما هى الحق الدورى المحدد المرسوم، وفى المال حقوق أخرى تقتضيها الظروف. وتوجبها الحاجات وتوكل فى الغالب إلى ضمير المسلم ومشاعره الزكية التى رباها الإسلام، فليس لها قدر محدد ولا زمن معين.

عن أنس بن مالك أن رجلا من بنى تميم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله..، إنى ذو مال كثير، وذو أهل ومال وحاضرة، فأخبرنى كيف أصنع. وكيف أنفق؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل» (1) فجعل صلة الأقرباء من المال ومعرفة حق المسكين والجار والسائل من الحقوق عليه بعد الزكاة.

وقال تعالى فى بيان حقيقة البر وعناصره: «لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» (2)

فجعل من عناصر البر إيتاء المال ذوى القربى ومن بعدهم، مع الزكاة المقرونة بالصلاة.

* * *

(1) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(2) البقرة: ١٧٧.

● **الإنفاق المستحب:**

وكل ما ذكرناه إنما هو فى الإنفاق الواجب، ولكن دائرة الإنفاق تتسع بعد ذلك لما تهفو إليه القلوب المؤمنة من التطوع بالخير، والتوسع فى إسداء المعروف. وقد رغب الإسلام فى ذلك ترغيباً يشرح صدر الكريم، ويدفع البخيل إلى العطاء، فالله تعالى يتقبل الصدقة بيمينه، ويربيها لصاحبها كما يربى أحدنا مهره حتى تصير التمرة مثل جبل أُحد. هذا ما صوَّره لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويصور القرآن ذلك فيقول: «مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ» (١).

ومن الترغيبات القرآنية:

« مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ » (٢).

ومن الأحاديث: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (٣).

وروى عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فتصدقوا ببعضها، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «ما بقى منها؟ قالت: ما بقى منها إلا كتفها. قال: بقى كلها غير كتفها» !! (٤) وقال صلى الله عليه وسلم: «يقول العبد مالى مالى. وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى ــ أى ادخره عنده الله ــ وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» (٥).

---

(١) البقرة: ٢٦١.
(٢) الحديد: ١١.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.
(٥) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله»؟

قالوا: يا رسول الله.. ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر» (١).

من أجل هذه النصوص وغيرها جادت نفوس المسلمين الأولين بما يحبون من المال وفاضت أيديهم بالخير فيضاً، ولم يشبع نهمهم للقربات أداء الزكاة وما فوق الزكاة من الحقوق المالية، بل زادوا عليها متطوعين يبتغون ما عند الله. وما عنده خير وأبقى.

وبحسبنا أن نذكر هنا الإمام الليث بن سعد الذى كان يتصدق بكل ما يجمعه من مال ولا يدعه حتى يحول عليه حول معه. وقالوا: إن دخله السنوى كان ثمانين ألف دينار.

وكذلك كان عبد الله بن جعفر الذى لم يكن يرد سائلا يؤمه فى حاجة قط. ولما قيل له فى ذلك، قال: إن الله عودنى عادة وعودت عباده عادة: عودنى أن يعطينى، وعودت عباده أن أعطيهم، وأخشى إذا قطعت عادتى عنهم أن يقطع عادته عنى.

* * *

(١) رواه البخارى والنسائى.

الصيـــام

• تنوع العبادات فى الإسلام:

نوّع الإسلام فى عباداته: فنها ما يتمثل فى القول، كالدعاء، وذكر الله، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وما يدور فى هذا الفلك.

ومنها ما يتجلى فى الفعل: بدنياً كالصلاة، أو مالياً كالزكاة، أو جامعاً بينهما كالحج والجهاد فى سبيل الله.

ومنها ما ليس قولاً ولا فعلاً، ولكنه كف وامتناع فقط. وذلك كالصوم، الذى هو امتناع عن الأكل والشرب ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

* * *

• الصوم عمل إيجابى فى حقيقته وروحه:

وهذا الامتناع والترك إن بدا سلبياً فى مظهره، فهو عمل إيجابى فى حقيقته وروحه، إذ هو كف النفس عما تشتهيه بنية القربة إلى الله تعالى. فهو بهذا عمل نفسى إرادى له ثقله فى ميزان الحق والخير والقبول عند الله.

النية إذن هى الفيصل فى كل فعل وترك. وهل الدين إلا فعل وترك؟ فعل للمأمور به إيجاباً أو استحباباً. وترك للمنهى عنه تحريماً أو كراهة. بل هل الفضائل إلا فعل لما ينبغى. وترك لما لا ينبغى؟

والصيام عبادة قديمة عرفتها الأديان قبل الإسلام. وإن حرّف الناس في كيفيته وبدّلوا. قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ» (١).

ولكن صيام الإسلام يمتاز عن كل صيام سواه.

* * *

- **شهر الصيام المفروض:**

وقد اختار الله لهذا الصيام في الإسلام شهراً مباركاً كريماً. له في نفوس المسلمين مكان كريم، فهو الشهر الذي نزل فيه أول فوج من آيات القرآن العزيز، حملها الروح الأمين إلى قلب الرسول الكريم: «ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ...» (٢).

وجدير بشهر اصطفاه الله لينزل فيه أفضل كتبه إلى خيرة خلقه، أن يكون أهلاً ليفرض فيه تلك العبادة السنوية «الصيام». قال تعالى: «شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ» (٣).

* * *

(١) البقرة: ١٨٣. (٢) العلق: ١.
(٣) البقرة: ١٨٥.

● من أسرار الصيام:

لقد فرض الله علينا الصيام فى رمضان. وما فرضه إلا لأسرار عليا. وحكم بالغة. نعرف منها ما نعرف ونجهل منها ما نجهل. ويكشف الزمن عن بعضها ما يكشف. فعلينا أن نتأمل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش. وأن ندرك سره تعالى فى الصوم حتى نؤديه كما أراده الله لا كما اشتهاه الناس.

● الصوم تقوية للروح:

ولن نستطيع أن ندرك سر هذا الصوم إلا إذا أدركنا سر هذا الإنسان.. فما الإنسان وما حقيقته؟

هل هو الجثة القائمة. وهذا الهيكل المنتصب؟ هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب؟ إن كان الإنسان هو ذلك فما أحقره وما أصغره!!

نعم.. ليس الإنسان هو ذلك الهيكل المحسوس. إنما هو روح سماوى يسكن هذا الجسم الأرضى. وسر من الملأ الأعلى فى غلاف من الطين!

ليست حقيقة الإنسان إلا هذه اللطيفة الربانية. والجوهرة الروحانية التى أودعها الله فيه. بها يعقل ويفكر. وبها يشعر ويتذوق. وبها يدبر مُلْك الأرض. ويتطلع إلى ملكوت السماء. وبها أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم. لا لما فيه من حمأ مسنون. وطين معجون. « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ »(١).

---

(١) سورة ص : ٧١، ٧٢.

ذلكم هو الإنسان؛ روح علوى وجسد سفلى، فالجسد بيت، والروح صاحبه وساكنه، والجسد مطية، والروح راكب مسافر، ولم يخلق البيت لنفسه، ولا المطية لذاتها، ولكن البيت لمصلحة الساكن، والمطية لمنفعة الراكب، فما أعجب هؤلاء الآدميين الذين أهملوا أنفسهم وعنوا بمساكنهم وجعلوا من ذواتهم خداماً لمطاياهم؛ وأهملوا أرواحهم وعبدوا أجسادهم، فللجسد وحده يعملون، ولإشباع غرائزه الدنيا ينشطون، وحول بطونهم وفروجهم يدورون، نشيدهم الدائم قول القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

أولئك الذين وصفهم الله بقوله : « أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »(1).

ذلكم هو الإنسان روح وجسد، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلى، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوى، فإذا أخضع الإنسان أشواق روحه لمطالب جسده، وحكّم غريزته فى عقله، استحال من ملاك رحيم إلى حيوان ذميم، وربما إلى شيطان رجيم، هذا الذى ناداه الشاعر المؤمن:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران؟!
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان!!

أما إذا عرف الإنسان قيمة نفسه، وأدرك سر الله فيه، وحكّم جانبه السماوى فى جانبه الأرضى، وعنى بالراكب قبل المطية، وبالساكن قبل الجدران، وغلّب أشواق الروح على نوازع الجسد. فقد صار ملاكاً أو خيراً

---

(1) الفرقان: ٤٣، ٤٤.

من الملاك «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ »(1).

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، وينطلق من سجن جسده، ويتغلب على نزعات شهوته، ويتحكم فى مظاهر حيوانيته، ويتشبه بالملائكة، فليس عجيباً أن يرتقى روح الصائم ويقترب من الملأ الأعلى، ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح، ويدعو ربه فيستجيب له، ويناديه فيقول: لبيك عبدى لبيك، وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم ...»(2).

* * *

• صوموا تصحوا:

وإذا كان فى الصيام فرصة أى فرصة لتقوية الروح، ففيه فرصة أى فرصة لتقوية البدن، فإن كثيراً مما يصيب الناس من أمراض إنما هو ناشىء من بطونهم التى يتخمونها بكل ما تشتهى غير مفرقين بين ما ينبغى وقد قال صلى الله عليه وسلم:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»(3).

وإذا كانت البطن مستنقع البلايا، وكانت المعدة بيت الداء، فإن الحِمْية ـ أى الامتناع عن الأكل ـ رأس الدواء. وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة، وقد نشرت إحدى المجلات أن ثلاثمائة قد برئوا من البول السكرى بعلاج

(1) البينة: ٧.
(2) رواه الترمذى وحسنه، وأحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما.
(3) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه بلفظ مقارب وابن حبان فى صحيحه.

الصوم. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «صوموا تصحوا» [1].

* * *

• الصوم تربية للإرادة:

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر. فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء. ويعف وبجانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، ولا سلطان إلا ضميره، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم، وتسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين في كل عام. فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل، كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام إجبارياً للمسلمين في رمضان، وتطوعاً في غير رمضان؟! لقد كتب عالم نفساني ألماني بحثاً عن تقوية الإرادة أثبت فيه أن أعظم وسيلة لذلك هي الصوم. أما الإسلام فقد سبق علماء النفس كما سبق من قبل أطباء الجسم، وحسبك أن تسمع نداء الرسول للشباب: «يا معشر الشباب.. من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [2].

ولأن رمضان يُعلِّم الصبر نسبه الرسول صلى الله عليه وسلم إليه فقال: «صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر، يذهبن وحر الصدر» [3] وروى عنه في حديث آخر: «لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر» [4].

---

(١) رواه الطبراني بإسناد رواته ثقات كما في «الترغيب» للمنذري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي، والبزار ورجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه ابن ماجه.

وإنما كان الصوم نصف الصبر لأن في الإنسان قوى ثلاثاً: قوة شهوية كالتي في البهائم، وقوة غضبية كالتي في السباع، وقوة روحية كالتي في الملائكة، فإذا تغلبت قوته الروحية على إحداهما كان ذلك نصف الصبر، وفي الصوم يتغلب المسلم على قوته الشهوانية من بطن وفرج فكان الصوم حقاً نصف الصبر.

إن الإسلام ليس دين استسلام وخمول، بل هو دين جهاد وكفاح متواصل، وأول عدة للجهاد هو الصبر والإرادة القوية، فإن من لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدواً، ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على عدوه، ومن لم يصبر على جوع يوم هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير. والصوم ـ بما فيه من صبر وفطام للنفوس ـ من أبرز وسائل الإسلام في إعداد المؤمن الصابر المرابط المجاهد، الذي يتحمل الشظف والجوع والحرمان، ويرحب بالشدة والخشونة. وقسوة العيش ما دام ذلك في سبيل الله.

* * *

● **تعريف بالنعمة:**

ومن حكم الصوم أنه يعرف المرء بمقدار نعم الله عليه، فالإنسان إذا تكررت عليه النعم، قَلَّ شعوره بها. النعم لا تُعرف إلا بفقدانها، فالحلو لا تَعرف قيمته إلا إذا ذُقت المر، والنهار لا تَعرف قيمته إلا إذا جُنَّ عليك الليل، وبضدها تتميز الأشياء.

ففي الصوم معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع والري، ولا يُعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش، ومرارة الجوع.

ومن أجل ذلك ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً. قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً.. فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك. وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» (١).

* * *

(١) رواه الترمذي وحسنه.

• **تذكير بحرمان المحرومين:**

ومن أسرار الصيام الاجتماعية أنه تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة بليغة ولا لسان فصيح، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء، فإن الذى نبت فى أحضان النعمة ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذق مرارة العطش، لعله يظن أن الناس كلهم مثله. وأنه مادام يجد فالناس يجدون، ومادام يُطعم لحم طير مما يشتهى وفاكهة مما يتخير، فلن يحرم الناس الخبز والبقول! فلا غرو، أن جعل الله من الصوم مظهراً للاشتراكية الصحيحة، والمساواة الكاملة، وجعل الجوع ضريبة إجبارية، يدفعها الموسر والمعسر، ويؤديها من يملك القناطير المقنطرة ومن لا يملك قوت يومه، حتى يشعر الغنى أن هناك معدات خاوية، وبطوناً خالية، وأحشاء لا تجد ما يسد الرمق، ويطفىء الحرق، فحرى بإنسانية الإنسان، وإسلام المسلم، وإيمان المؤمن، أن يرق قلبه، وأن يعطى المحتاجين، وأن يمد يده إلى المساكين. فإن الله رحيم، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» [1] وقد روى أن يوسف عليه السلام كان يكثر الصيام وهو على خزائن الأرض، بيده المالية والتموين، فسئل فى ذلك فقال: «أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقير»!

* * *

• **العبودية الكاملة لله:**

وفى الصوم قبل ذلك وبعده تمام التسليم لله وكمال العبودية لرب الناس ملك الناس إله الناس. وهذه الحكمة هى القدر المشترك فى كل عبادة، والهدف الأسمى من كل فريضة، ولن تكون العبادة عبادة، ولا العبد عبداً إلا بها: يقول رب العباد: «أمرت ونهيت»، ويقول العباد:

---

(١) رواه أبو داود والترمذى.

«سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ» (١) .

وما أظهر هذا التسليم والعبودية فى الصوم خاصة ، فالصائم يجوع و يعطش وأسباب الغذاء والرى أمامه ميسرة لولا حب الله والرغبة فى رضاه ، وإيثار ما عنده . ولهذا نسب الله الصيام إلى حضرته وتولى جزاء الصائمين بنفسه فقال : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع طعامه من أجلى ، و يدع شرابه من أجلى، و يدع لذته من أجلى ، و يدع زوجته من أجلى» (٢) .

ذلكم هو الصوم فى الإسلام ، لم يشرعه الله تعذيباً للبشر ولا انتقاماً ، كيف وقد ختم آية الصوم بقوله : «يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ» (٣) وإنما شرعه الله إيقاظاً للروح وتصحيحاً للجسد ، وتقوية للإرادة ، وتعويداً على الصبر، وتعريفاً بالنعمة ، وتربية لمشاعر الرحمة ، وتدريباً على كمال التسليم لله رب العالمين .

* * *

● **المسلمون والصيام :**

تلك حكم يجب أن نراعاها حق رعايتها ، وأن نضعها نصب أعيننا فى صومنا حتى يكون صوماً يؤدى مهمته و يفى بالغرض المقصود منه .

فليت شعرى هل فقه المسلمون أسرار الصيام ؟ وهل انتفعوا بشهر رمضان ؟ أما أسلافنا فقد جنوا ثماره وتفيئوا ظلاله واستمدوا منه روح القوة وقوة الروح ، كان نهارهم نشاطاً وإنتاجاً وإتقاناً ، وكان ليلهم تزواراً وتهجداً وقرآناً ، وكان شهرهم كله تعلماً وتعبداً وإحساناً ، ألسنتهم صائمة فلا تلغو برفث أو جهل ، وآذانهم صائمة فلا تسمع لباطل أو لغو، وأعينهم صائمة فلا

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .
(٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه .
(٣) البقرة : ١٨٥ .

تنظر إلى حرام أو فحش، وقلوبهم صائمة فلا تعزم على خطيئة أو إثم. وأيديهم صائمة فلا تمتد بسوء أو أذى.

أما مسلمو اليوم فنهم من اتخذ رمضان موسماً لطاعة الله، ومضاعفة الخيرات، صاموا نهاره فأحسنوا الصيام، وقاموا ليله فأحسنوا القيام، وشكروا نعمة الله عليهم، فلم ينسوا إخوانهم من الضعفاء والمحرومين. واقتدوا برسولهم الكريم الذى كان أجود ما يكون فى رمضان ــ فهو أجرى بالخير من الريح المرسلة.

وبجوار هؤلاء المحسنين خلف سوء، لم ينتفعوا برمضان، ولم يستفيدوا بما فيه من صيام ولا قيام.

جعله الله للقلب والروح فجعلوه للبطن والمعدة. جعله الله للحلم والصبر فجعلوه للغضب والطيش، جعله الله للسكينة والوقار فجعلوه شهر السباب والشجار، جعله الله ليغيروا فيه من صفات أنفسهم فما غيروا إلا مواعيد أكلهم، جعله الله تهذيباً للغنى الطاعم ومواساة للبائس المحروم فجعلوه معرضاً لفنون الأطعمة والأشربة، تزداد فيه تخمة الغنى بقدر ما تزداد حسرة الفقير.

فلعل المسلمين يصومون الصيام الذى يعدهم لتقوى الله كما أمر القرآن. حتى يخرجوا من رمضان مطهرين مغفورى الذنوب.

* * *

الحَــــجّ

الحج هو الشعيرة الرابعة فى الإسلام، وهو آخر ما فرض من الشعائر والعبادات التى رسم الله حدودها ومعالمها. إذ كانت فرضيته فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية علىٰ أرجح الأقوال.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة فى عالم الأسفار والرحلات. ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى «البلد الأمين» الذى أقسم الله به فى القرآن. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذى جعله الإسلام رمزاً لتوحيد الله، ووحدة المؤمنين به، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم فى صلواته «وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ» (١). ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه ويطوف به بنفسه فى العمر مرة واحدة.

* * *

● صلة المسلم بالبيت الحرام وبانيه:

إن هذا البيت العتيق هو أول بيت أقيم فى الأرض لعبادة الله، وبانيه هو الخليل إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخالصة وهما يشيدان هذا البناء العتيد «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ

(١) البقرة: ١٤٤.

إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (١).

إن إبراهيم الخليل قد عُرف فى التاريخ بأنه عدو الشرك، ومحطم الأوثان، ورمز التوحيد، وأبو الملة الحنيفية، فملته هى الإسلام الخالص، وهو الذى سمانا المسلمين من قبل، فلا عجب أن يكون بينه وبين المؤمنين من هذه الأمة روابط روحية لا تضعف منها مسافة الزمن الطويل، روابط تجعلهم دائماً ذاكرين لهذا الأب الجليل منقبته وفضله « مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » (٢).

فى ظل هذه المعانى والمشاعر والروابط التى تربط المسلمين بالبيت الحرام وبانيه الأول إبراهيم عليه السلام، فرض الله الحج على كل مستطيع وجعل تركه أو الاستخفاف به كفراً بالله ومروقاً من الدين « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ » (٣).

* * *

(١) البقرة : ١٢٧ — ١٢٩.

(٢) آل عمران : ٦٧، ٦٨.

(٣) آل عمران : ٩٦، ٩٧.

• **أعمال الحج :**

والحج يبدأ بالميقات ــ وهو مكان حدَّده الشرع ليحرم منه أو بحذائه أهل جهة معينة ــ والإحرام يتمثل فى نية الحج والتجرد من الثياب المعتادة التى يزهى بها الناس ويختالون، والاقتصار على لبس ثياب بيضاء متواضعة لم تعمل فيها يد الصنعة والتزويق هى أقرب ما تكون إلى الثياب التى يُكَفَّنَ فيها الموتى من المؤمنين. وهو تحقيق لمبدأ العودة إلى طهارة الطبيعة الذى دعا إليه «روسو» وغيره من الفلاسفة ولم يحققوه.

وبعد هذا : يرفع الحاج صوته بهذا الشعار الذى هو النشيد العام للحجاج جميعاً طوال أيام الحج ومواقفه «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وكأنه بهذا الشعار يلبى هذا النداء الإلٰهى القديم، الذى أمر الله به إبراهيم الخليل عليه السلام أن يُؤذِّن به فى الناس «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (١).

وأهم أعمال الحج بعد الإحرام : الطواف بالكعبة، والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة فى نهار التاسع من ذى الحجة.

ودون ذلك فى الأهمية رمى الجمار والمبيت بمنى، وذبح الهدى فضلاً عن السنن والمستحبات الأخرى.

---

(١) الحج : ٢٦، ٢٧.

وقد كان كثير من هذه الأعمال فى حج الجاهليين، توارثوه عن ملة إبراهيم، ولكنهم خلطوا حقاً بباطل، وصالحاً بسيء، فحرَّفوا الحج عن وجهته، وملأوا الكعبة ــ بيت التوحيد ــ بالأنصاب والأوثان، واتخذوا هذه الأنصاب آلهة مع الله. يعبدونهم لتقربهم إلى الله زلفى، ونذروا لها، وذبحوا باسمها وقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ــ آلهتنا ــ ثم إنهم اصطنعوا لهم فى الحج تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، منها طوافهم حول البيت عرايا، زاعمين أنه لا يليق بهم أن يطوفوا ببيت الله بثياب ارتكبوا فيها الذنوب، وحرَّموا على أنفسهم بعض طيبات الطعام كالدسم وما وراء القوت.

فلما جاء الإسلام نقّى الحج من ضلالات الجاهلية، وأدران الوثنية، وجعله كله خالصاً لله، وحمل على هذا العرى المزرى، وذلك التحريم للطيبات بغير إذن من الله.

وفى مثل هذا نزل قوله تعالى: « يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ؟ ».(١).

* * *

● **الكعبة رمز التوحيد والوحدة:**

إنه لا ضير على الإسلام أن يبقى الصالح من تقاليد العرب وشرائعهم التى ورثوها من دين إبراهيم. وهو بهذا يصل بين القديم والجديد فى تاريخ الإيمان، ويقرر وحدة الدين عند الله.

يقول صاحب مجلة « الشهاب »(٢) رحمه الله:

« وينتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة، والنظرة السامية فى هذا التشريع الحكيم ــ هذه الفرصة، فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثراً ببقية

---

(١) الأعراف: ٣١، ٣٢.

(٢) العدد الثالث ص ٥١ من مقال للإمام الشهيد حسن البنا.

من وثنية العرب، وأن الكعبة والطواف من حولها، والحجر الأسود واستلامه، وما يحيط بذلك من معانى التقديس والتكريم، إن هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر. وهذا القول بعيد عن الصحة، عار عن الصواب، فالمسلم الذى يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر، يعتقد اعتقاداً جازماً أنها جميعاً أحجار لا تضر ولا تنفع، ولكنه إنما يقدس فيها هذا المعنى الرمزى البديع، معنى الأخوة الإنسانية الشاملة، والوحدة العالمية الجامعة، و يذكر فى ذلك قول الله العلى الكبير : « جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ » (1).

« والرمزية هى اللغة الوحيدة لتمثيل المعانى الدقيقة، والمشاعر النبيلة، التى لا يمكن أن تصورها الألفاظ، أو تجلوها العبارات.

والذى يُعَظِّم علم وطنه يعلم أنه فى ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها مادياً، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معانى المجد والسمو التى يعتز بها وطنه، وأنها تصوِّر أدق المشاعر فى وطنيته، فهو يحيى هذا العلم و يعظمه ويحترمه و يكرمه لهذه المعانى التى تجمعت جميعاً وتمثلت فيه، والكعبة المشرفة علم الله المركوز فى أرضه، ليمثل به للناس أوضح معانى أخوتهم، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم. وإنما كانت بناءً ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

« وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء ونقطة التمييز فى هذا البناء وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء، على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء : « اللهم إيماناً بك ــ لا بالحجر ــ وتصديقاً بكتابك ــ لا بالخرافة ــ ووفاء بعهدك ــ وهو التوحيد الخالص لا الشرك ــ واتباعاً لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم محطم الأصنام.

---

(1) المائدة : ٩٧.

«فأين هذه المعانى الرمزية العلوية، من تلك المظاهر الوثنية الخرافية؟ إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد، ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معانى الإنسانية العالمية، والأخوة بين البشر جميعاً« وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا »(١).

* * *

• من أسرار المناسك:

وإذا فهمنا هذه اللغة الرمزية — وهى لغة تتميز بعالميتها وسعتها — سهل علينا أن نفهم كثيراً من أسرار مناسك الحج وأعماله.

«فما الإحرام فى حقيقته — وهو أول المناسك — إلا التجرُّد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل ما سوى الله، وعلى التفكير فى جلاله.

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذى تُرى نعمه، ولا تُدرك ذاته.

وما السعى بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمى الرحمة التماساً للمغفرة والرضوان.

وما الوقوف بعد السعى إلا بذل المهج فى الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة فى أرحم الراحمين..

وما الرمى بعد هذه الخطوات التى تشرق بها على القلوب أنوار ربها، إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزغات النفس، وإلا رمز مادى لصدق العزيمة فى طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

---

(١) البقرة: ١٢٥.

وما الذبح ــ وهو الخاتمة فى درج الترقى إلى مكانة الطهر والصفاء ــ إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار» (١).

* * *

• **آثار الحج فى النفس والحياة:**

ولقد أكدنا فى فصول هذا الكتاب أن المقصد الأول من العبادات هو الامتثال لله والوفاء بحقه تعالى، ومع هذا لا ننكر أن وراء العبادات آثاراً طيبة ومنافع جمة، فى حياة الفرد والجماعة.

والحج هو أكثر العبادات الإسلامية اشتمالاً على الأمور التعبدية ــ التى لا تُعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد ــ ولكن لعله أيضاً أوضح هذه العبادات أثراً فى حياة المسلمين أفراداً وشعوباً. وكيف لا وقد قال الله: «وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ..» (٢).

إن هذا التعليل القرآنى لهذه الرحلة المباركة التى يقطعها الناس ركباناً ومشاة قادمين من كل فج عميق، يفتح لنا باباً رحباً للتأمل فى هذه المنافع المشهودة التى قدّمها القرآن فى الآية على ذكر اسم الله.

(أ) الحج شحنة روحية وعاطفية:

فالحج شحنة روحية كبيرة، يتزود بها المسلم، فتملأ جوانحه خشية وتقى لله، وعزماً على طاعته، وندماً على معصيته، وتغذى فيه عاطفة الحب لله

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ شلتوت ص ١٢٠.
(٢) الحج: ٢٧، ٢٨.

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولمن عَزَّرُوهُ ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه، وتُوقظ فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه فى كل مكان، وتوقد فى صدره شعلة الحماسة لدينه، والغيرة على حرماته.

إن الأرض المقدسة وما لها من ذكريات، وشعائر الحج وما لها من أثر فى النفس، وقوة الجماعة وما لها من إيحاء فى الفكر والسلوك.. كل هذا يترك أثره واضحاً فى أعماق المسلم، فيعود من رحلته أصفى قلباً، وأطهر مسلكاً، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عوداً أمام مغريات الشر. وكلما كان حجه مبروراً خالصاً لله كان أثره فى حياته المستقبلة يقيناً لا ريب فيه، فإن هذه الشحنة الروحية العاطفية، تهز كيانه المعنوى هزاً، بل تنشئه خلقاً آخر، وتعيده كأنما هو مولود جديد يستقبل الحياة وكله طهر ونقاء. ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» [1].

(ب) الحج ثقافة وتدريب:

والحج فيه توسيع لأفق المسلم الثقافى، ووصل له بالعالم الكبير من حوله، وقد قالوا: السفر نصف العلم. وفى الأمثال السائرة أن حكيماً قال: من يعش ير كثيراً، فقال آخر: لكن من يسافر يرى أكثر.

وفى هذا السفر للحج تدريب على ركوب المشقات، ومفارقة الأهل والوطن، والتضحية بالراحة والدعة فى الحياة الرتيبة بين الآل والصحاب، ولم تشأ حكمة الله أن تجعل هذه الرحلة إلى بلد مثل «سويسرا» أو «لبنان» أو غيرهما من البلاد الجميلة التى يتخذها الناس مصيفاً أو مشتى. ولكن شاء الله أن يكون الحج إلى واد غير ذى زرع لا يصلح مصطافاً ولا متربعاً، وذلك تربية للمسلم على احتمال الشدائد، والصبر على المكاره، ومواجهة الحياة كما فطرها الله بأزهاراها وأشواكها، بشهدها وصابها، بحرها وقرها. فهو يلتقى مع الصوم فى إعداد المسلم للجهاد.

---

(١) رواه البخارى وأحمد والنسائى.

وحياة الحاج أشبه بحياة الكشّاف فى بساطتها وخشونتها، حياة تَنَقُّلٍ وارتحال، واعتماد على النفس، وبُعْدٍ عن الترف والتكلف والتعقيد، الذى يناسب حياة الخيام فى مِنًى وعرفات.

وقد تجلّت هذه الحكمة حين جعل الله الحج دائراً مع السنة القمرية، فأشهر الحج المعلومات تبدأ بشهر شوّال، وتنتهى بذى الحجة، وهى أشهر — كما نعلم — تأتى أحياناً فى وقدة الصيف وأحياناً فى زمهرير الشتاء، ليكون المسلم على استعداد لتحمل كل الأجواء، والاصطبار على كل ألوان الصعوبات.

(جـ) المنافع التجارية:

والحج من الجانب المادى فرصة متاحة لتبادل المنافع التجارية على نطاق واسع بين المسلمين.

وقد كان بعض المسلمين فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يتحاشون التجارة فى أيام الحج ويتحرجون من كل عمل دنيوى يجلب لهم ربحاً أو يدر عليهم رزقاً، خشية أن ينال ذلك من عبادتهم، أو يحط من مثوبتهم عند الله عز وجل، فأجاز الله الكريم لهم ذلك، ما دامت النية خالصة، والمقصود الأصلى هو الحج، ولكل امرىء ما نوى.

روى البخارى عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية. فتأثموا — أى تحرجوا — أن يتجروا فى الموسم — أى موسم الحج — فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك. فنزلت الآية: « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ »[1].

---

(١) البقرة: ١٩٨.

قال في تفسير المنار: «كان بعض المشركين وبعض المسلمين يتأثمون في أيام الحج من كل عمل حتى كانوا يقفلون حوانيتهم، فعلّمهم الله تعالى أن الكسب طلب فضل من الله لا جناح فيه مع الإخلاص، وقوله تعالى «من ربكم» يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة. وروى أن عمر قال لسائل في هذا المقام: وهل كنا نعيش إلا على التجارة؟

(د) المساواة والوحدة والسلام:

والحج تدريب عملي للمسلم على المبادىء الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، فقد أراد الإسلام ألا تكون مبادئه وقيمه الاجتماعية مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعباداته، وشعائره ربطاً وثيقاً، حتى تخط مجراها في عقل المسلم وقلبه فهماً وشعوراً، ثم تخط مجراها في حياته سلوكاً وتطبيقاً.

وقد رأينا في صلاة الجماعة كيف تنمي معاني الأخوة والمساواة والحرية. وهنا في الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها. فالجميع قد أطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار، واختلاف الطبقات، واختلاف القدرات، واختلاف الأذواق، ولبسوا جميعاً ذلك اللباس البسيط — الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى — يلبسه الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير، وإنهم ليطوفون بالبيت جميعاً فلا تُفرِّق بين من يملك القناطير المقنطرة، ومن لا يملك قوت يومه، ويقفون في عرفات ألوفاً ألوفاً، فلا تحس بفقر فقير، ولا غنى غني، ولا تحس حين تراهم في ثيابهم البيض وفي موقفهم المزدحم العظيم إلا أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر، يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

ولقد كانت قريش في الجاهلية ترى لنفسها فضلا على سائر العرب، فتترفع عن الوقوف معهم في عرفات وتقف في مزدلفة، فأبطل الإسلام هذه

العادة، وقال تعالى بعد أن ذكر بعض أعمال الحج: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ» (١) كأنه يقول: «بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج، وليس فيها امتياز أحد على أحد، ولا قبيل على قبيل، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة بقى شيء آخر، وهو أن تلك العبادة المميزة لا وجه لها، فعليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد» (٢).

ولما كانوا فى الجاهلية يتخذون من موسم الحج مجالاً للتفاخر بالأنساب والآباء، وقف النبى صلى الله عليه وسلم يخطبهم فى أواسط أيام التشريق ويعلنهم بمبدأ الإسلام العالمى: «يا أيها الناس.. إن ربكم واحد وإن آباكم واحد.. ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلّغْتُ؟ قالوا: بلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣).

● **وفى الحج نرى معنى الوحدة جلياً كالشمس:** وحدة فى المشاعر، ووحدة فى الشعائر، ووحدة فى الهدف، ووحدة فى العمل، ووحدة فى القول. لا إقليمية ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، إنما هم جميعاً مسلمون، برب واحد يؤمنون، وببيت واحد يطوفون، ولكتاب واحد يقرأون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون. فأى وحدة أعمق من هذه وأبعد غوراً؟

ومن المبادىء التى سبق الإسلام بالدعوة إليها: السلام.

والحج طريقة فذة لتدريب المسلم على السلام، وإشرابه روح السلام. فهو رحلة سلام إلى أرض سلام، فى زمن سلام.

---

(١) البقرة: ١٩٩.
(٢) من تفسير الآية فى المنار.
(٣) رواه أحمد.

أرض الحج هى البلد الحرام والبيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً « وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا » (١) والذى قال فيه عمر: لو وجدت فيه قاتل أبى ما مسته يدى.

إنها منطقة أمان فريد فى نوعه، شمل الطير فى الجو، والصيد فى البر، والنبات فى الأرض، فهذه المنطقة لا يُصاد صيدها ولا يُرَوَّع طيرها ولا حيوانها، ولا يُقطع شجرها ولا حشائشها!!

ومعظم أعمال الحج يقع فى شهرين ــ ذى القعدة وذى الحجة ــ من الأشهر الحرم، التى جعلها الله هدنة إجبارية تغمد فيها السيوف، وتحقن فيها الدماء، ويوقف القتال « جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ » (٢).

والمسلم حين يحرم بالحج يظل فترة إحرامه فى سلام حقيقى، مع من حوله وما حوله، فلا يجوز له أن يقطع نباتاً أو يعضد شجرة، كما لا يجوز له أن يذبح حيواناً صاده غيره له، أو يرمى هو صيداً فى الحرم، أو خارجه قال تعالى: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ » (٣) « وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا » (٤).

بل لا يجوز للمحرم أن يحلق شعر نفسه أو يقص ظفره، حتى يتحلل من إحرامه فيقص ويحلق أو يقصر.

فهل رأت الدنيا تطبيقاً عملياً للسلام وتدريباً عليه كهذا الذى صنعه الإسلام فى رحلة الحج: رحلة السلام إلى أرض السلام، فى زمن السلام؟!

---

(١) آل عمران: ٩٧.
(٢) المائدة: ٩٧.
(٣) المائدة: ٩٥
(٤) المائدة: ٩٦.

(هـ) الحج مؤتمر عالمى :

والحج يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوى إسلامى ، مؤتمر لم يدع إليـه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة ، بل دعا إليه الله العلى الكبير الذى فرض إقامته كل عام على المسلمين .

فهناك يجد المسلم إخواناً له من قارات الدنيا الخمس ، اختلفت أقاليمهم ، واختلفت ألوانهم ، واختلفت لغاتهم ، وجمعتهم رابطة الإيمان والإسلام ، ينشدون نشيداً واحداً : «لبيك اللهم لبيك» .

إن هذا المؤتمر له أكثر من معنى ، وأكثر من إيحاء ، إنه يحيى فى المسلم الأمل ، ويطرد عوامل اليأس ، ويبعث الهمة ، ويشحذ العزم . إن التجمع يوحى دائماً بالقوة ، ويوقظ الآمال الغافية . والذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة .

إن هذا المؤتمر أعظم مُذَكِّر للمسلم بحق أخيه المسلم : وإن تباعدت الديار ، وأعظم مذكر بأخوة الإسلام ، ورابطة الإيمان . هذا المؤتمر هو «الفرن العالى» الذى تذوب فى حرارته النزعات القومية والوطنية ، وتختفى فيه كل الشعارات والجنسيات إلا شعاراً واحداً «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (1) .

فى هذا المؤتمر : يلتقى رجال العلم ، ورجال الإصلاح ، ورجال السياسة ، فما أجدرهم — وقد التقوا على هدف واحد — أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط ، وأحسن الوسائل ، ليبلغوا الأهداف ويحققوا الآمال .

ولقد نبهنا الرسول الكريم إلى قيمة هذا المؤتمر حين اتخذ منه منبراً لإذاعة أهم القرارات والبلاغات التى تتصل بالسياسة العامة للمسلمين . ففى

---

(1) الحجرات : 10 .

أول سنة حج فيها المسلمون تحت إمارة أبى بكر، بعث النبى صلى الله عليه وسلم وراءه علياً ليعلن على الناس إلغاء المعاهدات التى كانت بينه وبين المشركين الناكثين. وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفى السنة التالية التى حَجَّ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه أعلن فيها على الجمهور خطبة «البلاغ» أو «الوداع» التى لخص فيها أهم مبادىء الإسلام ودستور الإسلام.

ولقد عرف علماء الإسلام قيمة هذا المؤتمر. فاتخذوا منه فرصة لتبادل الآراء، وتعارف الأفكار، ورواية الأحاديث والأخبار.

كما عرف الخلفاء قيمة هذا الموسم العالمى. فجعلوا منه ساحة لقاء بينهم وبين أبناء الشعب القادمين من كل فج عميق، وبينهم وبين ولاتهم فى الأقاليم، فمن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية فليتقدم بها إلى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب. وهناك يواجه الشعب الوالى أمام الخليفة بلا تهيب ولا تحفظ، فيغاث الملهوف، وينصف المظلوم، ويرد الحق إلى أهله، ولو كان هذا الحق عند الوالى أو الخليفة!!

كتب عثمان بن عفان أمير المؤمنين وخليفتهم إلى جميع الأمصار الإسلامية كتاباً قال فيه:

«إنى آخذ عمالى ــ أى ولاتى ــ بموافاتى فى كل موسم، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا يرفع علىّ شيء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته، وليس لى ولا لعمالى حق قِبَلَ الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إلىّ أهل المدينة أن أقواماً يُشتمون ويُضربون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم، يأخذ حقه حيث كان، منى أو من عمالى، أو تصدقوا.. إن الله يجزى المتصدقين».

ومما ينبغى أن نذكره هنا أن هذا المؤتمر لم يكن فرصة للمسلمين وحدهم للتظلم من ولاتهم وطلب حقوقهم، بل وجد فيه غير المسلمين ــ ممن

يعيشون فى ظل دولة الإسلام ـ هذا المعنى وتلك الفرصة . وكلنا يعلم قصة ابن القبطى الذى سابق ابن والى مصر وفاتحها عمرو بن العاص فسبق القبطى . فضربه ابن عمرو فأنهى أبوه مظلمته إلى عمر ، فاقتصه منه فى موسم الحج على مرأى ومسمع من ألوف الحجيج ، ثم قال للوالى عمرو كلمته المشهورة أمام شهود المؤتمر الكبير : يا عمرو .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ !

فلا عجب إن كانت هذه العبادة « الحج » قذىً فى أعين الكثيرين من خصوم الإسلام فيشهرون أقلامهم لتشويهه أو الطعن فيه ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

من سنوات كتب أحد المبشرين النصارى فى تقرير له عن مدى جدوى التبشير فى بلادنا الإسلامية وخاصة فى مصر فكان مما قال فيه : « سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحى ما دام للإسلام هذه الدعائم الأربع : القرآن .. والأزهر .. واجتماع الجمعة الأسبوعى .. ومؤتمر الحج السنوى » .

وإن هذه الأربعة لباقية بإذن الله ما بقى هذا الإنسان على تلك الكرة ، وليمت من يشاء بغيظه ! !

على أن المسلمين ـ للأسف ـ لا يستفيدون من هذا المؤتمر العظيم كما ينبغى ، ولعلهم قد بدأوا يفيقون .

* * *

● من شهادات المنصفين :

وفى الأجانب من شهد بفضل هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة ، وأشار بما لها من مآثر وآثار فى النفس والحياة . من هؤلاء الأستاذة الإيطالية الدكتورة « فاجليرى » فى كتابها الذى ترجم بعنوان « دفاع عن الإسلام »

المنهج الأمثل في تعليم العبادات

- فقه العبادة .. لا علم العبادة
- الرجوع إلى عهد البساطة
- التيسير .. لا التزمت والوسوسة
- الرجوع إلى الكتاب والسنة .. لا التعصب لمذهب.
- العناية بالفرائض أولاً.

المنهج الأمثل في تعليم العبادات

- فقه العبادة .. لا علم العبادة
- الرجوع إلى عهد البساطة
- التيسير .. لا التزمت والوسوسة
- الرجوع إلى الكتاب والسنة .. لا التعصب لمذهب.
- العناية بالفرائض أولاً.

المنهج الأمثل فى تعليم العبادات

● **تمهيـد :**

إذا كانت عبادة الله هى أول الحقوق علينا لله ، كان تعلمها وتعليمها أول الواجبات علينا أيضاً .

وأولى العبادات بالمعرفة والفقه هي العبادات الشعائرية التى حدَّد الشرع صورها وأوصافها وكيفياتها ، فلا يقبلها إلا إذا أُديت كما شرعها . وهى الصلاة والصيام والزكاة والحج التى تحدثنا عن أسرارها وآثارها فى الحياة . .

وهذه الشعائر الأربع هى التى جعلها الرسول الأعظم ــ بعد الشهادتين ــ أركان الإسلام ومبانيه العظام .

وهى التى خصّها الفقهاء باسم « العبادات » فى مقابلة ما أطلقوا عليه ــ فى تقسيمهم الفقهى ــ اسم « المعاملات » . لأن الشارع ــ فى الأولى ــ هو المنشىء والموجد لها ؛ فقبل الشرع لا عبادة . أما الثانية فالشرع فيها مصلح ومهذب ، لأن الناس لا تخلو حياتهم من التعامل والتبادل ، فإذا جاء الشرع أقر الصالح من معاملاتهم ، ونفى الفاسد منها . ولهذا قرَّر المحققون من أئمة الإسلام : أن الأصل فى العبادات الحظر إلا ما جاء به الشرع ، أما العادات والمعاملات فالأصل فيها الإباحة إلا ما منعه الشرع .

هذه العبادات هى التى نتحدث هنا عن المنهج الأمثل الواجب اتباعه فى تعليمها ، وهو منهج مستمد من طبيعة ديننا . وروح شريعتنا .

فلقد مرَّت هذه العبادات من الناحية التعليمية بأطوار ومراحل ، حتى بلغت من التفريع والتعقيد والتشديد مبلغاً لم يعد يتسع لمعرفته وقت الرجل العادى فى عصرنا ، ولو اتسع له وقته لم يتسع له فكره وقلبه .

وليس معنى هذا أننا نريد أن «نطوّر» العبادات حتى تهضمها معدة عصرنا المترفة، وتلائم روحه الجديدة.

كلا .. فالعبادات لا تقبل التطور، ولا تتغير بتغير الزمن، ولا تخضع لاجتهاد أو قياس أو إجماع، ولا تلين فى يد الزمن لين العجينة فى يد الخبّاز. حتى يشكلها حسبما يريد.

العبادات ثابتة ثبات الخلود. وكل ما نريد تغييره هو منهج تعليمها. وكل ما نريده أن نعود بهذا المنهج إلى ما كان عليه الحال فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين الطاهرين.

* * *

١ ــ فقه العبادة . . لا علم العبادة:

ولكى نسير على هدى، يجب علينا أن نعرف هدفنا، إن هدفنا من هذا التعليم والتفقيه أن نحبب رب الناس إلى الناس، حتى يعبدوه عبادة حب وشكر وإقبال، لا عبادة مراسم وقوالب وأشكال .. أن نوجههم إلى روح العبادة لا صورة العبادة فحسب. وبعبارة أخرى: أن يكون همنا «فقه» العبادة لا «علم» العبادة. والفقه معنى فوق العلم، والتفقيه أخص من التعليم. العلم يتعلق بالعقول والرؤوس، والفقه يتجاوز ذلك إلى القلوب والنفوس. والرسول صلى الله عليه وسلم إنما ناط الخير بالفقه في الدين لا بمجرد العلم الظاهرى الجاف به. قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» (١).

غير أن مفهوم «الفقه» هذا أصابه من التغيير ما جعل مؤداه مجرد العلم الجاف بتقصى التفريعات الظاهرة، والأحكام الخلافية، وكثير من الفروض والمسائل الدقيقة التى تعد من الأغاليط أو من التنطع. وقد ذكر الإمام الغزالى(٢) ما بُدّلَ من الألفاظ الإسلامية، وما حُرِّفَ من الأسامى

(١) رواه البخارى.

(٢) الإحياء جـ ١ ص ٣٢، ط. دار إحياء الكتب العربية

المحمودة، ونُقِلَ بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألفاظ. أولها: الفقه.. فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة.. والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقاً فيها، وأكثر اشتغالا بها، يقال هو الأفقه. ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا. وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب. يدلك عليه قوله عز وجل: «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» (١) وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وينزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا» (٢) وأراد به معاني الإيمان.. ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال قديماً وحديثاً، قال تعالى: «لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ» (٣) فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه، فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم.. وقال صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى. قال: من لم يقنط عباد الله من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى ما سواه» (٤).. وقد سأل فرقد

---

(١) التوبة: ١٢٢.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) الحشر: ١٣.
(٤) رواه ابن عبد البر، والأكثر يوقفه عن علي.

السبخى الحسن عن شىء فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك ! فقال الحسن رحمه الله : ثكلتك أمك يا فريقد .. وهل رأيت فقيهاً بعينك ؟ ! إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع ، الكاف نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم . قال الغزالى : ولم يقل فى جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى . ولست أقول : إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق العموم والشمول ، أو بطريق الاستتباع فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر» اهـ .

هذا ما ذكره الإمام الغزالى . وبهذا يتضح لنا أن الذى نريده بفقه العبادة إنما هو الفقه كما كان فى العصر الأول ، هو الفقه الذى يرقق القلوب ، ويطهر النفوس ، ويذكر بالآخرة ، ويضىء الطريق إلى الله .

فقه الصلاة مثلا ، هو إدراك سرها ، والنفوذ إلى لبها وروحها ، وعلم الصلاة هو المعرفة الجافة بشرائطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها .

فقه الصلاة يتمثل فى مثل ما روى عن حاتم الأصم وقد سئل : كيف تقيم صلاتك ؟ فقال : أتوضأ فأسبغ الوضوء ، ثم آتى موضع الصلاة بسكينة ووقار . فأكبر تكبيراً بتوقير ، وأقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعاً بتخشع ، وأسجد سجوداً بتذلل . وأتمثل الجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمىّ ، والكعبة بين حاجبىّ ، وملك الموت على رأسى ، وذنوبى محيطة بى ، وعين الله ناظرة إلىّ ، وأعتبرها آخر صلاة لى . وأتبعها الإخلاص ما استطعت . ثم أسلم وأنا لا أدرى : أيقبلها الله منى أم يردها علىّ ؟!

وسبيلنا إلى ذلك ألا نعرض العبادات جافة جامدة كأنها نظريات الهندسة أو قوانين الكيمياء . وإنما نعرضها شفافة مشرقة ، موصولة بكلمات الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وسير الصالحين من المؤمنين ، وأن نبين ما اشتملت عليه من حكم وأسرار بقدر طاقتنا ، من غير أن نغلو فى تكلف

الحكم، وتطلّب الأسرار، ومن غير أن ننسى المقصد الأول من العبادات كلها وهو التذكير بحق الربوبية على العبودية.

ولهذا نرى أن أخذ العبادات من كتب فقه الحديث أولى وأعون على هذه الغاية من كتب الفقه المذهبى الجافة، وبخاصة تلك التى تهتم بكثرة الصور والفروع، ولا تهتم بالأدلة من الكتاب والسنة. فهذا الفقه الجاف لا يرطب قلباً، ولا يغذى روحاً، ولا يثمر خشية.

* * *

٢ ــ الرجوع إلى عهد البساطة:

وعلينا ثانياً أن نعود بتعليم العبادات إلى عهد بساطتها الأولى، عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأن ندع جانباً هذا التطويل والتفريع والتعقيد الذى انتفخت به بطون كتبنا الفقهية ما بين أركان وشروط، وفروض وواجبات، وسنن ومستحبات، ومبطلات ومكروهات، وتفريعات تلد تفريعات، حتى إن الحديث عن الطهارة ــ وهى إحدى مقدمات الصلاة ــ ليبلغ مئات الصفحات!!.

والعجب منا ــ أعنى الوعاظ والمرشدين الدينيين ــ أننا نريد أن نعلم عامة المسلمين العبادات بهذه الصورة التى تحتاج إلى تفرغ وتخصص والتى لم يوجبها الله ولا رسوله.

قد يجوز للعالم المتخصص أن يدرس العبادات على هذا النحو، على أن يكون ذلك لنفسه، أما أن يُعلِّم ذلك لسائر الناس فهذا خطأ مبين.

إن الله تعالى يقول: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (١) فماذا كان يصنع الرسول صلى الله عليه وسلم فى تعليم شعائر الدين وعباداته؟

---

(١) الأحزاب: ٢١.

لقد كان الرجل يجيء إليه من البادية ــ بعد أن يشرح الله صدره للإسلام ــ يريد أن يتعلم منه الدين. فيسأله بضع أسئلة و يتلقى منه أجوبتها بكل بساطة ووضوح، ويحضر معه بعض الصلوات، فيأخذ عنه صورتها بالرؤية والقدوة لا بالاستظهار والتلقين. وهكذا علمهم عليه الصلاة والسلام «صلوا كما رأيتموني أصلي» ففي جلسة أو جلسات يعود الرجل إلى بيته وقد عرف ما يجب على مثله، وما يَفْتح له باب الجنة إن عمل بمقتضاه.

ذلك هو تعليم العبادة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، لم يكونوا يحللون النصوص ويُشَرِّحون الألفاظ، ويلتمسون التخريجات والتأويلات. إذا قال الله تعالى: «فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ» (١) لم يخصصوا درساً في تعريف ماهية الغسل والفرق بينه وبين المسح، ولا في تحديد مساحة الوجه وأنه ما بين منبت الشعر إلى أسفل الذقن طولاً وما بين شحمتي الأذنين عرضاً الخ. أجل.. لا يفعلون ذلك، لأن كل أحد يعرف ما هو الغسل وما هو الوجه. كل إيضاح أو شرح في مثل هذه المعاني هو أول باب التعقيد.

«الله أكبر» هل يجهل مسلم هذه الكلمة التي جعلها الإسلام فاتحة الأذان والإقامة والصلاة؟

ولكن كتب الفقه حين تتحدث عن «تكبيرة الإحرام» وهي التكبيرة الأولى التي يدخل بها المسلم في الصلاة تحيطها بمجموعة من الشروط الكثيرة، حتى ليخيل إليك أن نطق هذا اللفظ ــ الذي هو على لسان كل مسلم ــ من العسر بمكان. وتالله إن العسر ليس في كلمة التكبير، ولا في ألسنة من يتعلمون، ولكنه في روح من يُعلِّمون.

---

(١) المائدة : ٦

إنهم يُعلّمون الناس من كتب وُضِعَتْ للمتخصصين المتفرغين لطلب العلم لا لعامة الناس المزحومين بمشاغل الحياة ومطالبها. وبعض هذه الكتب لاتخلو من تعقيد وتكلف، وبعضها لا يخلو من إضافات وابتداعات لم يأذن بها الله.

لقد كنت أدعو بعض المسلمين أو المسلمات فى الريف إلى الصلاة فيعتذرون ـــ ببراءة ـــ أنهم لا يعرفون الصلاة ولا شروطها وما يجب لها. كأن هذه الصلاة شىء يحتاج إلى طول تعلم ومعاناة. والقوم فى الحقيقة معذورون. فالذى يدرس لهم الوضوء يدرسه لهم فى عدة أيام أو ليال ولا يكاد يفرغ منه: يعلمهم أن يقولوا فى بدء الوضوء مثلاً: الحمد لله الذى جعل الماء طهوراً والإسلام نوراً. وأن يقولوا عند الاستنشاق: اللهم أرحنى رائحة الجنة وأنت عنى راض. وعند غسل الوجه كذا، وعند غسل كل عضو أو مسحه دعاءً خاصاً يحفظه عن ظهر قلب. والعامى المسكين يصعب عليه حفظ هذه الأدعية ـــ التى لم يرد بها كتاب ولا سنة ـــ ويظن أن الوضوء بغيرها لا يصح، فيستثقل الوضوء ويهرب من تبعات الصلاة، من جراء هذا التعقيد المبتدع المصنوع.

كيف يمكن أن نعلم الناس الصلاة من كتاب مثل «الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع» فى فقه الشافعية والذى يُدَرِّس على طريقته بعض الشيوخ فى المساجد، وكيف تتسع صدور الناس وأوقاتهم ليعرفوا أن للصلاة ـــ كما قال الكتاب ـــ ثمانية عشر ركناً، ثم نحدثهم عن ركن كالنية «واستحضارها» فى زمن استغرق من الكتاب عدة صفحات مليئة مزدحمة، كأن النية أمر يحتاج إلى شرح، وكأن استحضارها أمر عسير!! ثم نحدثهم عن تكبيرة الإحرام بأن لها خمسة عشر شرطاً إن اختل واحد منها لم تنعقد الصلاة؟!

وجمهرة كتب الفقه على هذا النمط إلا قليلاً، ومعظم هذا القليل مهجور.

أليس أفضل من هذا وأجدر بالقبول تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم السهل البسيط الذى لا تقعر فيه ولا إعنات؟!

وحسبنا أن نستمع فى صفة الصلاة وكيفيتها إلى ما روى أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: «دخل رجل المسجد فصلى ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسلم فرد عليه السلام وقال: ارجع فصل، فإنك لم تصل، فرجع ففعل ذلك ثلاث مرات. قال فقال: والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى! قال: إذا قمت إلى الصلاة فكبّر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها» وهذا هو الحديث الذى يعرف باسم حديث المسيء فى صلاته.

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أميل الناس إلى البساطة واليسر، وأبعدهم عن التكلف والتعمق والتنطع، وقد قال تعالى يخاطب رسوله: «قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ» (١).

وقال أنس بن مالك: كنا عند عمر رضى الله عنه فسمعته يقول: «نهينا عن التكلف».

ولقد غاب عن عمر معنى «الأبّ» فى قوله تعالى: «وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا» (٢) وأراد أن يسأل عن المدلول الدقيق لهذه اللفظة ثم خشى أن يكون هذا من التكلف المنهى عنه وقال: ماذا على عمر إذا لم يعرف ما الأبّ؟

وقال ابن مسعود: «من كان فيكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً. اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

---

(١) سورة ص: ٨٦.

(٢) عبس: ٣١.

ولقد نبّه الإمام الشاطبى (١) على هذه الحقيقة الهامة وهى : أن تعليم الشريعة ، وبيان أمور الدين ، يجب أن يكون بما يليق بجمهور الناس ، دون اللجوء إلى التعمقات الفلسفية العويصة . فإذا قيل : ما المَلَك ؟ قيل : خلق من خلق الله يتصرف بأمره . أو معنى الكوكب قيل : هذا الذى نشاهده بالليل . وعلى هذا وقع البيان فى الشريعة كما قال عليه الصلاة والسلام : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) ففسره بلازمه الظاهر لكل أحد .. وقد بيَّن عليه الصلاة والسلام الحج بفعله وقوله على ما يليق بالجمهور، وكذلك سائر الأمور، وهى عادة العرب ، والشريعة عربية . ولأن الأمة أمية ـــ أى أمة فطرية ـــ فلا يليق بها من البيان إلا الأمىّ أى السهل .

وأما التعمق الذى لا يليق بالجمهور فلم يعتبره الشرع ، لأن مسالكه صعبة المرام : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (٣) كما إذا طُلب معنى الملك . فأحيل على معنى أغمض منه : « ماهية مجردة عن المادة أصلا » أو يقال : ما الكوكب ؟ فيجاب بأنه « جسم بسيط كرى ، مكانه الطبيعى نفس الفلك .. الخ » . وما أشبه ذلك من الأمور التى لا تعرفها العرب ، ولا يوصل إليها إلا بعد قطع أزمنة فى طلب تلك المعانى . ومعلوم أن الشارع لم يقصد إلى هذا ولا كلف به .

ومثل هذا يقال فى الاستدلال ، فالذى يليق منه بالجمهور ما كانت مقدمات الدليل فيه ضرورية أو قريبة من الضرورية ، وهو الذى نبّه القرآن على أمثاله ، كقوله تعالى : « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ » ؟ (٤) « قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (٥) إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) المقدمة السادسة من كتاب الموافقات جـ ١ ص ٥٦ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) الحج : ٧٨ .
(٤) النحل : ١٧ .
(٥) يس : ٧٩ .

قال الشاطبي : «وعلى هذا النحو مضى السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف. ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية، علم أنهمْ قصدوا أيْسَر الطرق وأقربها إلى عقول الطالبين، لكن من غير ترتيب متكلف ولا نظم مؤلف، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه إذا كان قريب المأخذ، سهل الملتمس».

وإذا صدق هذا في أمور الشريعة كلها، فإن العبادات — بوجه خاص — أولى شيء بهذا التبسيط، وتجنب التكلف والتعقيد.

إن كل تعقيد في تعليم العبادات لا ينفر منها، ويصيبها بالجفاف والعقم فحسب، بل هو ضرر مؤكد على تعليم شرائع الإسلام وآدابه الأخرى، وفقاً للمبدأ المعروف «كل إسراف لا بد أن يكون بجانبه حق مضيع».

وإني لأذكر واقعة حدثت لي تبين هذا المعنى بجلاء: كان الشهر شهر رمضان، وكانت الليلة السابعة عشرة منه، أعني الليلة التي كانت صبيحتها غزوة بدر الكبرى، وقد دُعيت في إحدى القرى لألقي موعظة هناك في هذه الذكرى. وتقبَّل الجمهور كلمتي بقبول حسن، وعرفوا بعض ما كانوا يجهلون من تاريخ دينهم وسيرة نبيهم، ولكن رجلاً واحداً هو الذي لم يعجبه هذا الموضوع كله، ذلك هو أحد عجائز الشيوخ الذين يعلِّمون الناس الدين في الريف، وهو الإمام لهذا المسجد الذي أخطب فيه. إن الرجل لم يكن يعرف هذا اللون من الأحاديث الدينية. إنه كغيره — ممن رأيت بعيني وسمعت بأذني — يظل يُدرس للناس طيلة ليالي رمضان، في آداب الاستنجاء، وفرائض الوضوء وسننه، ومستحباته، ونواقضه، وأعذاره، والمياه التي يجوز بها التطهير، والتي لا يجوز، إلى آخر ما نعرف في لغة الفقه، وينتهي الشهر الكريم، والمسكين لم يخرج بعد من دورة المياه!!

قال الشيخ: حديثك عظيم يا أستاذ، ولكن أما كان الأنفع أن يتعلم الناس في هذه الليلة شيئاً من أمور دينهم؟

قلت له : وسيرة رسول الله وغزواته ، أليست من أمور دينهم ؟! لقد قال سعد بن أبي وقاص : كنا نروى أبناءنا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما نُعلّمهم السورة من القرآن !

قال : أقصد أن يتعلموا كيفية الوضوء والغسل ويعرفوا شروط ذلك وواجباته وسننه .. و.. و.. إلى غير ذلك مما لا تصح الصلاة إلا به .

قلت : يا سيدى الشيخ .. أنت تحفظ القرآن ، فهل تستطيع أن تجيبنى : فى كم آية ذكر الله شئون الوضوء والغسل وما بينهما من أمور الطهارة ؟ وسكت الشيخ . فقلت : إنها آية واحدة جمعت ذلك كله (١) . قال الله تعالى فى سورة المائدة : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢) .

ثم قلت : وفى كم سورة ذكر الله شأن الجهاد والقتال فى سبيل الله ؟

وسكت الشيخ . فقلت له : إن عندنا مجموعة من السور القرآنية توحى أسماؤها وحدها بموضوعها ــ وهو الجهاد ــ منها : « الأنفال » ــ أى غنائم

---

(١) وهناك آية أخرى فى سورة النساء ، تناولت الموضوع أيضاً باختصار وإجمال ولم تفصله كآية المائدة . هذا كل ما فى القرآن عن الطهارة .

(٢) المائدة : ٦

الحرب ـ « والتوبة » ـ أى توبة المتخلفين عن الجهاد ـ « الأحزاب » . « القتال » . « الفتح » . « الصف » . « الحشر » ـ الجلاء ـ « الحديد » . « العاديات » ـ الخيل التى تعدو فى الحرب ـ « النصر » .

وهذا غير السور الكثيرة التى ذُكرت فيها آيات شتى عن القتال والغزوات كسورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها .

فكيف نهمل ما عنى القرآن به هذه العناية الفائقة فى هذه السور والآيات الغزيرة . ونعيش شهراً أو أكثر ندور حول آية واحدة ، كما يدور الثور فى الساقية ؟ !

والحق أن القرآن يجب أن يكون ميزاننا فى درجة الاهتمام بالشىء وأن نعطى الأمر من العناية بقدر ما أعطاه القرآن ، بلا وكس ولا شطط : وهذا هو أعدل الموازين ، ومن أحسن من الله حكماً ؟

* * *

٣ ـ التيسير لا التزمت والوسوسة :

وعلينا فى تعليم العبادات أن نذكر هذه الكلمة النبوية المضيئة التى خاطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه حين ثاروا بأعرابى بال بالمسجد جهلاً منه وجفاء ، فقال لهم : « لا تقطعوا على الرجل بولته ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » .

وحين بعث أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن أوصاهما هذه الوصية الجليلة « يسِّرا ولا تُعسرا ، وبشِّرا ولا تُنفِرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

والتيسير أمر فوق التبسيط الذى ذكرناه .. التبسيط إنما يكون فى التعليم ، والتيسير يتناول العمل والأداء .

إننا فى عصر شغل الناس فيه بحياتهم الدنيا ، وغلبت عليهم النزعة المادية البغيضة .. وللشيطان فى الناس سوق نافقة ، وبضاعة رائجة ، وعملاء مدربون ..

وعلينا نحن معلمى الدين أن نشحذ أسلحتنا لجهاد الشيطان ومطاردته، وتنفير أتباعه من بضاعته، وإغرائهم ببضاعتنا، وجذبهم إلى سوقنا. ولن يكون ذلك أبداً بالتعنت والتزمت، والإحراج والتشديد، والتعسير والتنفير... ولسنا نريد أن نبتكر لأبناء العصر ديناً سهلاً خالصاً سائغاً للشاربين. وإنما دين الله نفسه يسر لا عسر فيه هو الذى قال: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (1) وهذا نفى عام لكل حرج فى الدين. فأى حرج حقيقى صادفناه فلنعلم أنه من صنع الناس لا من شرع الله.

إن هناك بعض المتدينين الطيبين مصابون بمرض نفسى اسمه «الوسوسة» فتراهم يشدّدون على أنفسهم تشديداً لم يشرعه الله فى كتاب ولا سنة، ولم يرض به أحد من سلف هذه الأمة الصالحين الذين حملوا على الوسوسة وأصحابها وقالوا: إنها خبل فى العقل ونقص فى الدين.

وأى خبل فى العقل وأى نقص فى الدين أجلى مما ذكره عنهم الإمام ابن قدامه الحنبلى (2) ــ المتوفى سنة ٦٢٠ هـ ــ فى رسالته فى «ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة». قال:

«إن طائفة من الموسوسين قد تحققت منهم طاعة الشيطان، حتى اتصفوا بوسوسته ونسبوا إلى قبول قوله وطاعته، ورغبوا عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقه، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صلى كصلاته، أن وضوءه باطل، وصلاته غير

---

(1) الحج: ٧٨.

(2) كلمة «حنبلى» فى أوساط العامة من المصريين توحى بالتزمت والتشدد والوسوسة. ولكن الدارسين يعلمون أن المذهب الحنبلى من أيسر المذاهب الفقهية إن لم يكن أيسرها جميعاً ــ فى العبادات والمعاملات، و يتبين ذلك فى مؤلفات الإمام ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم. وقد رأيت ثلاثة من أعلام الحنابلة حملوا جميعاً على التنطع والوسوسة فى كتبهم حملة عنيفة لا تكاد توجد فى مذهب آخر وهم: ابن قدامه فى رسالته المذكورة وابن القيم فى «إغاثة اللهفان». وابن الجوزى فى «تلبيس إبليس».

صحيحة ، ويروى أنه إذا فعل مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مؤاكلة الصبيان وأكل طعام عامة المسلمين، أنه قد صار نجساً يجب عليه تسبيع يده فيه ، كما لو ولغ فيهما كلب أو بال عليهما هر !!

« ثم إنه بلغ فى استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى شبيه بالجنون ، وتقارب من مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات ، فإن علم الإنسان بحال نفسه من الأمور اليقينيات الضروريات . وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلا يشاهده ببصره ، ويكبّر ويقرأ شيئاً بلسانه تسمعه أذناه ، ويعلمه بقلبه ، بل يعلمه غيره منه ، ويتيقنه إذا رأى ذلك أو سمعه منه ، وهذا يصدق الشيطان فى إنكاره يقين نفسه ، وجحده لما رأى ببصره ، وسمعه بأذنه ، ثم يشك : هل فعل ذلك أم لا ؟

« وكذلك يشككه فى نيته وقصده ، التى يعلمها من نفسه يقيناً ، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله ، ومع ذلك يقبل قول إبليس فى أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها ، مكابرة منه لعيانه ، وجحداً ليقين نفسه ، حتى تراه متردداً متحيراً ، كأنه يعالج شيئاً يجذبه ، أو يجد شيئاً فى باطنه يستخرجه كل ذلك مبالغة فى طاعة إبليس ، وقبولا من وسوسته . ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد ، فقد بلغ النهاية فى طاعته . ثم إنه يقبل قوله فى تعذيب نفسه ، ويطيعه فى الإضرار بجسده ، بالغوص فى الماء البارد ، وتارة بكثرة استعماله ، وإطالة الفرك مبالغة ، وربما فتح عينيه فى الماء وغسل داخلها ، حتى يضر ببصره ، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس ، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزىء به من يراه .

« وربما شغله بوسوسته حتى تفوته الجماعة ، وربما فاته الوقت ، ويشغله بوسوسته فى النية حتى تفوته التكبيرة الأولى وربما فوّت عليه ركعة أو أكثر ، وربما فوّت عليه الوقت » .

« ومنهم من يحلف على نفسه : لأثبتن ، ولا زدت .. ويكذب » .

ومنهم من يتوسوس في إخراج الحروف حتى يكرر الحرف الواحد مرتين أو ثلاثاً، ورأيت منهم من يقول: أكككبر.. وقال لي إنسان: قد عجزت عن قول «السلام عليكم» فقلت له: قل مثل ما قلت الآن وقد استرحت!

ونحو هذا أصنافهم كثيرة.

«وقد بلغ الشيطان منهم إلى أن عذبهم في الدنيا، وأخرجهم عن اتباع نبيهم المصطفى، وأدخلهم في جملة المتنطعين، الغالين في الدين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

قال ابن قدامه رحمه الله: فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر صحة ما ذكرناه من الحق في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله. وليعزم على سلوك طريقته، عزيمة من لا يشك في أنه عليه الصلاة والسلام— على الهدى المستقيم، وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته، ويتيقين أنه عدو لا يدعو إلى الخير، ولا يرشد إلى طائل: «إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ»(١).

ثم ليعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما كان فيهم موسوس، ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادخرها الله تعالى عن رسوله وصحابته خير الخلق وأفضلهم.

ولو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم الموسوسين لمقتهم.

ولو أدركهم عمر لضربهم وعزرّهم، ولو أدركهم أحد من الصحابة لنبذهم وكرههم».

ومما نعاه الشيخ ابن قدامه على هؤلاء الموسوسين المتنطعين موقفهم في أشياء سهّل الشرع فيها، وشدّد هؤلاء فيها!

---

(١) فاطر: ٦.

فمن ذلك المشي حافياً والصلاة من غير غسل القدمين، روى أبو داوود بإسناده عن امرأة من بني عبد الأشهل قالت قلت: يا رسول.. إن لنا طريقنا إلى المسجد منتنة فكيف نفعل إذا تطهرنا؟ قال: «أليس بعدها طريق أطهر منها»؟ قلت: بلى. قال: «نهذى نهذى».. —وهذا ما لم يطأ على شيء رطب يعلق بالأرجل—.

ومن ذلك الصلاة في الخفين والنعلين، كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون في نعالهم... وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا جاء أحدكم المسجد، فلينظر: فإن رأى على نعليه قذراً فليمسحه وليصل فيهما»... وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا وطىء أحدكم بنعليه الأذى فإن التراب له طهور» وفي لفظ: «من وطىء الأذى بخفه فطهورهما التراب» رواه أبو داوود.

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي حيثما كان، وقال عليه الصلاة والسلام: «جعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً، فحيثما أدركتك الصلاة فصل» وكان يصلي في مرابض الغنم ويأمر بذلك.. وقال: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام». وقال ابن عمر: كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يرون شيئاً في ذلك.

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى وهو حامل أُمامة بنت العاص بن الربيع —متفق عليه— وهي طفلة لا تخلو من النجاسة عند الموسوسين.

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبس الثياب التي كان ينسجها المشركون ويصلي فيها.. ولما قدم عمر رضي الله عنه الجابية —بالشام— استعار ثوباً من نصارني فلبسه، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه.. وتوضأ من جرة نصرانية.

هذان طريقان واضحان: طريق أولئك المرضى الموسوسين. وطريق الرسول وأصحابه الطاهرين. فأيهما أقوم قيلا وأهدى سبيلا؟ وأيهما أحوط لديننا وأجدى على دنيانا إذا اتبعناه؟

لا شك أن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله وما عداه فهى سبل متشعبة ملتوية على كل سبيل منها شيطان مضل يأمر بالسوء والفحشاء. وصدق الله «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»(1).

وما أصدق ما قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز «سنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده ــ الخلفاء الراشدون ــ سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها. من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولأَّه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً».

فهذا هو مصير من انحرف عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو اليسر والتخفيف ــ «جهنم وساءت مصيراً».

ولكن هذا الانحراف ثمنه فى الدنيا قبل الآخرة. وأمامنا هذه القصة التالية عبرة ومثلا:

روى أبو داوود وابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال: خرجنا فى سفر، فأصاب رجل منا حجر فشجه فى رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء!! فاغتسل، فمات. فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أُخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العى السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم، ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده».

---

(1) الأنعام: ١٥٣.

فليت شعرى إذا كان الرسول قد حكم على هؤلاء بأنهم «قتلوه، قتلهم الله» مع جهلهم بالرخصة. فكيف يكون حكمه على الذين يعرفون الرخصة ويعرفون محبة الله لإتيانها، ثم يشدّدون على عباد الله؟ تُرى كم يقتلُ هؤلاء بتزمتهم وتشديدهم من الأنفس وهم لا يشعرون ؟!

* * *

٤ ـ الرجوع إلى الكتاب والسنة لا التعصب لمذهب:

ومن التزمت الذى ابتلينا به فى التعليم والإفتاء هو إلزام الناس التعبد بمذهب واحد فى كل مسائل العبادة والمعاملة. وقد يكون المذهب فى مسألة بعينها ضعيف الدليل، بعيداً عن السداد، محرجاً لعباد الله. وكأن اتباع مذهب معين فرض نطق به الوحى أو نزل به الروح الأمين.

وإن أى مذهب من المذاهب ليس إلا مجموعة من المسائل اجتهد فيها مجتهد لم يدع لنفسه العصمة، فإذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر. ولم يحتكر إمام مجتهد الصواب لنفسه، ولم يزعم للناس أن ما ذهب إليه شرع يجب أن يُتَّبع، ودين يجب أن يُقلد.

قال الإمام مالك: كل إنسان يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام الشافعى: رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب.

وقال أيضاً: إذا صح الحديث فاضربوا بقولى عُرض الحائط. بل نُسِبَت هذا القول إلى كل إمام من الأئمة الأربعة المشهورين، وما كان لهم أن يقولوا غير هذا.

وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

ويقول الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ثم يذهبون إلى رأى سفيان ــ يعنى مغفلين مقتضى حديث الرسول ــ والله تعالى يقول: « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١).

ولست أريد أن يتنقل المسلم بين المذاهب كالطائر بين الأشجار يأخذ من كل مذهب ما يوافق هواه، من غير اعتماد على أصل ولا حجة. كلا.. إنما أريد أن يتبع المسلم الدليل، وأن يخضع للحكم الذى قويت حجته، واطمأن إليه قلبه، ووافق قواعد الشريعة، وروح الإسلام، وهذا ما كان عليه السلف قبل انتشار المذاهب وأتباعها، وقبل أن يطم سيل التقليد.

فلماذا إذن نُلزم الناس بما لم يلزمهم الله به، ونكلفهم اتباع مذهب واحد وإمام معين فى كل مسائل الدين، لا يجوز له أن يحيد عنه، وفى هذا من الحرج والعسر ما نفاه الله عن الدين؟

* * *

• أمثلة للتيسير فى بعض المذاهب:

إن واجب العلماء أن ييسروا على الناس، وخاصة فى هذا العصر الذى رَقَّ فيه الدين وقَلَّ التدين.

• ما أُكل لحمه فروثه وبوله طاهر:

ومن أمثلة ذلك: أن معظم المسلمين فى ريف مصر يتعبدون على مذهب الإمام الشافعى، ونحن نجد أن مذهب الشافعى فى مسائل الطهارة والنجاسة من أقسى المذاهب وأشدها على الناس، وبخاصة أهل الريف.

---

(١) النور: ٦٣.

فبينما يقول المذهب المالكى: كل ما أُكل لحمه فبوله وروثه طاهر ــ يجعل المذهب الشافعى كل ذلك نجساً. والدليل فى مذهب مالك أقوى وأرجح وأوفق بروح الإسلام وحاجة الناس.

ويقول ابن القيم: إنه يُعفى عن يسير أرواث البغال والحمير والسباع فى إحدى الروايتين عن أحمد، اختارها شيخنا، لمشقة الاحتراز.

وقال الوليد بن مسلم: قلت للأوزاعى: فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه كالبغل والحمار والفرس؟ فقال: قد كانوا يبتلون بذلك فى مغازيهم فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب.

ومن ذلك: نص أحمد على أن الوذى يُعفى عن يسيره كالمذى وكذلك يعفى عن يسير القىء.

وقال شيخنا: لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المدّة والقيح والصديد. قال: لم يقم دليل على نجاسته. وذهب بعض أهل العلم إلى طهارته (١).

* * *

● الماء لا ينجس إلا بالتغير:

ومن ذلك أن الذى دلت عليه السنة وآثار الصحابة أن الماء وإن كان يسيراً لا ينجس إلا إذا أدت النجاسة إلى تغيير طعمه أو لونه أو ريحه.

وهذا قول أهل المدينة وجمهور السلف، وأكثر أهل الحديث. وبه أفتى عطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد، والأوزاعى وسفيان الثورى ومالك ابن أنس وعبد الرحمن بن مهدى واختاره ابن المنذر وبه قال أهل الظاهر ونص عليه أحمد فى إحدى روايتيه، واختاره جماعة من أئمة الحنابلة منهم ابن عقيل وابن تيمية وابن القيم.

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٥١.

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى سعيد قال : قيل : يا رسول الله.. أنتوضأ من بئربضاعة ؟ ـ وهى بئر تُلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب، والنتن ـ فقال : «الماء طهور لا ينجسه شيء» قال الترمذى : حديث حسن وقال الإمام أحمد : حديث بضاعة صحيح.

وروى ابن ماجه عن أبى أمامة مرفوعاً : «لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه أو طعمه أو لونه» وهذا الاستثناء لم يصح من جهة السند، ولكن الفقهاء أجمعوا عليه.

وقد لاحظ الإمام الغزالى شدة الإمام الشافعى فى مسائل «النجاسة» فقال فى كتاب الطهارة من «الإحياء» مستدركاً على مذهب الشافعى رضى الله عنه : «وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضى الله عنه فى أن الماء وإن قَلَّ لا ينجس إلا بالتغير، إذ الحاجة ماسة إليه، ومثار الوساوس اشتراط القلتين ولأجله شق على الناس ذلك، وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يجرّبه ويتأمله..» وقد قوّى الغزالى ـ وهو شافعى ـ ما ذهب إليه مالك بسبعة أدلة، تراجع فى كتاب الطهارة من «الإحياء» لمن شاء.

* * *

• لمس المتوضىء للمرأة :

ومن ذلك أن الشافعى يذهب إلى أن لمس المرأة ـ ولو زوجة بغير شهوة ـ ينقض الوضوء مستدلاً بآية «أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ»(1) وفى هذا حرج على الناس فى الريف أيضاً. والمتأمل فى الآية يجد أن مذهب الحنفية أقوى وأوضح.

(أ) فقد قال ابن عباس ـ وهو ترجمان القرآن ـ : إن اللمس والملامسة والمس فى القرآن بمعنى «الجماع» وذلك كقوله تعالى : «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ

(١) المائدة : ٦.

مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ » [1] « وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » [2] .

(ب) بتفسير الملامسة هنا بالجماع تكون الآية قد اشتملت على الحدث الأصغر المكنى عنه بقوله تعالى « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ » [3] والحدث الأكبر المكنى عنه بقوله تعالى : « أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ » [4] ويكون التيمم بنص الآية مغنياً عن الوضوء وعن الغسل عند فقد الماء . ولو فسرت الملامسة بالمعنى الظاهر منها ما أفادت الآية ذلك .

(جـ) وردت عدة أحاديث تقوى تفسير ابن عباس للآية : فقد أخرج البزار بسند جيد ، وإسحاق بن راهويه عن عائشة : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلها وهو صائم وقال : « القبلة لا تنقض الوضوء ولا تفطر الصائم » قال عبد الحق فى هذا الحديث : لا أعلم له علة توجب تركه .

وروى مسلم والترمذى عنها : «أنها فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوجدته فى المسجد يصلى ، فوضعت يديها على بطن قدميه وهما منصوبتان » .

وروى عنها أحمد وأصحاب السنن بسند رجاله ثقات : أن النبى صلى الله عليه وسلم قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ .

وروى الشيخان عنها قالت :«كنت أنام بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ورجلاى فى قبلته ، فإذا سجد غمزنى فقبضت رجلى » وفى لفظ « فإذا أراد أن يسجد غمز رجلى » وتأويل مثل هذا الحديث بأن الغمز أو وضع اليد على بطن القدم كان فوق حائل خروج على مقتضى الظاهر بدون دليل .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .
(٢) مريم : ٢٠ .
(٣) المائدة : ٦ .
(٤) المائدة : ٦

• المسح على الجوربين.

ومن ذلك: المسح على الجوربين. فأكثر المرشدين الدينيين لا يتسع صدرهم للترخيص في المسح عليهما في الوضوء بدل غسل الرجلين، مع ما روى من أن بضعة عشر صحابياً أفتوا بجوازه منهم عمر بن الخطاب وعلىّ ابن أبى طالب وابن مسعود وابن عباس والبراء بن عازب وأنس بن مالك وأبو أمامة وسهل بن سعد، وعمرو بن حريث وغيرهم رضى الله عنهم.

وهذه رخصة تشتد حاجة الناس إليها فى عصرنا، الذى يشق فيه غسل القدمين، وخلع الجوربين فى غير المنزل، كما أن غسلهما مدعاة لكسل بعض الناس عن الوضوء فى برد الشتاء العضوض.

* * *

• الصلاة بالثوب النجس غير متعمد:

ومن التيسير الذى لم يرتح إليه كثير من المتمذهبين ما أفتى به من الصحابة عبد الله بن عمر. ومن التابعين عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن المسيب، وطاووس، وسالم، ومجاهد، والشعبى، وإبراهيم النخعى، والزهرى، وممن بعدهم يحيى بن سعيد الأنصارى، والحكم، والأوزاعى، ومالك، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والإمام أحمد فى أصح الروايتين، وغيرهم «أن الرجل إذا رأى على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة ولم يكن عالماً بها، أو كان يعلمها ولكنه نسيها، أو لم ينسها ولكنه عجز عن إزالتها: أن صلاته صحيحة ولا إعادة عليه».

* * *

• الحقن كلها لا تفطر:

وكثيراً ما وُجهَ إلىّ فى شهر رمضان سؤال يقول: هل تُفطر الحقن الشرجية، وكذلك استعمال المراهم وما شابهها فى فتحة الشرج لأجل البواسير ونحوها؟

والمشهور عند عامة الناس : أن الحقن الشرجية تفطر، وأن إدخال شيء مقدار «عقلة إصبع» في الدبر يفطر. ولكنى اخترت غير هذا المذهب فى جوابى عن السؤال فقلت فيه :

لا يجهل أحد معنى الصوم البسيط وهو الامتناع عن الأكل والشرب ومباشرة النساء. وهى أمور نص عليها القرآن، ولا يجهل أحد كذلك معنى هذه الممنوعات، فقد كان يفهمها بداة الأعراب فى عهد النبوة، ولم يحتاجوا فى فهم معنى الأكل والشرب إلى حدود وتعريفات. ولا يجهل أحد كذلك الحكمة الأولى للصوم، وهى إظهار العبودية لله تعالى بترك شهوات الجسد، طلباً لمرضاته سبحانه، كما قال فى الحديث القدسى : «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلى».

وإذا تبين ذلك رأينا أن تعاطى الحقن بأنواعها، واستعمال المراهم ونحوها، ليس أكلاً ولا شرباً فى لغة ولا فى عرف، ولا تنافى قصد الشارع وحكمته من الصيام، ولا موضع للتشديد فى أمر لم يجعل الله فيه من حرج.

قال الله تعالى : «يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ» (١).

قال ابن حزم : لا ينقض الصوم حقنة (٢). ولا سعوط ــ نشوق ــ ولا تقطير فى أذن أو فى إحليل أو فى أنف، ولا استنشاق وإن بلغ الحلق ولا مضمضة دخلت الحلق من غير تعمد، ولا كحل وإن بلغ إلى الحلق نهاراً أو ليلاً، بعقاقير أو بغيرها ولا غبار طحن، أو غربلة دقيق أو حناء أو عطر، أو حنظل، أو أى شيء كان، ولا ذباب دخل الحلق بغلبة .. الخ.

هذا ما ذهب إليه فقيه ظاهرى يُحكِّم حرفية النصوص فى كل حكم وقد استدل لما ذهب إليه فقال : إنما نهانا الله فى الصوم عن الأكل والشرب

(١) البقرة : ١٨٥.

(٢) يعنون بها الحقنة الشرجية، إذ الحقن العرقية والجلدية لم تكن عرفت فى عهدهم.

والجماع، وتعمد القيء والمعاصي. وما علمنا أكلاً ولا شرباً يكون على دبر أو إحليل، أو أذن أو عين أو أنف، أو من جرح في البطن أو الرأس. وما نهينا قط عن أن نوصل إلى الجوف ــ بغير الأكل والشرب ــ ما لم يحرم علينا إيصاله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الكحل والحقنة والتقطير ووصول الدواء إلى الجوف عن طريق جراحة في الرأس أو البطن.. الخ: «الأظهر أنه لا يفطر شيء من ذلك، فإن الصيام من دين الإسلام الذي يحتاج إلى معرفته الخاص والعام، فلو كانت هذه الأمور مما حرَّمها الله ورسوله في الصيام، ويفسد الصوم بها، لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه، ولو ذُكر لعلمه الصحابه وبلَّغوه الأمة، كما بلَّغوا سائر شرعه، فلما لم ينقل أحد من أهل العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك حديثاً صحيحاً ولا ضعيفاً، ولا مسنداً ولا مرسلاً، عُلم أنه لم يذكر شيء من ذلك».

* * *

• من تسحر بعد الفجر خطأ:

والمشهور من المذاهب المتداولة فيمن تسحر يظن نفسه في الليل ثم تبين أن سحوره أو جزءاً منه كان بعد الفجر أو أفطر يظن الشمس غربت ثم تبين أنها طالعة. أن صوم هذا أو ذاك قد بطل، وعليه إمساك بقية يومه، ولا إثم عليه، إذ كان مخطئاً لا متعمداً، وعليه قضاء يوم مكان يوم.

ولكن أبا محمد بن حزم يرى أن الصوم صحيح في الحالين، لأنه لم يتعمد إبطال صومه، حيث ظن أنه في غير صيام، فهو والناسي سواء، كلاهما ظن أنه في غير صيام، ولا فرق. قال تعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» (١) وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

---

(١) الأحزاب: ٥.

قال: وهذا قول جمهور السلف. وروى بسنده: أن الناس أفطروا فى زمن عمر بن الخطاب، وأخرجت القداح من بيت حفصة فشربوا ثم طلعت الشمس من سحاب، فكأن ذلك شق على الناس فقالوا: نقضى هذا اليوم. فقال عمر: ولم؟ والله ما تجانفنا لإثم!!

وعن مجاهد قال: من أكل بعد طلوع الفجر وهو يظن أنه لم يطلع فليس عليه قضاء، لأن الله تعالى يقول: « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ » (١) وروى مثل ذلك عن الحكم بن عتيبة، والحسن البصرى، وجابر بن زيد، وعطاء بن رباح، وعروة بن الزبير، وهو قول داوود الظاهرى.

ودليل ابن حزم قوى واضح. وإن كان أقوى وأنصع بالنسبة لمن تسحر بعد الفجر، إذ القرآن أباح المباشرة والأكل والشرب حتى يتبين الفجر للمكلف، ومن تسحر يظن أنه فى الليل لم يتبين له الفجر قطعاً.

ولذلك نرى أن على الصائم أن يتحرى ويجتهد وسعه، وخاصة لمعرفة غروب الشمس ودخول الليل، فإذا اطمأن إلى مغيبها وأفطر، ثم تبين أنها لم تنزل فما أظن الحرج إلا مرفوعاً عنه حينئذ. قال تعالى: « فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ » (٢) ولذا قال عمر: والله ما تجانفنا لإثم. ونظير هذا إذا تحرى فى التوجه إلى القبلة ثم تبين أنه صلى إلى جهة أخرى فصلاته صحيحة مقبولة « فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ » (٣).

* * *

---

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) التغابن: ١٦.

(٣) البقرة: ١١٥.

٥ ـــ العناية بالفرائض أوّلا :

ومن الواجب على معلمى الدين أن يشدوا الناس إلى الفريضة أولا .

فنحن فى عصر كثرت فيه مشاغل الناس، ورَقّ فيه دين الكثيرين . فليكن همنا الأول وبغيتنا الأولى من المسلم « أداء الفرائض واجتناب الكبائر » .

وليس من الحكمة ولا الموعظة الحسنة أن نصوِّب سهام التقريع والتعنيف إلى من يُقصر فى نوافل العبادات . وهل نحن أغير على دين الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقد كان يرضى من الناس أن يؤدوا ما افتُرض عليهم بلا زيادة ولا نقصان .

وقد روى البخارى قصة ذلك الأعرابى الذى جاء يسأل النبى صلى الله عليه وسلم عما عليه من شرائع الإسلام فقال له : « خمس صلوات » .

قال : هل علىّ غيرها ؟

قال : « لا .. إلا أن تطوع . وصيام شهر رمضان » .

فقال : هل علىّ غيره ؟

فقال : « لا .. إلا أن تطوع » . وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة .

فقال : هل علىّ غيرها ؟

قال : « لا .. إلا أن تطوع » . فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرائع الإسلام فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد ولا أنقص مما فرضه الله علىّ شيئاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق » [1] .

---

(١) هذه القصة فى مسلم أيضاً مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

وروى مسلم عن أنس قال : نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية ، فقال : يامحمد .. أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ! قال : صدق . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله . قال : فبالذى خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ! قال : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا ! قال : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ . قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا صوم رمضان فى سنتنا ! قال : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا ! قال : صدق . ثم ولى الرجل قائلا : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لئن صدق ليدخلن الجنة » .

هذا ما كان من خاتم النبيين وسيد الداعين إلى الله على بصيرة ، ولكن كثيراً من المتدينين لا يرضون من غيرهم إلا أن يؤدوا السنن والنوافل والمستحبات ، وإلا برقوا ورعدوا وأرغوا وأزبدوا .

ولقد شاهدت أحد هؤلاء مرة ينهر شاباً أنيقاً رقيقاً وقف فى الصف ليقيم الصلاة ، وكان ذنبه عند ذلك الرجل أنه يصلى ورأسه مكشوفة ، وشعره مرجّل ! فقلت للرجل : هل اشترط أحد من الأئمة غطاء الرأس فى الصلاة ؟

قال : لا .

قلت : فهذه الصلاة صحيحة باتفاق ؟

قال : نعم .

قلت : فعلام إذن الغضب والعنف مع شاب كهذا ؟ أمثاله يذهبون إلى السينما وهو يذهب إلى المسجد . أيها أفضل عندك : أن يذهب هذا إلى السينما أم يصلى ورأسه مكشوفة ؟

إن المنهج السديد أن نوجه أكبر عنايتنا للفرائض قبل النوافل ، وأن نُشدِّد فى الأصول ، ونُسَهِّل فى الفروع ، فإن التشدد والتزمت فى جزئيات فرعية مختلف فيها يخشى أن تجعل الناس يتسربون من الأمور المتفق عليها ، بل يتفلتون من الدين كله .

إن علينا ألاّ نشدِّد فى الفروع والجزئيات ، والناس يديرون ظهورهم للأصول والكليات . علينا أن نجمع الناس على الفرائض الأصلية ، فإذا استجاب المسلم لأداء الفريضة وتذوق حلاوة العبادة ، ومرن عليها ، فإن ذلك سيدفعه إلى النافلة دفعاً تلقائياً . ليجبر بها ما عسى ينقصه من إحسان الفريضة ، ويترقى بها فى سلم العبودية لله ، حتى يفوز بمحبة الله وما أرفعها درجة . وفى الحديث القدسى : «ما تقرب إلىّ عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وقدمه التى يسعى بها . ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه» (١) .

ومن التناقض الذى نراه عند بعض المسلمين أنهم يكثرون من النوافل فى عبادة ما ، على حين يُقصِّرون فى الواجبات والفرائض فى ناحية أخرى .

فقد نجد من يتنفل فى الصلوات ويحرص على ختامها ، وعلى الذكر والتسبيح والتهليل والتكبير ، ومع هذا يبخل بالزكاة وهو موسر ، و يتوانى عن الحج وهو قادر .

وقد نجد من يحرص على الحج سبع مرات ، بل قد يحرص على الاعتمار والزيارة كل عام وخاصة فى شهر رجب (الرجبية) أو شهر رمضان ومع

---

(١) رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

ذلك قد يكون عاقاً لوالديه ، أو جافياً لقريبه ، أو شحيحاً على جيرانه وأهل قريته ، أو ظالماً لمن يعامله من الناس .

وواجبنا مع هؤلاء الناس ومن شابههم أن نعلمهم هذا المبدأ الإسلامى الجليل : «إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة » .

وكيف يقبل الله الحجة الثانية أو الرابعة ــ وهى النافلة ــ ممن يدع قريبه أو جاره يئن من الحاجة ، ويشكو الجوع والفاقة ولا يقدم له عوناً ، ونبى الإسلام يقول : «ما آمن بى من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم » [1] .

إن بعض المشاريع الإسلامية الجليلة النافعة تتعطل ، بل قد تموت فى مهدها ، لفقدان من يمولها ، على حين يوجد كل عام عشرات الآلاف من المسلمين يحجون الحجة الرابعة أو السابعة . فليتهم صرفوا ما ينفقون فى حج النافلة على تلك المشروعات التى يُعَد كثير منها فرض كفاية على المسلمين . إذا لم يقم به بعضهم أثموا جميعاً .

إن المسلم الفقيه فى دينه هو الذى يعرف كيف يوازن بين الأعمال : أيها يقدم وأيها يؤخر . فلا يضيع فريضة بنافلة ، ولا يحرص على مندوب يوقعه فى مكروه أو حرام .

ومن النظرات الفقهية العميقة ما قرأته للإمام الغزالى وهو يتحدث عن الآداب الدقيقة ، والأعمال الباطنة التى ينبغى أن يراعيها الحاج . فكان الأدب الثانى : «ألا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس ــ وهو ضريبة مالية تفرض بغير حق ــ وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين فى الطريق ، فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم ، فهو كالإعانة بالنفس ، فليتلطف فى حيلة للخلاص ،

---

(١) رواه الطبرانى والبزار بإسناد حسن .

فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء ــ ولا بأس بما قاله : إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة ، فإن هذه بدعة أحدثت ، وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة ، وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية ، ولا معنى لقول القائل : إن ذلك يؤخذ منى وأنا مضطر ، فإنه لو قعد فى البيت ، أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء ... فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطرار » (١) .

ولقد أرشد نبى الإسلام أمته إلى أن العمل الذى يعود بالخير والنفع على المجتمع ــ إذا صحت فيه النية ــ قد يفضل نوافل العبادات بدرجات كثيرة ، وذلك مثل إصلاح ذات البين الذى جعله النبى أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة . ومثل اشتغال الوالى العادل بأمور الشعب ومصالح الأمة ، ففى الحديث الشريف : « ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » (٢) .

ولا يذهبن الوهم بأحد أن شيئاً من هذه الأعمال الخيرة ــ مهما اتسعت رقعة نفعه ــ أفضل من أداء ما افترض الله من العبادات . كلا .. فالفرائض هى الأساس الذى ترتكز عليه الأعمال كلها ، والحديث القدسى الذى ذكرناه قريباً ينبهنا على هذا فيقول : « ما تقرب إلىّ عبدى بمثل ما افترضته عليه » (٣) .

أعتقد أننا بهذا المنهج الذي ذكرنا مبادئه في تعليم العبادات ، نستطيع أن نأخذ بأيدى الناس إلى الله ، وأن نحبب إليهم عبادته تعالى ، وأن نقاوم موجة المادية الطاغية التى تريد أن تشغل الإنسان بلقمة الخبز عن حياة الروح .

* * *

---

(١) الإحياء ص ٢٣٦ كتاب الحج من ربع العبادات .

(٢) الطبرانى بإسناد حسن .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة السابق .

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع ١٦١٨ / ٨٥

الرقم الدولى ٣ ـ ٠٤٣ ـ ٣٠٧ ـ ٩٧٧

هــذا الكتــاب

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » [قرآن كريم]
« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » [قرآن كريم]
« اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » [قرآن كريم] . . تكررت هذه الآية الكريمة أكثر من عشرين مرة فى القرآن الكريم على لسان الأنبياء والمرسلين .

● فما هى « العبادة » وكيفيتها . . ؟ وهل المقصود بها ترويض النفس البشرية وتهذيبها ـ كما تقول بعض الآراء « الفلسفية » فإذا تحقق للنفس التهذيب ، فلا داعى لمتابعة « العبادة » . . ؟

● أم أنها صلة بين الإنسان وربه يؤديها بحسب تصوره ومعتقداته ، بطريقته الخاصة ، وبمفهومه الخاص ـ دون التقيد بمواصفات وخصائص معينة ـ فله أن يبتدع ما يشاء . . وأن يزيد للتشديد . . أو ينقص للتخفيف . . ؟

● أم أن « العبادة » التى أمر الله عباده بها ـ لها طرائق محددة ـ وسنن مؤكدة ـ بينها رسوله صلى الله عليه وسلم ـ واضحة جلية ـ دون زيادة أو نقصان . . ؟

● وهذا الكتاب « العبادة فى الإسلام » . . يرد على هذه الشبهات والمفتريات . . ويكشف الزيف عن « التفريط » . و« التزمت » . . و« المبتدعات » . . فيوضح أن « العبادة مهمة الإنسان الأولى فى الوجود » . . ويبين « حقيقة ـ ومجالات العبادة فى الإسلام » . . ويلقى الأضواء على « غاية العبادة . . ولماذا نعبد الله » . . وأنه « لا يُعبد إلا الله بما شرع » . . ليتحقق « التوازن بين الروحية والمادية » . . ثم يشرح « عبادات الإسلام وشعائره الكبرى » . . وأسرارها . . ومنزلة « الصلاة » . . وحكمة « الزكاة » . . و« الصيام » . و « الحج » . . و . . الخ ، ثم يرشدنا إلى « المنهج الأمثل فى تعليم العبادات » . .

● وجاء هذا الكتاب فى وقته ، ليسد فراغاً كبيراً فى موضوعه ، فقد تولى الإجابة عن كل مايدور بالخواطر . . واستقبل بما يستحقه من الحفاوة والعرفان .

● ومؤلف الكتاب ـ أستاذ متخصص فى العلوم الدينية ـ وداعية إسلامى كبير ـ أثرى المكتبة الإسلامية بالعديد من مؤلفاته القيمة . . غاص فى بطون الكتب والمراجع . . ليخرج لنا هذا البحث الأصيل ـ فى العبادة ـ بعد أن نفض عنها غبار : التزمت والتفريط والبدع

● ويسر مكتبة وهبة أن تقوم بنشر هذا الكتاب ـ لتعرف الأمة الإسلامية ـ حقيقة ـ « العبادة فى الإسلام » وبالله التوفيق ؟

مكتبة وهبة